روائع تراث الزيدية

مجموع كتب

الإمام الناصر أحمد بن الهادي

(الجزء الثاني)

تأليف

الإمام الناصر لدين الله أحمد بن يحيى الهادي

(٣١٥هـ)

تحقيق

عبد الكريم جدبان

روائع تراث الزيدية

مجموع كتب
الإمام الناصر أحمد بن الهادي

(الجزء الثاني)

تأليف

الإمام الناصر لدين الله أحمد بن يحيى الهادي

(٣١٥هـ)

تحقيق

عبد الكريم أحمد جدبان

الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

رقم الإيداع بدار الكتب - صنعاء

(٤٧٨ / ٢٠١٢م)

التنفيذ الطباعي
دار الإمام زيد بن علي
ت (٧٧١٢٢٣٥٧٨)

[شبهة خلق الله للأعضاء التي يعصي بها الانسان]

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادي: ثم سلهم أليس قد تزعمون أن الأسماع والأبصار والجوارح منّة من الله عز وجل على الكافرين؟!

فإن قالوا: بلى.

فقل: أفليس بمنّ الله عَصَوا، وبمنّ الله ظلموا، فإنما أشركوا بمنّة الله، وبمنة الله زنوا وسرقوا، وبفضل الله وبمنته كفروا؟!

فإن قالوا: نعم.

فقل: أخبرونا عما به كفروا وبه ظلموا، أخير ذلك لهم أو شر لهم؟!

فإن قالوا: ذلك خير لهم، فالعذاب إذاً خير لهم من الرحمة، لأنه إنما منّ عليهم بشيء لو لم يمنّ عليهم به لم يعذبهم، فإنما عذبهم لأنه منّ عليهم، فإن تك منّته التي منّ بها عليهم في الأسماع والأبصار، كانت خيراً لهم، فبالخير عذبوا، لأن ذلك الخير لو لم يجعله الله لهم لم يعذبوا، فكان منّ الله عليهم شرا، ولم يكن خيرا لهم.

وإن زعموا أن ذلك الذي جعل له منة[1] أن لو لم يجعله لهم لم يعذبوا، فترك المنة إذاً خير لهم من أن يعذبوا، فهذا قول عظيم، ﴿مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩)﴾ [الذاريات].

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: وسألت عن الأسماع والأبصار والجوارح كلها، هل هي منّة من الله عز وجل على الكافرين؟

فإذا قلنا لك: نعم.

---

(١) في (ب): منًّا.

قلت لنا - زعمت -: إن بمنة الله عصى العاصون، وكفر الكافرون، وزنى الزناة، وسرق السراق، وبفضله ومنّته أيضاً أشركوا وعطلوا، وتزندقوا وفعلوا كل فاقرة، وعملوا كل فاحشة، وافتروا كل عظيمة، وقتلوا الرسل وأئمة الهدى والمؤمنين، ولولا تلك المنة والفضل الذي تفضل[1] الله عز وجل به عليهم - زعمت - والمنة التي امتنّ بها، ما فعلوا شيئا من المعاصي - زعمت - ولكن بدء ذلك منه على قولك، فصار مشاركاً لهم في أفعالهم. لأنه هو الذي أمدّهم بالمنة والفضل، على أن يكون منهم كل ما سخط، وجميع ما كره ونهى عنه، ثم غضب من ذلك الفضل الذي تفضّل به عليهم، والمنّة التي امتنّ بها، من الأسماع والأبصار وجميع الجوارح، واشتد غضبه، فأوقد النيران، وأعدّها للقوم الذين امتنّ عليهم، وتفضل بإحسانه عليهم، ولم يُهِنْهم إلا من قبل فضله ومنته، وخلّدهم على منته التي امتن بها عليهم، وبفضله الذي تفضل به بين أطباق النيران في العذاب الأليم، الذي لا راحة لهم منه، ولا انقضاء لسرمده، ولا خروج من أبده، ولا راحة لمُجَرْهَده[2] - زعمت في قولك واعتقادك - عزّ الله وتعالى عن ذلك !!

أفهكذا ويحك صفة صاحب المنة والتفضل والإحسان؟! - زعمت - أم هكذا يفعل الحكماء الكرام، والرحماء العظام؟! العادلون في الحكم، والصادقون في القول، والبراءة من الظلم؟!

أم هذا تصديق قوله في كتابه، يؤدب المؤمنين، ويعلمهم الرشد، ويدلهم على الهدى، ويزجرهم عن العبث والخطأ، والفواحش والردى، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ

(١) في (ب): أفضل.

(٢) المُجَرْهَد: المسرع في الذهاب. وفي (ب): ترك مكان الكلمة بياضا.

بِاللهِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقوله: ﴿ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنًّا وَلاَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٢]، وقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة]، فكيف يدخل فيما عاب؟!

وبالله إني لأظنّ أن هذا السائل لنا، والواضع لهذه البلايا دسيس من الزنادقة، لأن هذا قول عظيم مأخوذ من الشرك، ألم يسمع[١] هذا القائل إلى احتجاج الله عز وجل على خلقه في الأسماع والأبصار، وما وهب لهم من الجوارح، وافترض عليهم أن يستعملوها في طاعته، كما خلقها لذلك لا لغيره من المعصية، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١)﴾ [البلد]. أي: ما منعه من اقتحام العقبة، وقد تفضلنا عليه بهذه الأسماع والأبصار والجوارح؟!

ولو كان الله عز وجل إنما خلقها فيهم، وأنعم عليهم بها عمداً[٢] ليعصوه بها، وليكفروا بها، وليقتلوا رسله وأولياءه من العالمين بتلك الجوارح، للزمك هاهنا أنه قد دخل فيمَا عاب، وفعل ما عنه نهى، وقدّر ما منه حذّر، بعدما أخبر أنه كريم، وأنه متفضل عادل.

مع قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وهذه الآية وحدها كافية لنا في الاحتجاج عليك، إذ أخبرنا الله عز وجل أنه لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يكون التغيير والابتداء بالظلم منهم. وقوله عز وجل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]، فكيف يفرح أحد من الخلق بمنة وفضل وإحسان، يورث ذلك الفضل والمنة

---

(١) في (أ): تسمع. مصحفة.

(٢) سقط من (ب): عمداً.

الخلود في عذاب الجحيم والعذاب المقيم؟! حاش لله من ذلك، وعلا علوا كبيرا !!

وقوله: ما كان الله ﴿مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

يا عبد الله بن يزيد البغدادي: كيف ويلك استجزت بعد هذه الآية أن تُقدم على هذا الكفر العظيم؟!

وكيف وضعت فيه كتاباً تفتري فيه على الله عز وجل جهاراً؟! لايزال من شيعتك وإخوانك وتباعك من يعمل به، ويجري عليك وباله إلى يوم تلقى الله عز وجل، فما عذرك عنده؟!

أَمَا تدبرت كتاب الله سبحانه يوماً واحداً؟! أما أَعملت فكرك في عظيم سلطان الله وملكه، وعدله وحكمته، وجوده وكرمه، ونعمه على خلقه، ساعة واحدة، أو يوماً واحداً؟! فأنزلت العدل منازله التي يشهد لها القرآن والسنة، وتشهد عليها العقول؟!

سبحان الله العظيم، ما قدرتَ الله حق قدره، فعلمت أنه إنما ركّب فيهم الاستطاعة، وفرض عليهم الطاعة، وامتن عليهم بالأسماع والأبصار والجوارح، وافترض[1] الطاعة اليسيرة، ولم يكلفهم فوق الطاقة، وأنه قال: ﴿يُرِيدُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فأين كانت أذناه عن هذا وأمثاله؟! أتراه أيها المغرور في دينه إنما عذّب خلقه وغضب عليهم، وألزمهم العقاب لِما وهب لهم من الجوارح السالمة، والأسماع والأبصار القائمة، وامتن عليهم بالنعمة الكاملة، والفعل الجميل غير المنغَّص ولا المكدَّر، ولا المعاقَب عليه، ولا المغضوب عليهم لكونه؟!

(١) في (أ): ما افترض. مصحفة.

فكان غضبه عزّ وتعالى وعقابه التخليدَ في ناره، لما صرفوا تلك المنة العظيمة، والعطية الهنيّة، والمواهب السنية، في اتباع الهوى، والاختيار منهم لمعاصيه على طاعته، والكفر به، واتخاذ الشركاء والأنداد معه، والادّعاء معه الصواحب والأولاد، وقتل الرسل والأئمة عليهم السلام وتكذيبهم، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، ورفض الكتب واتباع الهوى، وجميع المعاصي واللذات، والقول بالجبر والإلحاد، كما قلتم !!!

فقال فيهم جميعاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)﴾ [إبراهيم]، ففعلوا جميع ما ذكرنا بأهوائهم غير مجبورين، واخترعوه بإرادتهم، فلم يكن لهم عليه جل جلاله حجة في فعلهم، ولا تباعة في كفرهم، ولا مقالة في شركهم. بل المنة له عليهم فيما وهب لهم من جوارحهم، فهي فعله لا فعلهم، ولذلك لم يسألهم عن فعله الذي فعل، من الأسماع والأبصار والجوارح، وقال في كتابه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣)﴾ [الأنبياء]. ولو كان فعلهم هو فعله، لم يقل: ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ !!

فعمَّ يسألون إذا كان الفعل كله فعله؟! والزنا والخنا[1]، والفواحش والردى، والكفر والشرك، وجميع المعاصي كلها، التي ذكرتَ أنهم نالوها بمنة الله وبفضله، ولولا منته وفضله – زعمت – ما كفروا ولا أشركوا !!

وبالله العظيم لو قال هذا القول الزنادقة على شركهم لكان عظيماً، فكيف من زعم أنه ينتحل التوحيد؟!!

والجوارح والحواس هي فعل الله عز وجل ومنته، والمعاصي فهي فعل العاصين واختيارهم، وليس يلزمه عز وجل فعلهم، لأنه عز وجل قد أمرهم أن يستعملوا

---

(١) الخنا: الفحش.

تلك المنة التي وهب لهم في الطاعة لا في المعصية، وجعل لهم السبيل إلى ذلك، وأقدرهم عليه، ولم يَحُلْ بينهم وبين الرشد بأمر من جميع الأمور كلها، وبيّن لهم وحذر، وأعذر وأنذر، فاختاروا لأنفسهم ما أرادوا من طاعة أو معصية، واستعانوا بتلك المنة التي امتن بها من الجوارح على ما نُهوا عنه. فاستعانوا بنعم الله عز وجل على معاصيه، وصرفوها في غير الوجه الذي له خُلقوا، وبه أُمروا، وله إياها أُعطوا، وأدبروا[1] من غير غلبة الله عز وجل ولا ضعف، بل أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، فلم يُطَع مكرهاً، ولم يُعص مغلوباً.

وكذلك المؤمنون استعملوا منّة الله سبحانه التي امتنّ بها عليهم من الجوارح في رضاه وطاعته، فأنجحوا وأفلحوا، غير مجبورين ولا مكرهين.

ومثل ما قد ذكرنا فيما احتججنا به عليك، في أنه لا حجة على الله سبحانه فيما وهب لهم من الأسماع والأبصار والجوارح، بل له المنة عليهم والحجة، فمثل ذلك أنّا نسألك فنقول لك: أخبرنا عن رجل دفع إليه رسول الله صلوات الله عليه سيفاً جيداً، نفيساً صارماً، وقال له: خذ هذا السيف ثم اذهب فقاتل به بين يدي من خالفني من المشركين، وجاهد به في سبيل الله مع المجاهدين، واحذر أن تحارب به المؤمنين، ولا تقتل به المسلمين، فأعاقبك العقوبة الموجعة.

فأخذ ذلك الرجل السيف ومضى به حتى صار به إلى مكة، واستأمن إلى أبي جهل بن هشام لعنة الله عليه وخرج معه، حتى سار يوم بدر في حرب رسول الله صلى الله عليه، فلقي النبي صلى الله عليه ومن معه من المؤمنين، فوضع ذلك السيف في رؤوسهم وأبدانهم ضرباً لا يألو قتلاً ولا قتالاً !!

فقال له المؤمنون: ويحك يا فلان لا تفعل، أهكذا أمرك رسول الله صلى الله عليه

---

(١) في (أ): فأدّبروا.

حين أعطاك السيف، واشترط عليك أن لا تقاتل به المؤمنين؟!

فأبى أن يكفّ عنهم.

فنقول لك: هل للمؤمنين أو لأحد من جميع المخلوقين أن يقول: إن السيف إنما كان بدؤه من النبي صلى الله عليه، ولولاه ما قدر الرجل على قتل المسلمين، والنبي هو الذي كان منه إعطاء السيف للرجل، وبذلك السيف كان قتل المؤمنين.

واحتج الرجل أيضا فقال: لولا أن النبي صلى الله عليه أعطاني السيف ما قتلت أصحابه؟

فنقول لك: هل يلزم النبي صلى الله عليه عند الله جل ثناؤه وعند المسلمين، وفي أحكام الدين، ما قال ذلك الكافر ومن قال بقوله؟!

فإن قلتَ: نعم، يلزمه ما قال الكافر، لزمك أن رسول الله صلى الله عليه شريك لذلك الكافر في جرمه وإثمه وذنبه وسفك دماء المؤمنين، لَما أعطاه السيف ليقاتل به في سبيل الله فلم يفعل، وقاتل به في سبيل الشيطان.

وهذا من أعظم الكفر والفرية على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، وهذا الخروج من أحكام الاسلام والعقول.

وكذلك لو أن رجلاً اليوم استعدى على رجل فقال للحاكم: إن هذا الرجل أعطى فلاناً سيفاً، وأمره أن يقاتل به مع إمام هدى، فلقي ابناً من المسلمين فقتله، أليس في أحكام الاسلام أنه لا تَبَاعةَ على ذلك الرجل المعطي السيف؟!

وإنما الذنب والجرم على القاتل وحده !! لا يجوز في الاسلام غير ذلك.

فكيف يلزم الله عز وجل ظلم مَن ظلم وكفر، واستعان بنعم الله على معاصي الله عز وجل؟!

لقد هلكت وأهلكت. رجع الكلام إلى حجتنا عليك.

وإن قلت: إن ذلك القول لا يلزم النبي صلى الله عليه، بطلت دعواك، وفسد اعتقادك، وبانت فضيحتك وكذبك على الله عز وجل، وجعلُك ذنوب العباد عليه، وأن بمنّه عصبوا وكفروا، ولا بد لك من أحد هذين القولين: أن تقول به، وأنت مفلوج الحجة.

ثم نقول لك أيضاً: ما تقول في رجل من المسلمين الأخيار دفع إلى رجل ألف دينار، وقال له: خذ هذه الدنانير فتصدق لي بها على الضعفاء والمساكين، وأبناء المهاجرين والأنصار، الصالحين والمؤمنين، واستقِ بها الماء في سبيل الله، وافعل بها كل بر أرضاه ولا أسخطه، ولا يُلزمك لي عقوبة.

فأخذها ذلك الرجل وقصد بها إلى بيوت الخمارين والنساء الفواجر، والفواحش والعرافات، فأنفقها في ذلك كله حتى نفدت.

هل كان على ذلك الرجل المؤمن المعطي لها لتنفق في سبيل الله تباعة أو حريجة[1]، أو لوم أو عذاب، أو مشاركة في جرم، أو عيب بحرف واحد؟!

فإن قلت: نعم، إن عليه العيب واللوم والتباعة، لمَّا أعطاه ألف دينار لينفقها في سبيل الله، فأنفقها هو في سبيل الشيطان، أَكْذَبَكَ جميع من صلى القبلة، وأكذبتك أحكام القرآن، وأحكام القضاة والفقهاء.

وقوله عز وجل: ﴿لَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى (٤١)﴾ [النجم]، وقوله عز وجل: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

وإن قلت: إنه لا تباعة ولا لوم ولا عيب على الرجل المعطي الآخر ألفاً لينفقها

---

(١) في (أ): حرجة.

في سبيل الله، فلم يفعل وأنفقها في سبيل الشيطان، لأن هذا هو الحق والعدل.

قلنا لك[١]: فقد لزمك الرجوع عن قولك، وبطلت دعواك، وبرّأتَ الرجل صاحب الألف الدينار من أمر لم تبرئ منه[٢] ربك، وأضفت إليه ما برأت من عيبه وقُبح ذكره الرجلَ !!

وحسبك برجل هذا مبلغ علمه وعقله، واعتقاده في توحيد بارئه الذي خلقه ولم يكن شيئا، وادّعى - زعم - أنه موحّد وهو عين الملحد.

والله ما قال بالجبر قط مَن عرف الله بالوحدانية !! قال الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١].

كيف يوحد اللهَ من شبّهه بالجائرين؟! وكيف يوحِّد الله عز وجل من شبهه بالشيطان الرجيم؟!

وكيف يوحد الله عز وجل من زعم أنه يقضي قضاء المفسدين السفهاء الجاهلين؟!

وقال القائل يصف العدل بما لا يخرج في العقول والحكمة غيره، وقد قال رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله وسلم: ((إن من الشعر لحكمة))[٣].

---

(١) سقط من (أ): قلنا لك.

(٢) في (ب): فيه.

(٣) عن أبي بن كعب: إن من الشعر لحكمة. سنن ابن ماجه - (٢ / ١٢٣٥)، السنن الصغرى للبيهقي - (٩ / ٢٠٦)،الفردوس للديلمي (٣٩٥/٤ ، رقم ٧١٤٤)، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأبي بكر بن الخلال - (١ / ٢٨٤) .

وعن بريدة ، وعبد الله بلفظ: إن من البيان سحرا وإن من العلم جهلا وإن من الشعر حكما وإن من القول عيالا.أخرجه أبو داود (٣٠٣/٤ رقم ٥٠١٢)، وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة (ص ٩٤)، وابن عساكر (٨٣/٢٤). وعن ابن عباس، وأبي هريرة، وأبي بكرة: إن من البيان لسحرًا وإن من الشعر حكمًا . حديث

قال:

المجـــبرون يُجـــادلون بباطـــلٍ   وبغـير مـا يجـدون في الفرقـان

الواصـــفون إلهَهـــم بتعنُّـــتٍ   لعبـاده كَـذَبوا عـلى المنـان

كـــلٌّ مقالتُـــهُ الإلـــهُ يُضـــلُّني   ويُريـد لي مـا كـان عنـه نهـاني

إن كـان ذا فتعـوَّذوا مـن ربكـم   ودَعـوا تعـوُّذكم مـن الشـيطان

إن كـان ذاك كـذا إرادةُ ربنـا   فلِمَـن أعـدَّ جَـوَاحم النـيران

إن كـان ذلـك فالمعـاصي طاعـةٌ   والـبر مثـلُ عبـادة الأوثـان

إن المهـيمن لا يُضـلُّ عبـاده   حتـى يَضـلُّوا يـا ذوي الطغيـان

إلزامُـهُ لهـمُ الضـلالَ بفعلهـم   إضـلالُه لهـمُ بكـلِّ أوان

بعـد اختيـارهمُ الضـلال عـلى الهـدى   لا قَبـلَ بينـةٍ لنـا ببيـان

قـالوا الـذُّنوبُ مشـيئةٌ مـن ربنـا   قُلـتُ المشـيئةُ والـرضي سـيَّان

قـالوا الـرضى غـيرُ المشـيئة فاعتـدوا   والله يجـزيهم عـلى العـدوان

إن المشـيئةَ والإرادة والـرضى   معنـى ومـا هـيَ فـاعلمُوا بمعـاني

والاَسـتطاعةُ فـيكمُ مخلوقـةٌ   خُلقـت مـع الأروح والأبـدان

لـولا اسـتطاعتكم لطاعـةِ ربكـم   مـا قـالَ ربكـمُ اطلبـوا رضـواني

اللهُ ملَّكَنـا ليُوجـب حُجـة   تُخزيـكَ كـلَّ يـدٍ وكـل لسـان

جعـلَ اسـتطاعتنا علينـا حُجـة   والاسـتطاعةُ حُجـة الـرحمن

ولـذاك لـيس عـلى المصـاب بعقلـه   في الدين مـن حـرج ولا الولـدان

ابن عباس : أخرجه الطيالسي (ص ٣٤٨ ، رقم ٢٦٧٠) ، وأحمد (١/٣٠٣ ، رقم ٢٧٦١) ، وأبو داود(٤/٣٠٣ ، رقم ٥٠٢١) ، والطبراني (١١/٢٨٧ ، رقم ١١٧٥٨) . وأخرجه أيضًا : أبو يعلى (٤/٢٢٠ ، رقم ٢٣٣٢) ، وابن حبان (١٣/٩٦ ، رقم ٥٧٨٠) . حديث أبي هريرة : أخرجه الخطيب (١٠/٣٤٨) .حديث أبي بكرة : أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/٣٤١ ، رقم ٧٦٧١) .

والنـــاسُ تحـــدُثُ مـــنهمُ أفعـــالهم ... والاســـتطاعةُ حيلـــةُ الانســـان
زعمـــوا بـــأن الله كلَّـــفَ عبـــدهُ ... أشـــياء لـــيس لـــه بهـــنَّ يَـــدَان
إن المُكلِّـــــفَ عنـــــدنا لعبيـــــده ... مـــا لا يُطـــاقُ لجـــائرُ الســـلطان
أيُريـــدُ معصـــيةً ويفـــرض طاعـــةً ... إن كـــان ذاك فـــأمرُه أمـــران
أأراد أن يعصى- وعـذَّب مـن عصـى ... تلـــك المقالـــةُ أعظـــم البهتـــان
أأراد سـيرة مـن أطـاع ومـن عصـى ... فهـــما إذاً في الأمـــرِ مســـتويان
إن كـــان ربُكـــمُ أرادَ ضـــلالكم ... فـــالُمجبرون إذاً ذووا إحســـان
أيقـــولُ ربكـــمُ لقـــومِ آمنـــوا ... ويـــرُدُّ ألســـنَهم عـــن الايـــمان
مـــا كـــان ربكـــمُ ليصـــرف عبـــده ... مـــن وجـــه طاعتـــه إلى العصـــيان
لـــيس الحكـــيمُ بمـــن يقـــولُ لعبـــده ... والعبـــدُ يفعـــلُ مـــا يشـــاءُ عصـــاني
والله لم يُـــــردِ الفـــــواحش إنـــــما ... بالعـــدلِ يأمُرُنـــا وبالإحســـان[١]

وأما آخر كلامك في هذه المسألة، فقد خلطت فيه وجئت بكلام محال، وزعمت أن الله جل ثناؤه جعل الأسماع والأبصار غير رحمة من الله، وأنها – زعمتَ – خُلقت ضرراً عليهم ليبتلي عليها، وجعلها قوة فيهم، ثم ابتلاهم بها جعل فيهم من القوة، فمن أطاع الله فبمنّ الله عليه، بالقوة[٢] والمنّ – زعمت – رحمة من الله، ومَن عصى الله بالقوة التي فيه، كانت المنة التي عصاه بها شراً عليه وفتنة، ولم تقُلْ هذه رحمة، لأن الرحمة والمنّة ما نفع الناس، وهذا قولك – زعمت – قد[٣] دخلنا فيه.

وهذا الكلام الذي قلته مخلّط لم تحسن شرحَهُ، وقد عرفنا ما قلت، زعمت أنك

(١) لم أقف على قائلها.

(٢) في (أ): القوة.

(٣) سقط من (أ): قد.

تقول: إن الأسماع والأبصار والألسنة والأيدي والأرجل إنما جعلها الله قوة في بني آدم، هكذا قلت في كتابك، وليس هي عندك رحمة ولا منة، لأن الرحمة والمنة – زعمت – ما نفع الناس، وهذا ما تقولون به – زعمت – قد دخلنا فيه.

وحاش لله ما ندخل في هذا، لأنه لو قال هذا صبي مُخَرَّج من بلاد الحبش، لعظم التعجب منه لجهله، فكيف رجل يزعم أنه متكلم يناظر الرجال، ويقاوم – زعم – أهل العدل والتوحيد؟! هيهات غرق الجاهل في الطين !!.

ألا ترى أيها الجاهل أنك زعمت أن الأسماع والأبصار التي وهب الله لعباده وجميع الجوارح، لا يجب – على قولك – أن تسمَّى: رحمة ولا منّة من الله على خلقه، وإنما يجب – زعمت – أن تسمى: قوة ابتلاهم بها، لا رحمة ولا منة، لأن الرحمة – زعمت – والمنة ما نفع الناس.

فأوجبت أيها الجاهل أن الأسماع والأبصار، والأيدي والأرجل، والألسنة وجميع الجوارح، غير نافعة لأهلها، وأنها ضرر عليهم. كيف والله جل ثناؤه يقول، ويمتن عليهم بأعظم المنة: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨، السجدة: ٩، الملك: ٢٣]. فهل سمعت في لغة العرب أحداً يلوم أحداً على التقصير في الشكر على غير منة؟!

وهل يكون الشكر إلا لمن أعظم المنة؟!

مع ما لا نحصيه في غير موضع من القرآن يذكر الله عز وجل فيه مننه على خلقه بآلة الأسماع والأبصار، وجميع الجوارح التي لا يؤدّون فيها شكره أبداً. وأنت فقد خرجت من المعقول مع خروجك من حكم الكتاب، فلا يبعد الله إلا من ظلم.

وزعمت أن الأبصار والأسماع ليست رحمة ولا منة من الله على خلقه، فأوجبت – على زعمك – أنه لا يجب أن يُشكر الله على ما رزق من الحواس والجوارح، لأنه

لا منة له في ذلك، ولزمك أن الله - عز وجل عما قلت - خلق في صورة بني آدم بنيةً لا شكر له عليها، ولا حمد له فيها، وأنها غير منة ولا رحمة، وأنه ذكر لهم في كتابه نعمة أنعم بها عليهم غير صادق فيها، وأنها ليست بمنة ولا رحمة - زعمت - وهي قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨، السجدة: ٩، الملك: ٢٣]. فعاب عليهم قلة الشكر، وذلك يوجب أن الذي فعل بهم منّة من أعظم المنن.

وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١)﴾ [البلد]. أفلا تسمع إلى قوله: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾، يريد: فما الذي منعه من اقتحام العقبة بعد المنة والنعمة، والعيينين واللسان والشفتين والهداية إلى النجدين؟!

والنجدان فهما: الطريقان إلى الخير والشر، فالهداية هي التعريف بالطريقين، والدعاء إلى الخير، والنهي عن الشر.

فأي نعمة أو رحمة أو منة أعظم أو أجسم أو أجل أو أكبر في هذه الدنيا من السمع والبصر واليدين والرجلين، وجميع الجوارح التي امتن الله عز وجل بها على خلقه، وأوجب عليهم شكره فيها؟!

ثم زعمت أنت أنها ليست برحمة ولا منة، وكفى بهذا جهلاً وعمى !! وزعمت أنها قوة وليس هي رحمة ولا منة !!

فنقول لك: أخبرنا عمن وهب الله له القوة، هل لله عز وجل عليه شكر وحمد فيما تفضّل عليه به من تلك القوة وجعل فيه؟!

فإن قلت: لا، كفرت وأكذبك القرآن وجميع الأمة.

وإن قلت: نعم، يجب أن يحمد ويشكر عليها.

قلنا لك: فأخبرنا عن تلك القوة، هل هي رحمة من الله عز وجل ومنة على خلقه، أم سخطة ونقمة؟!

فإن قلت: هي سخطة ونقمة.

قلنا لك: كيف تكون هبة الله عز وجل للقوة سخطة ونقمة، وقد أقررتَ أنه يجب أن يشكر ويحمد عليها؟!

هل تسمَّى القوة التي جعل الله في خلقه عز وجل: قوة، ولا يجوز أن تسمى: رحمة؟!

وكل بنية ابن آدم يجب عليه فيها الشكر للذي ابتدعه وفطره، وأخرجه من العدم إلى الوجود. وكل شيء من جسده فهو قوة جائز أن يسمى: رحمة ومنة، وقوة ونعمة وإحسانا، لا يجوز غير ذلك.

وقد أمر بصون تلك الجوارح كلها عن معاصي الله عز وجل، فافترض على العين الغضَّ عن المحارم، فقال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

وافترض على اللسان أن لا يقول إلا الحق ن فقال سبحانه: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ﴾ [النساء: ١٧١].

وافترض على اليدين الجهاد في سبيل الله، فقال: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وافترض على الرجلين الجهاد أيضا، والحج والصلاة، فقال: ﴿وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾ [البقرة].

وافترض على الرجلين المشي إلى جميع الطاعات من المساجد والجُمَع، فقال سبحانه: ﴿إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وافترض على الفرج الحصانة والصيانة، فقال: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً (٣٢)﴾ [الإسراء].

ثم خيرهم تخييراً، ووعدهم الجنة، وأوعدهم النار، وليس لأجل خلقه للجوارح وقع بهم العذاب، لأنه قال: ﴿غُضُّوا﴾، ولم يقل: لِمَ خلقتُ أعيانكهم[1]؟!

وقال: قولوا الحق، ولم يقل: لِمَ خلقت ألسنتكم؟!

وقال: جاهدوا، ولم يسألهم عن أيديهم لِمَ خلقها؟!

وقال: ﴿اسْعَوْا﴾ بأرجلكم في طاعتي، ولم يقل: لِمَ خلقت لكم أرجلاً؟!

وقال: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى﴾، ولم يقل لهم: لِمَ خلقت فروجكم؟!

وإنما سألهم عن فعلهم هم، لا عن فعله هو، وذلك قوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣)﴾ [الأنبياء].

وفي أقلّ مما ذكرنا كفاية وشفاء، لمن أراد الحق ولم يُصغِ إلى الباطل، ولم يُلزم الله عز وجل ظلم الظالمين، ولا كفر الكافرين. فانظر أيُّ القولين هو القول العظيم الذي ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩)﴾ [الذاريات]؟! عزّ عن ذلك رب العالمين !!



(١) في (أ): أعيانهم.

[شبهة في الرزق]

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادي: ثم سلهم هل عاش أحد بغير رزق الله عز وجل؟!

فإن قالوا: نعم، فقد أعطوك أن العباد يكسبون بغير رزق الله، وأن مع الله عز وجل رازقاً ! وهذا ما لا تقبل[1] عقول أهل الألباب من الناس، وكفاك أن توقف رجلاً أن مع الله رازقاً !!.

وإن قطعوا بهذا وقالوا: ليس مع الله رازق، ولا يعيش أحد إلا برزق الله، فسلهم عند ذلك عمن لم يُغْذَ إلا بالحرام، ولم ينشأ إلا فيه، أليس إنما عاش برزق الله؟!

فإن قالوا: نعم، عاش برزق الله.

فقل: أفليس قد يرزق الله الحرام ثم يعذب العباد على ذلك الرزق الحرام؟

فإن قالوا: نعم، فقد أعطوك بأن الله يرزق الحرام والحلال.

فإن سألوك عن شيء من هذا، أو ردّوا عليك المسألة فسألوك: أليس قد يرزق الله الحرام؟

فقل: إنما موضع الرزق عندنا العيش، فكل ما هو عيش فهو رزق وهو بُلغة، فما كان يعاش به فهو عيش ورزق وبلغة، فمنه ما جعله الله جل ثناؤه حلالاً ليّ حراماً عليك، وذلك مثل مال وأهل هو حرام عليك، ومنه ما هو حلال ليّ ولك، وذلك مكسبة الحلال، نكسب الرزق والعيش من حلّه أنا وأنت، فهو لنا حلال، ومنه ما هو حرام عليّ وعليك، وذلك مثل الميتة والدم ولحم الخنزير، إلا أن نضطّر إليها.

---

(١) في (ب): يقبل.

فالأرزاق كلها على هذا الوجه، كلها رزق الله، وكلها بلغة وعيش يعاش به، فمن أصابه وأخذه على وجهه فهو مأجور، ومن أخذه من غير وجهه فهو مأزور، فالرزق عندنا على هذا الذي ذكرنا، فإنهم لن يستطيعوا حينئذٍ أن يدخلوا عليك شيئا.

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: لا إله إلا الله أيها المفتري على الله، ما أجهلك وما أجهل قوماً قبلوا عنك هذا العمى، والخروج من محكم القرآن، والخروج من المعقول !!

ثم قلت لهم في آخر قولك: فإنهم لن يستطيعوا أن يدخلوا عليك شيئا، تعني: أهل العدل، فغششتهم وأهلكتهم في أديانهم، وزعمت أن من الرزق حراماً وحلالاً، وأن الله - عز وجل عما قلتَ - هو الذي رزقهم ذلك كله.

ثم قلت: فمَن أخذه من وجهه فهو مأجور، ومن أخذه من غير وجهه فهو مأزور، وأنا أظن أنك لما قدمت من بغداذ وطال عليك السفر، أصابتك خفّة في دماغك، فأنت تستعمل الهذيان في كتابك هذا، وفي عقلك وفي دينك، فلا أدري العجب منك، أم من الذين كانوا حولك؟! فاسمع ما يرد عليك من حجة الحق والعدل بحول الله وقوته.

فأول ما نسألك عنه أنا نقول لك: أخبرنا هل قرأت القرآن قط؟

فإن قلت: لا.

قلنا لك: لذلك لم تعقل عن الله عز وجل عدله في كتابه.

وإن قلت: بلى، قد قرأت القرآن.

قلنا لك: فأين ما قد قرأت من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ (٥٩)﴾ [يونس].

فإن قلت: فإنك قد قرأتها في المصحف، ورأيتها بعينك فيه.

قلنا لك: فلِمَ أنزلها الله إلينا، أأراد أن يُسمرنا بها، أم ذكرها لغير علة، أم نظرٍ فينا بأنه ليس لها معنى علة من أجله نزلت؟!

فإن قلت: إنه أراد أن يسمّرنا ويخبر بأن ليس لها معنى، كفرت وخرجت من الاسلام.

وإن قلت: إن الله أنزلها موعظة وتذكرة وتحذيراً من النار، وتأديباً وإيجاباً عليهم أنهم هم الذين جعلوا من الأرزاق حراماً وحلالاً بظلمهم واختيارهم، فذلك هو الحق وهو قولنا.

ثم نقول لك: أخبرنا أليس في نص هذه الآية من الشفاء والكفاية عن التطويل، ما يوجب عليك أن العباد هم الذين جعلوا ما أنزل الله لهم من الرزق حراماً وحلالاً؟! وأن الله عز وجل لم يجعل ذلك الذي جعلوا ! بل جعل هو عز وجل الأرزاق فيما أخرج من المعادن والبحار، وما أنبتت الأرض، ومن غُنم الفيء، فجعله حلالاً بقسمته التي قسمها للمؤمنين، وحكمه الذي حكم به للمطيعين، فمن كان في يده شيء من هذه الأشياء التي ذكرنا، فهو رزق من الله عز وجل، وقسمة لا فساد في حلالها، ولا إثم في كسبها، فمن وجدنا معه شيئا من هذه الوجوه، إما من معدنه أخذه من حلّه، أو من أرض ورثها أو أحياها من حلها، أو من بحر سافر فيه، أو من غنم في حرب في سبيل الله مع المحقّين، أو ميراث ورثه من ذوي أرحامه، أو دية وجبت له، أو جراح لزم له عقلها.

قلنا له: هذا هو المال الحلال الطيب، بارك الله لك فيه، فأخرج زكاته إلى من أوجب الله طاعته، فأنت صاحب المال الحلال المقسوم من الله عز وجل، وهو الرزق من الله الذي لا شبهة فيه.

ومن وجدنا معه شيئا مما رزق الله عباده فسماه: رزقاً، وأخرجه لهم من الأرضين، وأنزله من سماواته إلى أرضه، وما أخرج من المعادن والبحار.

قلنا له: من أين لك هذا المال، وكيف وقع في يدك، وعلى أي حال كسبته؟

فإن قال: إنه لقي قوماً مسلمين في طريق فقطع عليهم وأخذ أموالهم، وغنم رحالهم، ونقب دار قوم، فأخذ ما فيها من حرزهم، أو غصب أحداً من عباد الله، أو غنّى في مجالس الخمور فأعطوه جائزة، أو لعب فأخذ أجرة لعبه، أو قامر فأخذ قماره، أو خاطر على ما قال فأخذ خطره، أو ربى في ديونه فجمع ذلك الربا، أو عمل الخمر وباعه، أو أكرى القدور من الخمارين وأخذ أجرتها، أو أخذ الأرزاق من السلاطين الجائرين والخوارج على الاسلام، أو بخس في الموازين والمكايل، أو غشّ في الصناعات، أو خان الأمانات، ثم قال: إن الله جل ثناؤه هو الذي رزقه ذلك المال وأعطاه إياه.

قلنا له: هلمَّ إلينا البيِّنة على دعواك. فإن لم يأت ببينة ولا برهان من كتاب الله عز وجل، ولا من سنة رسوله صلى الله عليه، وجب عليه أنه عند الله جل ثناؤه وعند المسلمين من المفترين للباطل، والمدّعين للزور والبهتان العظيم، وأن الله عز وجل لم يرزقه هذا الرزق الذي ادّعا، بل حرّمه عليه في كتابه غاية التحريم، ونهى عنه أشدّ النهي، وهلك في قوله، واستوجب العذاب الأليم، لأن الله عز وجل لم يرزقه الحرام، وقد نهى عنه وحذَّره منه، حيث قال في كتابه: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾ [البقرة]، فأي بيان أوضح من هذا البيان؟! وأي شاهد لنا عليك أعدل من كتاب الله عز وجل؟!

وإنما تعدّى هذا المعتدي فأخذ ما ليس له برزق، ولو كان الله عز وجل الذي

رزقه إياه لم يأمر[١] به في كرمه وعدله أن تقطع يده، وفي موضع آخر إذا قطع الطريق وأخذ الأموال أن تقطع يده ورجله.

أفهذه صفة الكريم العادل، الذي يرزق رزقاً ثم ينغص ذلك الرزق ولا يهنئه صاحبه، ثم يقطع يد الذي رزقه ذلك الرزق؟! ولا يكون كرمه إلا[٢] دون كرم المخلوقين، لأنه لا يجوز في العقول، ولا في همم العرب ذوي الأخطار، أن يجودوا ويكرموا على أحد ثم يأمروا بقطع يده ورجله، جزاءً بما وهبوا له وقسموا وأعطوا!!

فالله أحق بالجود الهنيّ، والعطاء السنيّ، الذي لا يتبعه تنغيص ولا تكدير، لأنه أكرم الأكرمين، وإنه عز وجل الذي يقول إيجاباً على نفسه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]. فهذه أكبر شاهد على أنه عز وجل لا يرزق رزقاً ثم يقطع يد من رزقه إياه، هو أكرم من ذلك وأعدل !! وهذه شواهد القرآن قاهرة لحجتك، وشاهدة لنا عليك.

وأما قولك يا عبد الله بن يزيد البغداذي إن قولنا في الأرزاق ما لا تقبله عقول أهل الألباب. وقلت: وكفاك أن توقف رجلاً أن مع الله رازقاً غيره، فليس يقول ذلك أهل العدل والتوحيد، هم أجلّ خطراً وأعرف بعظمة الله عز وجل ووحدانيته، من أن يقولوا إن مع الله جل ثناؤه رازقاً غيره، غير أنك تشنع وتفتري الزور. وإنما قولنا: إن الله عز وجل لا يرزق الحرام، وإن أخذ الحرام تعدّى من أخذه، وقد نهى الله عز وجل عنه.

ألا ترى ويحك كيف قال: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾ [البقرة].

---

(١) في (أ): يأمره.

(٢) سقط من (أ): إلا.

فأوجب عز وجل أن ذلك الذي أدلوا به إلى الحكام وأكلوه من أموال الناس، أنه ليس من رزقه ولا من عطيته.

أولا ترى كيف قسم الله عز وجل الأرزاق في المواريث، وجعلها للأقرب فالأقرب من صِلَبة الرجل وحامّته، وأوليائه وقرابته في النسب؟! وفرض ذلك في الكتاب، ولم يجعله لغيره. فإذا غصبهم فيه غاصب، أو أخذه منهم آخذ، أو ظلمهم فيه ظالم، أليس قد تعلم أنه قد أخذ ما فرضه لله عز وجل لهم لا له وحرّمه عليه، وأنه رزق من الله جل ثناؤه لغير ذلك الغاصب الظالم؟!

فإن أنكرت هذا فقد خرجت من حد من يُكلَّم، وفارقت أهل الاسلام، وخرجت من المعقول، ومن حكم الكتاب وفرائضه، وفي هذه وحدها الكفاية !!

فإن أنت لم تردّ علنيا جواباً، ورأيت أنك قد أصبت في حجتك هذه في الرزق، وجب عليك أنك تُطالَب يوم القيامة بجرمين عظيمين، موجبين للنار جميعاً:

أحدهما: إجازتك للغاصب أخذه لأموال اليتامى والمساكين والمؤمنين، وزعمك أنه إنما غصب ذلك وهو له رزق من الله عز وجل – كما قلت.

والخطأ الآخر: ما تقلدت من الكذب العظيم على الله، ووضعته لإخوانك سنة فيهم يقتدون بها إلى يوم القيامة، من أن الله - عز وجل عما قلتم – هو الذي رزق الغاصب أموال المسلمين، وهو الذي يقول في كتابه: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)﴾ [التوبة].

ونقول لك: ما تقول فيمن غصَب هؤلاء الثمانية المسماة في الكتاب سُهماتهم المفروضة من الله، فأخذها لنفسه وولده، وشرب بها الخمر، وأكلها دونهم، ألستَ

تشهد أن الله سبحانه قد فرضها لهم، وتفضل عليهم بها، ورزقهم إياها، وأوجبها لهم دون غيرهم؟

فإن قلت: لا، كفرت بالقرآن وخرجت من الاسلام.

وإن قلت: نعم، هي لهم من الله عز وجل مفروضة دون غيرهم.

قلنا لك: فما تقول فيمن أخذها منهم، وأكلها دونهم ظلماً وعدواناً، أذلك له رزق من الله عز وجل؟!

فإن قلت: نعم، هو له رزق.

قلنا لك: فما فعل بالرزق الأول الذي فرضه الله عز وجل، وأقررت به – زعمت – لأهل السهام الثمانية، أندم عليه أم خبّرهم بأمر خدعهم فيه، ثم رزقه غيرهم بعدما أعلمهم أنه قد رزقهم إياه، وفرضه لهم في كتابه، وعلى لسان نبيه صلى الله عليه، فصار ما ذكر لهم محالاً من القول لا حقيقة له على زعمك، لأنه – زعمت – حوّله عنهم ورزقه غيرهم.

فإن دُمتَ على ذلك في صفة الله عز وجل، كفرت وخرجت من الاسلام.

وإن قلت: إن الغاصب أخذ ما ليس له برزق، رجعت عن قولك، وتركت أصلك، وقهرناك وبان كذبك على الله عز وجل في الأرزاق، وقولك علينا إنا نقول: إن مع الله عز وجل رازقاً غيره، تشنع بذلك على أهل العدل.

وإنما قولنا والذي إليه قصدنا: أن الله عز وجل قد قسم الأرزاق في كتابه لمن قسمها له، ثم ظلمهم فيها الظالمون، وأخذها من أيديهم الغاصبون، فأكلوها دونهم بلا حق، وهي رزق غيرهم، فأكلوا ما لم يرزقهم الله عز وجل.

وشاهدُ ذلك قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ (٥٩)﴾ [يونس].

أفلا ترى كيف نسب عز وجل إليهم أنهم هم الذين جعلوا منه الحرام والحلال على ما أرادوا، وأضاف ذلك إليهم، وأنه لم يأذن لهم به، ولم يرزقهم إياه، وأنهم قد افتروا عليه الكذب، فسبحان الله العدل الذي لا يجور، ولا يرزق الحرام، ولا يعين على الآثام، ولا الخروج من الاسلام !!

وزعمت أنت وإخوانك المجبرة أن هذه الأرزاق التي رزقها هؤلاء المسلمين في كتابه، أنه قد بدا له فيها عز وجل عن البداوات !! وندم عليها، فجعلها رزقاً لقطّاع الطريق، ونقّاب الدور والحوانيت، وشرّاب الخمور، ومن يبيع الخمر، وكذلك هي أرزاق للفواجر، لأنها كراء فروجهن، وتركت قوله: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]. فأي باطل أبطل مما ذكرنا؟!

وكذلك يلزمك أنه جعل هذه الأموال للجَورة العاصين من السلاطين.

ثم نقول لك: ألم تعلم ويصحّ عندك أن الله عز وجل استخلف في أرضه الأنبياء، وبعدهم أئمة الهدى عليهم السلام، ليحكموا بين الناس بالعدل والحق، وقال لداود صلى الله عليه – وكل ما قال لداود صلى الله عليه فهو لازم لجميع من ولي الحكم بين المسلمين في الأرض إلى يوم القيامة، وكذلك كان الحكم من لدن آدم صلى الله عليه – فقال لداود: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾ [ص].

فنقول لك: أليس قد افترض الله عز وجل على الأنبياء والأئمة الراشدين أن يحكموا بين الناس بالحق، وأن من وجدوا معه مالاً قد ظلم فيه أحداً من عباد الله، واستفاده من غير حلّه، ولم يقسمه الله عز وجل له في الكتاب، أن يأخذ الحكام ذلك المال منه، ويقهروه على رده بالسيف وغير السيف، حتى يرده إلى أهله الذين قسمه الله لهم.

فنقول لك يا عبد الله بن يزيد البغداذي ولإخوانك المجبرة: أخبرونا الآن هل يجوز في هذا الموضع للأنبياء والأئمة الراشدين والحكام بين المسلمين، أن يأخذوا من الناس ما رزقهم الله – على قولك – من الحرام، ويردّه إلى قوم آخرين قد رزقهم الله عز وجل إياه أيضاً في الكتاب، وحكم لهم به؟!

واعلم أن الأنبياء والأئمة عليهم السلام والقضاة من بعدهم، لو لم يعلموا أن ردّ تلك الأموال وأخذها ممن هي في يده، ودفعها إلى قوم آخرين أرضى لله، ورأوا أن ذلك رزق من الله عز وجل، وعطية أعطاها الخونة والظلمة والجورة، وقطاع الطريق والنبّاشين للقبور، وجميع المعتدين، لما استحلّوا في دين الله جل ثناؤه ردها، ولا قهرُ مَن هي في يده عليها، حتى يردها إلى قوم ليست لهم بأرزاق.

سبحان الله العظيم ما أجهلكم، وأبعدكم من الدين، وأعظم فريتكم على الله عز وجل، وعلى رسله وكتبه !!

ثم يأمر الله عز وجل – زعمتم وعلى قولكم – بعد ذلك أن تُقطع أيديهم مرة، وأيديهم وأرجلهم مرة أخرى، وأنهم مَن وَجَدُوا ذلك معه بلغوا به غاية النكال والهوان، ولاموه أشدّ اللوم، وعابوا عليه أشدّ العيب، وسموه: سارقاً وحارباً وقاطعاً، ومشلِّحاً[1] ولصًّا، وغير ذلك من الألقاب القبيحة التي أزالوا بها شهادته، وأسقطوا بها دينه.

ولو كان ما قلتم من الحرام رزقاً من الله عز وجل للسُّرَّاق وقطاع الطريق والعاصين، لهنأهم رزقهم ولم يكدّره، ولم ينغّصه بأعظلم خصلتين، وأحسر حسرتين.

---

(١) شُلح فلان: إذا خرج عليه قطاع الطريق فسلبون ثيابه وعرَّوه. وقال علي عليه السلام في وصف الشُّراة: ((خرجوا لصوصاً مشلِّحين)). لسان العرب، مادة: شلح.

أما واحدة فننزعه لذلك المال ممن قد أعطاه إياه وجعله له رزقا - زعمتم.

وأما الأخرى فقطع يده وأيضا رجله، إن كان ممن قطع الطريق وأخذ المال.

سبحان الله العظيم، أهذه صفة الواحد العدل الرحيم، الحسن الفعل، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؟! عزّ الله عما قلتم، وتعالى علوا كبيرا !!

ولولا خوف التطويل، لأغرقنا في الاحتجاج في هذا الموضع بأمر يطول شرحه، وفيما قلنا كفاية لمن عقل وأنصف، والحمد لله رب العالمين.

وأما قولك: إن الرزق عندك العيش، فقد جاءك من الحجج ما يأتي على جميع قولك، والله أعلى وأجلّ.



[شبهة في أطفال المسلمين والمشركين]

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادي: فإن سألوك عن أطفال المسلمين ما هم عندك؟

فقل: هم عندنا في الحكم بمنزلة آبائهم، لأن المسلمين كانوا يصلّون عليهم، ويرجون إلحاقاً بآبائهم.

فإن قالوا: أخبرونا عن أطفال المشركين؟

فقل: نقف عنهم ونسير فيهم سيرة رسول الله صلى الله عليه، نسبي أولاد المشركين، ونغنم أموالهم إذا لم يدخلوا في الاسلام، ونكفّ عن أطفالهم، فلا نتبرأ منهم ولا نتولاهم، فإنهم لم يبلغوا الحلم فيكفروا فنتبرأ منهم، ولم يعملوا بايمان فنتولاهم عليه. فذلك ما نقول في أطفالهم.

وأما أطفال المُحدِثين من أهل القبلة، الذي عملوا بما سخط الله، فإنا نقف عن أطفالهم، ولا نتبرأ منهم ولا نتولاهم، لأنهم لم يبلغوا الحلم[1] فيعملوا بطاعة ولا معصية، ولا شيء عليهم، ولا تغنم أموالهم ولا أموال آبائهم، وإنما يقاتل المحدث من أهل القبلة حتى يفيء إلى أمر الله، لا سبي عليه ولا غنيمة، لاقراره بالله وبرسله، وبجملة القرآن.

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادي في هذا الباب أيضاً: ثم سلهم أنت عن أطفال المشركين أيضا، فقل: ما منزلتهم عندكم؟

فإن قالوا كما قلت، دخلوا في قولك.

---

(١) في (أ): العمل.

وإن قالوا: إنهم أولياء لله مؤمنون عندنا.

فقل: هل أحلّ الله سبي المؤمنين والمؤمنات والأحرار؟

فإن قالوا: نعم، أعطوك ما تريد منهم، وما لا تريد أن توقفهم على ما هو أعظم منه!!

وإن قالوا: لم يحلّ الله سبيهم.

فقل: أخبروني عن أطفال المشركين الذين لم يبلغوا الحلم، أليسوا مؤمنين – زعمتم – فلِمَ تستحلّون سبيهم؟!

فإن قالوا: هو خير لهم نعلّمهم الاسلام.

فقل: إنا ندلكم على ما هو خير لهم من ذلك إذا أنتم سبيتموهم، فعلّموهم الاسلام والكتاب كما تعلّمون أبناءكم، وقولوا لهم: أنتم أحرار مثلنا، ولا تفرضوا عليهم الغلة وتقيدوهم، وتعلقوا في أعناقهم الزنارات[1]، وتنكحوا الجارية منهم بغير مهر ولا إذن ولي، وتزعمون أنها مما ملكت أيمانكم، وأنتم تعطون في أول كلامكم أنهم مؤمنون، فمن أين أحلّ الله هذا من المؤمنين؟!

الجواب قال أحمد بن يحيى رضي الله عنه: وسألت عن الأطفال وشأنهم جميعاً، أطفال المشركين وأطفال المسلمين، وطوّلت في ذلك وشرحت، فاسمع الجواب وأنصف عقلك.

فأول ما أخطأت فيه أن قولك – زعمت – في أولاد المسلمين أنهم عندك في منزلة آبائهم، فجهلت الحكم والعدل، ولم تميز بين ثواب العاملين، ومن لم يعمل، فجزت عن القضاء، وخالفت القول بالرشد، إذ جعلت حكم من لم يطع الله عز وجل ساعة واحدة، ولم يجاهد في سبيله، ولم تُصِبه البأساء والضراء، والحصر

---

(١) الزنار: ما يوضع على وسط النصارى والمجوس.

والأزل[1]، والخوف والبلاء، وجميع المكاره، مثل من نزل ذلك كله به، فسُفِك دمه وسَفك دماء المشركين، وناله معاندوه بأنكى العقوبات، فجعلتَه في المنزلة – زعمت – كمنزلة أبنائهم، فوجب عليك في قولك أن منزلة أطفال النبي صلى الله عليه وعليهم في منزلته ودرجته عند الله عز وجل. وكذلك جميع أطفال المسلمين لهم من المنزلة والثواب مثل ما لآبائهم.

ونسيت قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠)﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وهذا خطأ من قولك وقلة علم بحكم ربك، لأنك لا تعرف العدل ولا تميز معانيه، ولا قول الله عز وجل: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، وقال: ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١)﴾ [الإسراء].

ونحن نقول: إن أطفال المسلمين كلهم في الجنة برحمة ربهم، لا بعمل عملوه، ولا أجر استحقّوه، وذلك أنهم لما لم يكسبوا الذنوب، ولم يجرموا الجرائم، ولم يأتوا بالقبائح، ولم ينكروا الواحد، لم تجب عليهم حجة تلزمهم بها عقوبة، و[لما] كان من حكم الله سبحانه أنه لا يظلم ولا يعذب على غير ذنب، كان من جوده وكرمه وسعة ما عنده من الفضل والكرم، أن تفضَّل على الأطفال جميعاً من ولد آدم بدخول الجنة، رحمة منه وتفضلاً، إذ لا ذنب عليهم، فلم يجز في الحكمة والكرم إلا الامتنان بالرحمة، إذ لا ذنب تقع عليه عقوبة.

وأما قولك في أطفال المشركين: أنك تقف عنهم – زعمت – وتسير فيهم – زعمت – بسيرة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، فتسبي أولاهم – زعمت – وتغنم أموالهم، فقد أخطأت في الشرح، وهلكت في الاعتقاد، وغلطت في القول،

---

(١) الأزل: الشدة والضيق.

وخالفت الحق، إذ لستَ ممن جعل الله عز وجل إليه أحكام الاسلام، ولا اختصه بالإمامة، ولا اصطفاه بالولاية، ولا بوراثة مقام الرسول صلى الله عليه، ولست ممن يجب له الحلّ والعقد في الأحكام، ولا يجوز له سبي المشركين، ولا غنيمة أموالهم.

إنما ذلك للذين اصطفاهم الله جل ثناؤه، واختارهم على الأمة، وأورثهم حكم الكتاب والسنة، وافترض إمامتهم على الخليقة، حيث يقول عز وجل: ﴿أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. فلست من أولي الأمر، ولا لك حجة يجب بها لك سبي المشركين، ولا غنيمة أموالهم، دون من جعل الله إليه الأحكام، وقلّده أمور الاسلام.

فأما أنت يا مسكين، فإنما أنت رعية مرعيّ محكوم عليك، ولست براعٍ ولا حاكم، بل الحكم عليك لمن هو أولى منك. فاعرف[1] ما تقول، واعقل ما تأتي وتذر[2].

ثم هلكت أيضاً، لأنك بينما أنت تناظرنا كيف مصيرهم في الآخرة، وكيف حكمهم أفي الجنة هم أم في النار، إذ وصفت[3] تفنيناً في السبي وغنيمة الأموال، وأصل سؤالك إنما كان عن الجنة والنار؟ وكيف حكم الأطفال في المنزلتين؟ وتسأل ما حكمهم في الآخرة؟ وزعمت أنك تقف عن أطفال المشركين، ولا تنزلهم منزلاً من أحد الدارين. فنقول: نراك الآن قد ناقضت بين قولك، وخلطت في مسائلك، أوليس من قولك: إن الله عز وجل أراد من الخلق أن يكون بعضهم كفاراً، وبعضهم مؤمنين، ثم جئت الآن بقوم آخرين، وزعمت أن لهم حكماً آخر، فصيرت الخلق على ثلاث فرق، بعدما قلت إنهم فرقتان. وزعمت أنك تقف عن واحدة لم

---

(١) في (أ) و (ب): واعرف. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في (ب): يقول، واعقل ما يأتي ويذر.

(٣) في (ب): وضعت.

يخلق الله تعالى فعلها – على قَوَد قولك – ولم يقض عليها قضاءا، ولم يرد منها إرادة، ولم يحكم فيها بحكم، ولم ينزل فيها كتاباً يعمل به المسلمون، ولا سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤثر عنه.

ونحن نسألك فنقول لك: أخبرنا عن هذه الفرقة الثالثة التي لم يرد الله عز وجل منها إيمانا ولا كفرا – على قولك – ولم يُنزل فيها كتاباً ولا ذكراً، ولا سنة ولا أمراً – على قَوَد قولك – أهم من خلقه فنسيهم، أم من خلق غيره؟! فلم يجب أن يحكم في خلق غيره !!

فإن قلت: هم من خلقه فنسيهم، كفرت وخرجت من الاسلام، لأنه عز وجل لا ينسى ولا يغفل عن أحد.

وإن قلت: هم من خلق غيره، أشركت ووجب سفك دمك.

وإن قلت: بل هم من خلقه.

قلنا لك: فهل ذكرهم في أحكامه وكتبه، أم غفل عنهم؟

فإن قلت: غفل عنهم، كفرت وشهد عليك القرآن بالتكذيب لك ولأهلك مقالتك من المجبرة، حيث يقول عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١، فصلت: ٤٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ﴾ [غافر: ٦٧]، يعني: الأطفال. وقوله:﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾ [التكوير]. فهذا كله يدلُّ على أنه عز وجل غير غافل عن الأطفال ولا غيرهم، وأنه قد ذكرهم لنبيه صلى الله عليه، وجعل لهم حكماً في كتابه.

وإن قلت: إنه عز وجل لم يغفل عنهم، ولم يَدَعْ ذكرهم، ولا الحكم فيهم في حكمته وعدله وكتبه وسنة نبيه صلوات الله عليه، لزمك أنك قد كذبت على الله عز وجل، وخالفت حكمه، وعطلت كتابه، في وقوفك عن أطفال المشركين، ورجعت إلى قولنا بالعدل، وأن الله عز وجل لم يدع شيئا من الأشياء حتى ذكره في كتابه وسنة رسوله صلى الله، من أسباب الدين، وما تحتاج إليه الأمة في أداء فرضها الذي كلفها، إذ قال: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

والذي كذبت فيه وعطلت من الكتاب، وتركت حكم الله عز وجل في أمر الأطفال خاصة، قولك: إنك تقف عمن لم يقف الله عن ذكره، ولا عن بيان أمره، والحكم فيه، وإنه عز وجل أرسل رسوله محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وعلى آله وسلم يقاتل المشركين، فإذا ظفر بهم لم يقتل أولادهم، وذلك الدليل على أنه لو قتل أولاد المشركين، لجاز عذابهم في الآخرة.

فلما لم يقتلهم عليه السلام لم يجز عذابهم في الآخرة، لأن الله عز وجل لا يعذب في الدنيا ولا في الآخرة على غير جرم، وكذلك أولاد الزنا من أهل القبلة، بان لنا من رحمة الله عز وجل وعدله فيهم، أن المرأة الحامل تستوجب أن يقام عليها الحدّ إذا فجرت، فلا يقام عليها ذلك الحد الواجب حتى تضع ما في بطنها، ثم لا يقام عليها الحد حتى تفطمه، ودليل ذلك واضح على رحمة الله عز وجل له، وأنه إنما أخّر عنها الحد لحسن نظره للطفل لا لها.

وكذلك المشركة إذا كانت تحت أحكام الاسلام، فلزمها قتل أو حدّ من حدود الله عز وجل، التي يجب بها القتل، لم تقتل حتى تضع ما في بطنها، رحمةً من الله عز وجل، وعدلاً منه على من لم يذنب، ولم يعص الله جل ثناؤه طرفة عين، ثم إذا وضعت لم يُقَم عليها الحد أيضا حتى ترضع حولين كاملين وتفطم، فهذا فعل الله

عز وجل وعدله وحكمه في الأطفال كلهم، من ولد آدم كلهم في الدنيا.

ثم زعمت أنه يجوز عندك وفي دينك أن الله عز وجل لا تدري ما هو صانع بهم في الآخرة – بزعمك – حتى ألزمك ذلك الشكَ وصيّرك إلى الوقوف عنهم – زعمت – بجهلك لعدل الله جل ثناؤه.

وكيف تعرف عدله عز وجل وأنت مجتهد في إطفاء نوره، وعذر من عانده، وتكذيب كتابه في حكمته، وإلزامه ذنوب المشركين، والكفار وجميع العاصين؟!

سبحان الله العظيم، ما أشنع ما قلتم !!

وكيف تقف ويحك عن أطفال المشركين واليهود والنصارى، أو واحد من ولد آدم عليه السلام، والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت]، وقوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى (٤١)﴾ [النجم]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص: ٥٩]؟!

فتراه لم يرد أن يهلك البالغين حتى يُعذر إليهم، فكيف يهلك الأطفال البريئين[١] بغير جرم؟!

وقوله عز وجل: ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١، آل عمران: ١٦١]، وقوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ

---

(١) في (أ): الذين.

(٩)﴾ [التكوير]، والموؤدة هي: الأطفال، بإجماع الخلق، فالله يقول في دار الدنيا ويذمّ من قتل المؤوودة: ﴿بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾، ثم يعذبها – زعمتَ – بالنار يوم القيامة، عزّ عن ذلك العدل الذي لا يجور !!

ووقفت أنت عن هذا الحكم من شدة ورعك – زعمت – وأنت تفتري على الله عز وجل وتجوّره في كتابه وأحكامه كلها، ثم تتورّع عن ذلك، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ [الشعراء] !!

فكيف جاز عندك أن تضع كتاباً تقول فيه لمن خدعته من الجهال: إنك تقف عن أطفال المشركين؟!

فليت شعري لأي علة وقفت عند نفسك عنهم، أشككت أن الله عز وجل لا يدخل أطفال المشركين الجنة؟ فيلزمك فيما شككت فيه أن يدخلهم النار، إذ لا منزلة في الآخرة توجد ثالثة غير الجنة والنار، فيبين ظلمه وجوره عليهم، عزّ عن ذلك العدل الذي لا يجور !!

أو يكونون عندك لا في جنة ولا في نار، فيلزمك أن في الآخرة داراً ثالثة لم يخبرنا الله عز وجل بها فجعلتها أنت، لأن يجوز كذلك وتخالف الكتاب، حتى تقبل منك المجبرة وقوفك عن أطفال المشركين.

فإن قلت: بدار ثالثة، كفرت وخالفت جميع الفرق، وخرجت من قول أهل القبلة. واليهود النصارى لا يقولون بدار ثالثة في الآخرة. فاختر أيّ هذه المضايق الخانقة لك شئت، فلا بد لك من القول بواحدة منها، أو التوبة عن الجبر والرجوع إلى العدل الذي سميت ضده: عدلا، لجهلك بعدل الله عز وجل، فالتوبة خير لك من التمادي في الباطل والعمى.

فـ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾ [يوسف]. وهذه حجة باهرة لكم، لا يقدر

أهل الجبر لها على نقض، فاتق الله وإياك أن تكون من الذين ﴿قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)﴾ [الأحزاب]. فاسمع إلى تبرُّئهم منهم، ولعنهم إياهم بعد المودة في الدنيا، على الحمية والخطأ الذي أورثهم النار، ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)﴾ [المؤمنون].

وأما قولك: إنا نقول: إن أطفال المشركين مؤمنون، فليس ذلك قولنا لا نقول إنهم مؤمنون ولا كافرون، وإنما هم عباد الله سبحانه لم يأتهم رسول فكذبوه، ولم ينزل عليهم كتاب فجحدوه، ولم تلزمهم حجة فأعرضوا عنها، ولم يركبوا لله جل ثناؤه معصية، ولم يعملوا له طاعة، فأوجب الله عز وجل الجنة برحمته لهم، وتفضله عليهم، إذ هو أهل الفضل والاحسان، وإذ لا جرم لهم، ولا ذنب عليهم، ولا حجة لزمتهم، فهذا هو العدل وهو الحق، وهو الأولى بالواحد الكريم.

ورحمته عز وجل قد بانت وصحت لهم في الدنيا قبل أن تجيء الآخرة، إذ لم يقتلهم بما وجب على آبائهم وأمهاتهم من الحدود والأحكام، ولم يقتل أمهاتهم بعد لزوم الحدود لهن، لحسن نظره لهم ورحمته إياهم، حتى فطمنهم واستغنوا عنهن، فهذا أكبر دليل، وأصَحّ قيل، لو لم يكن لهم ذكر في القرآن غير هذا لكفى، والحمد لله رب العالمين.



[شبهة في مواريث أطفال اليهود والنصارى المشركين]

فأما ما سألت عنه من مواريث أطفال اليهود والنصارى وأولاد المشركين، فإنا نقول: إنهم غير مخرجين من مواريث أهل ملة آبائهم، لأن ذا أمر قد جرت فيه السنن من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، إذ قال: «أهل ملتين لا يتوارثون»[1]، فليس لأحد كلام بعد قول الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله عز وجل: ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وليس لأحد أن يخالف السنة والكتاب. وقال عز وجل: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وليس قولنا: إن أولاد المشركين ولا اليهود ولا النصارى مؤمنون ولا كفار[2]، ولا يجوز ذلك، إذ لا عمل لهم.

وكذلك أيضا نحن نقول: إن أولاد المؤمنين لا مؤمنون ولا كفار، وإنما الأطفال كلهم حكمهم حكم واحدٌ، هم عبيد الله عز وجل لا حجة عليهم، إنما يدخلهم الجنة جميعاً برحمته وبفضله، على ما قد بيّنا وشرحنا، والحمد لله رب العالمين.

وعلى أنه قد جاء في تفسير القرآن، حيث يقول: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١)﴾ [الواقعة]، فقال أهل التأويل: إن أصحاب اليمين هم الأطفال، ثم قال: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣)

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه ج٢/ ص٩١٤/ ح٢٧٣٦، وابن الجارود في المنتقى ج١/ ص٢٤٣/ ح٩٦٧، والدارقطني في سننه ج٤/ ص٧٣/ ح١٦، والبيهقي في سننه الكبرى ج٦/ ص٢٢٢/ ح١٢٠٢٩.

(٢) في (ب): مؤمنين ولا كفارا.

وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾ [الواقعة]. فذكروا أن المقربين هم المؤمنون، وأن أصحاب اليمين هم الأطفال، وأن المكذبين الضالين هم الكفار، والعاصون من أهل النار. وجملة الخبر أن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء]. وهذه الآية توجب الجنة لجميع الأطفال كلهم جميعاً، والحمد لله رب العالمين.

وأما قولنا نحن والذي نفسّره، فإن أصحاب اليمين هم الذين عملوا الأعمال التي ترضي الله عز وجل وتجنّبوا معاصيه، والدليل على أنهم أصحاب الأعمال خاصة، قول الله عز وجل في كتابه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩)﴾ [الانشقاق].

❁ ❁ ❁

[شبهة من ميّز بين الكفر والايمان]

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادي: ثم سلهم عن بدعتهم في قولهم: إن الله عز وجل لم يخلق الكفر والايمان، وإن العباد خلقوه، وليس من خلق الله الايمان والكفر ! فسلهم عمن جعل الايمان غير الكفر، والكفر غير الايمان؟

فإن قالوا: إن الله جعل ذلك.

فقل: أليس قد جعل الكفر غير الايمان، والايمان غير الكفر، وجَعلُ الله صنعُه؟

فإن قالوا: نعم، صنعُه خلقُه.

فقل: فأخبروني عما كان الله صانعه وجاعله، أليس الله هو خالقه؟

فإنهم لن يجدوا بدًّا من أن يقولوا: نعم، لأن صنع الله خلقه وجعله.

فإن أعطوك هذا دخلوا في قولك، وأعطوك أن الله جعل الكفر وصنَعه وخلقه، ولن يعطوك هذا.

وإن قالوا: إن العباد جعلوا الكفر غير الايمان، والايمان غير الكفر، ولم يجعل الله ذلك، لم يجعل الايمان غير الكفر، ولا الكفر غير الايمان.

فإذا لم يجعل هو ذلك، فكيف يثيب على الايمان وهو لم يجعله غير الكفر؟!

وكيف يعذّب على الكفر وهو لم يجعله غير الايمان؟!

إن الله لم يجعل - في زعمكم - التوحيد حسناً، ولا الشرك بالله قبيحاً، فكيف يقع الثواب على ما لم يحسّن الله ولم يقبّح؟! ولم يجعله كفرا ولا إيمانا، والله إنما ذكّرنا في كتابه أن الثواب على الايمان، والعقوبة على الكفر، فهو لم يجعل إيمانا ولا كفراً، فكيف يثيب على ما لم يجعله هو إيمانا ولا كفراً؟!

ولو شاء العباد لصنعوا الكفر إيمانا، والايمان كفراً، لأنهم إنما صنعوهما وجعلوهما، وحسَّنوهما وقبَّحوهما، والله لم يصنع ذلك ولم يجعله، ولم يقبّح الكفر، ولم يحسّن الايمان ! أفليس لو شاء العباد لجعلوا الكفر إيمانا، والايمان كفراً؟!

وهم الذين يقبّحون ويحسّنون، فلو حسّنوا الكفر وقبّحوا الايمان، لكان كما صنعوا، لأنه ليس لله فيه صنع. فإذا كانوا يجعلونه فما بالُهم لا يغيّرون إن شاؤوا ما قبحوا، فيعلونه حسناً ويحسّنون ما قبّحوا؟!

فإن أعطوك أنهم إن شاؤوا فعلوا ذلك، فقد أمكنوك من حاجتك، وأعطوك أن العباد لو شاؤوا لأثاب الله على الكفر الجنة، وعذب على الايمان، ولو شاء العباد جعلوا الكفر إيمانا، والايمان كفراً، ولم يجعلوا لله في ذلك صنعاً، وجعلوا الجنة لمن شاؤوا هم، والنار لمن شاؤوا، ولن يعطوك هذا. ولا بد لهم إن أحسنت أن تسألهم.

فانظر مواقع هذه المسائل، فإنك إن أحسنت مساءلتهم على هذا الوجه، وقادوا لك هذا الكلام، دخلوا في الزندقة.

وإن قالوا: إن الله إنما جعل اسم الكفر واسم الايمان، ولم يجعل الايمان ولم يجعل الكفر، فقل لهم عند ذلك: أخبروني عن اسم الايمان، أهو الايمان؟ وعن اسم الكفر، أهو الكفر؟

فإن قالوا: اسم الايمان هو الايمان، واسم الكفر هو الكفر، فقد أعطوك أن الله جعل الايمان والكفر، وصنعهما وخلقهما، لأن اسم الكفر هو الكفر، واسم الايمان هو الايمان، فإذا جعلُ الأسماء فالأسماء[1] هي الأشياء بعينها، فقد جعل أسماءها وأسماؤها هي هي. وليس اسم الكفر غير الكفر، وليس اسم الايمان غير الايمان. فقد لزمهم لنا أن الله قد جعل الكفر والايمان، وصنعهما وخلقهما.

(١) في (أ): والأسماء.

وإن قالوا: إن اسم الكفر غير الكفر، واسم الايمان غير الايمان، والكفر المعنى الذي وقع عليه الاسم، والاسم ليس بكفر ولا إيمان!

فارجع إلى صدر مسألتنا فقل لهم: أفليس العباد جعلوا الايمان غير الكفر، والكفر غير الايمان، وهم جعلوا الكفر قبيحاً، والايمان حسناً، والله لم يجعل ذلك؟! ثم ارفع إلى ما رفعتهم في صدر المسألة، فإنهم لن يجدوا مخرجاً، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٨٨، ١٤٣].

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: إنما هذه المسألة التي طوّلت فيها، إنما كررت فيها المعاني بألفاظ مختلفة ، وكلها تقتضي معنى واحداً، ونحن نقول: إن الله عز وجل ذكر الجعل في كتابه ووصفه عز وجل على وجهين اثنين، واضحٌ ذلك في القرآن غير خفي عن أحد، لأنه حجة الله عز وجل على خلقه التي لم تتدبرها المجبرة، ولم يركنوا فيها إلى العلماء، ولم يأخذوا الحق من معدنه، وقلّدوا عبد الله بن يزيد البغداذي وغيره أمر دينهم قبل البحث وإنعام النظر، ووطء الحجج والبراهين الشاهدة للحق، فهلكوا عند الله عز وجل.

واعلم أن أحد الوجهين اللذين ذكرتُ لك أن الجعل على وجهين:

أحدهما: جعلُ حكم وتسمية، أي: سماهم بفعلهم، وحكم عليهم بفعلهم، لا أنه خلق ذلك ولا قدّره، وهو قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]، أي: سميناهم بفعلهم، وحكمنا عليهم بفعلهم، مثل ما تقول العرب في لغاتها التي قد جعلها الله عز وجل حجة على قوم محمد صلى الله عليه وعلى آله، حين يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، فلو جاءهم بغير اللغة العربية ما عرفوه عنه، ولا لزمتهم طاعة، فتقول العرب: أضلني فلان، أي: سمّاني ضالاً.

قال الكميت بن زيد الأسدي رحمه الله:

فطائفــةٌ قــد أكفــروني بحُــبِّكُم وطائفــةٌ قــالوا مُســيءٌ ومُــذنبُ

يعني أنهم سموه: كافراً، ولم يجعلوا فيه الكفر جعلاً.

وكذلك أيضاً الجعل، مثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [القصص: ٤١]، فذلك جعلُ حكم وتسمية، ومثل ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥، الإسراء: ٤٦]، أي: سميناهم وحكمنا عليهم بفعلهم، ولو كان عز وجل هو الذي جعل الأكنة على قلوبهم، على ما يعقل من الحجب والأستار، ثم أرسل إليهم[1] بقرآن، افترض عليهم استماعه والعمل بما فيه، وقد حال بالأكنة بينهم وبين استماعه، لزالت الحجة، ولسقط عنهم الفرض.

والشاهدُ على ذلك، قوله: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨]، غير مجبور ولا مخلوق فعله، وكفى بهذه الآية شاهداً لنا أن من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، غير مجبور ولا مخلوق فعله.

والشاهدُ لنا على ما ذكرنا في الأكنة، إقراركم لنا يا معشر المجبرة أن الأصمّ الذي لا يقدر على السمع، قد زال عنه فرض استماع القرآن والعمل بما فيه، وأنه إن عقل الصلاة بتعليم الإيماء، جازت له وقُبلت، بلا قراءة الحمد وسورة معها، وقد جاءت السنة أن كل صلاة بغير قراءة الحمد فهي خداج، فهذه حجة قاطعة لا حيلة لكم فيها.

وأما الجعلُ الآخر: فهو قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

---

(١) في (ب): عليهم.

وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩، الملك: ٢٣]. وكلُ جعلٍ في القرآن على وجهين، لا يوجد فيه وجه غير ما قلنا.

فأحدهما: جعلُ حكم وتسمية.

والآخر: جعلُ حتم وجبر وقسر لا مخرج منه.

فأما قولك: من جعل الكفر غير الايمان، والايمان غير الكفر؟!

فإن كنت تريد بذلك: مَن خلق الايمان غير الكفر، والكفر غير الايمان؟! فالكفار هم الذين خلقوا الكفر، أي: فعلوه وعملوه وصنعوه.

والشاهدُ على ذلك أصدق شاهد وأعدلُه، قول الله عز وجل: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]. إلا أن تردّ على الله عز وجل وتكذّب قوله، أو تقول ليس هذه الآية في القرآن، فما نعلم لك مخرجاً ولا محيصاً تلجأ إليه إلا الجحدان، وقد قال الله عز وجل في سورة براءة: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣]، فلا يقدر أحد من جميع الخلق كلهم أن يدعي أن الله عز وجل بريء من خلقهم ولا من رزقهم، ولا من حياتهم ولا من موتهم، ولا أنه بريء من المشركين في وجه من جميع الوجوه كلها، بالصحة والحجة القاطعة، إلا من فعلهم، وإذا برئ من فعلهم، صح أن ليس له في فعلهم فعلٌ بوجه من جميع الوجوه كلها، ولا سبب من جميع الأسباب كلها، وإلا فهاتوا حجة تدلنا على معنى آخر برئ الله منه غير أفعالهم كلها.

وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: «اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد بن الوليد»[1]. فإن كان فِعل خالد بن الوليد هو فعل الله عز وجل، أو لله فيه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ج ٤/ ص ١٥٧٧/ ح ٤٠٨٤، والنسائي في سننه ج٨/ ص٢٣٧/ ح٥٤٠٥، وابن حبان في صحيحه ج١١/ ص٥٤/ ح٤٧٤٩، وأحمد بن حنبل في مسنده ج٢/ ص١٥١/ ح٦٣٨٢، والنسائي في سننه الكبرى ج٣/ ص٤٧٤/ ح٥٩٦١.

فعل بمقياس شعرة، لزم النبي صلى الله عليه أنه قد برئ من فعل الله !! ومن برئ من فعل من أفعال الله ولو صغر ذلك الفعل، لزمته البراءة من الله، ومن برئ من الله فقد كفر، ومن كفر فقد صار إلى النار، فقولوا في رسول الله صلى الله عليه ما شئتم. فلعمري لقد افتريتم على الله عز وجل، فهو أجدر أن تفتروا عليه.

وزعمتَ يا عبد الله بن يزيد البغداذي وأصحابك المجبرة: أن الله خلق فعل المشركين، وخَلْقُه – زعمت – صُنْعُه، فكيف يخلق خلقاً ثم يتبرأ منه، أيجوز هذا في حكم عادل حكيم، لا، بل هل يجوز هذا على عابث جاهل؟!

معاذ الله !!

أما إذا صدق نفسه، وأنصف عقله، علم ذلك الجاهل أنه إذا فعل فعلاً، لم يصلح عند نفسه أن يتبرأ منه، وإذاً لم يجز في حكمة الحكيم الذي لا يظلم، أن يقول في كتابه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] !! وكان الصواب والعدل والحق أن يقول: ظهر الفساد[١] في البر والبحر بما صنعت وخلقت، وأردت وقدّرت من أفعالي بالناس، ولا يعنّفهم في أمر هو خلَقه وأراده، فإن في الناس من يميز عليه هذا الحكم.

وقد حكى مثل ذلك من عيبه لهم، حيث قال: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤)﴾ [طه]. فهذا دليل على العدل، وعلى أن الاستطاعة قبل الفعل.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢، الأنفال: ٥١]، وقوله: ﴿جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [السجدة][٢]. مع آيات كثيرة، في كل سورة تشهد

---

(١) سقط من (أ): الفساد.

(٢) في (أ) و (ب): ﴿ جزاء بما كنتم تعملون ﴾، ولا يوجد في القرآن بهذا اللفظ.

لعدل الله عز وجل، وتنفي عنه الجور والظلم، وخلق أفعال العباد، وإرادة السوء والظلم والفساد، اختصرنا فيها خوف التطويل.

ومن الجعل الآخر[١] أيضاً الذي هو جبر وحتم، قوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، فهذا جعلُ حتم وخلق – على قَوَد قولكم – لأنكم أيها الخوارج تدّعون القول بشيء من معرفة التوحيد، فمن حجتكم في التوحيد – زعمتم – أنكم تقولون: إن القرآن مجعول، وكل مجعول مخلوق. فهذا يلزمكم لنا أحببتم أو كرهتم، لأنه أصل قولكم في التوحيد.

فإن قلتم: وكذلك يلزمنا نحن أيضاً أن كل مجعول مخلوق من غير القرآن، من الجور والظلم، والفسق والكفر، الذي زعمت أن الله خلقه وصنعه، فإنا نقول لكم، رادّين عليكم، فإن قصيدة لبيد بن ربيعة الكلابي التي هي سمطه[٢] التي يقول فيها:

عَفَتِ الدِّيارُ محلُّها فمُقامُها ... بمنى تأبَّدَ غَولُها فرجَامُها[٣]

مجعولة جعلها لبيد بن ربيعة الكلابي وصنعها، والله عز وجل – زعمتم – الذي خلقها كما خلق القرآن، وصنعها كما صنع القرآن – على قَوَد قولكم – فلا بد لكم من أن تُقرّوا بذلك، أو ترجعوا عن دعواكم، لأخذنا بأكظامكم في هذا الموضع، فتقولوا: إن الله عز وجل لم يخلق قصيدة لبيد ولم يصنعها.

فإن قلتم: إن الله عز وجل خلق قصيدة لبيد، على دعواكم أن الله خالق كل شيء.

قلنا لكم: وكذلك خلق الله القرآن، فما الفرق بين الشعر والقرآن في الفطرة والصنعة؟ وما فضل أحدهما على الآخر؟ فلا تجدون فرقا تدفعوننا به، لأن الشعر –

---

(١) سقط من (أ): الآخر.

(٢) السمط من الشعر: أبيات يجمعها قافية واحدة مخالفة لقوافي الأبيات. القاموس، مادة: سمط.

(٣) البيت من معلقة لبيد العامي.

في زعمكم - الله خلقه والقرآن الله خلقه - زعمتم - فجائز لمن صلّى بقصيدة لبيد وغيرها من الأشعار، وجائز لمن صلى بالقرآن، لأنه كله - على زعمكم - خلق الله وصنعه، وصنعه خلقه، وخلقه صنعه، على ما قلت يا عبد الله بن يزيد البغداذي في أول مسألتك هذه خاصة.

فإن قلت: إن الله عز وجل افترض الصلاة بالقرآن، ولم يفترض الصلاة بالشعر.

قلنا لك: صدقت، ولكن هات لنا حجة تفرق بها بين خلقه للقرآن، وبين خلقه للشعر؟

فإن قلت: إن الفرق من قِبَلَ أن القرآن خلقه وحده لم يشركه فيه أحد، والشعر خلقه هو وغيره من الشعراء - على قَوَد قولكم - فِعل من فاعلَين، وإنه لله خلق وللعباد كسب.

قلنا لك: فقد لزمك أن لله عز وجل شريكاً في خلقه، ولا بد لك أن تقول: إن الله جل ثناؤه ولبيد بن ربيعة الكلابي صنعا القصيدة، وخلقاها خلقتها المعروفة.

عَفَتِ الدِّيارُ محلُّها فمُقامُها ... بمنى تأبَّدَ غَولُها فرجَامُها

فتقول: إنهما خلقاها جميعاً وصنعاها، فلله نصفها وللبيد نصفها - على قَوَد قولك - فيجب عليك أنك قد رجعت عن قولك: إن الله خلق أفعال العباد، وصرت بأنه يخلق نصف أفعال العباد، وانتقض قولك الأول الذي تطاولت به، وانتفخت علينا بسجعه.

وإن قلت: إنك لا تقول إن الله خلق نصف قصيدة لبيد، ولبيد خلق نصفها الآخر.

قلنا لك: فكيف تقول في القصيدة، من خلقها هي وسائر الأشعار، إذ قد رجعت وكرهت أن تقول: إن الله خلق نصفها، ولبيد بن ربيعة نصفها، فهل تقول:

إن الله خلقها وحده منفرداً بها، لا شريك له في خلق القصيدة؟! وخلقه صنعُه – زعمت.

فإن قلت: نعم، الله الذي تفرد بخلق القصيدة وصنعها وحده، لزمك صاغراً داخراً عاثراً أن الله عز وجل الذي صنع هذا القول، جلّ الله عن قولكم، وهو قول لبيد بن ربيعة:

بل ما تَذَّكرُ من نوارَ وقد نَأتْ وتَقطعت أسبابُها ورِمامُها[1]

فيلزمك – ويلك – أن الله عز وجل يصنع الغزل ويخلقه – على قَوَد قولك – واحتجاجك أن الله خلق كل شيء من جميع الأشياء من العباد، من كفر أو إيمان، أو طاعة أو عصيان[2]، أو شعر، أو غيره، وقولهم الخطأ والخنا، وأن خلْقه صنعه – زعمت – وأن ما خلقه فقد صنعه.

فاسمع ما يلزمك من الفضيحة الهائلة في هذه القصيدة، وما ألزمت الله عز وجل من خلقه لها، وإن ذلك يُلزمك الشرك، ويُخرجك من الاسلام، لمّا قلت: إن الله يصنع الأشياء كلها ويخلقها.

فاسمع ما يلزمك في ذكر النساء، ووصف أسبابهن، ونعت الخمر، وصفة الإبل والخيل، والقفار، والحل والارتحال، وتقطع الوصال، فيلزمك أن معبودك هو الذي خلق هذا الشعر كله، وكل شعر على وجه الأرض فيه الغناء والقبيح. من ذلك قول لبيد في البيت الثاني:

مُرّيةٌ حَلَّت بفيدَ وجاورت أهلَ الحجاز فأينَ منك مَرَامُها[3]

---

(١) معلقة لبيد.

(٢) في (أ): وعصيان.

(٣) معلقة لبيد.

فيلزمك أيها الجاهل بالله عز وجل أنه يشكو الحزن عليها، والغم بفراقها وبُعدِ نأيها، وأن مزارها لا يرومه ولا يقدر عليه لبعد دارها.

البيت الثالث:

فَاقطع لُبانةَ من تعرض وصلُها ولشرُّ واصلِ خُلةٍ صَرَّامُها

فيلزمك أن معبودك - عزّ الله وتعالى عما قلتم - يعزي نفسه عن طلب الوصال، ويشكو جفاء المواصل.

البيت الرابع قوله يصف الناقة:

بطَليح أسفارٍ تركنَ بقيةً منها فأحنقَ صُلبُها وسنامُها

فيلزمك أنه يصف الإبل والمسافَرَة عليها، وأنه قد أهزلها بطول الأسفار، التي لا تقطع المهامه إلا على تلك الحال.

البيت الخامس:

أفلم تكن تدري نوارُ بأنني وصَّالُ عقد حبائلٍ صرَّامها

فيلزمك أنه عز وجل يصف مواصلة النساء تارة، ويصف صرم حبائلهنّ تارة أخرى، ولا يفعل هذا إلا أهل الغزل والطرب والسفه.

البيت السادس:

تَرَّاكُ أمكنةٍ إذا لم أرضَهَا أو يرتَبط بعض النفوس حمامُها

فتلزمك البلية العظمى أنه يقول مثل هذا القول، الذي يقول فيه أو يرتبط بعض النفوس حمامها، والحِمام في لغة العرب هو: الموت لا شك فيه.

البيت السابع قوله:

بل أنتِ لا تدرينَ كم من ليلة طَلْقٍ لذيذٍ لهوُها ومُدَامُها

فيلزمك أنه - عز وجل عن ذلك - يصف السهر واللذة فيه، باللهو والمدام، والمدام هو الخمر عند العرب.

البيت الثامن من قوله:

قـد بـتُّ سـاهرها وغايـة تـاجرٍ وافيـتُ إذ رُفعـت وعـزَّ مُـدامُها

فيلزمك أنه يصف الخمر وموافاتها إذا غلت عند الخمَّار، وأنه يصف السهر بالليل مع الشراب، لأنك زعمت أن خلْقه صُنْعُه، فيلزمك أن ما ذكرنا من هذه العظائم صنع الله عز وجل.

البيت التاسع من قوله:

أُغـلِي السـباءَ بكـل أدكـن عـاتق أو جونَـةٍ قُـدِحَت وفُـضَّ خِتامُهـا

فيلزمك أنه يَصنع ويُغلي شراء الخمر، ويبذل الثمن في أزقاق الخمور، والأدكن عند العرب هو: الزق، والجونة هي: الجرة التي تقدح، ويفض خاتم يكون عليها كما تصف العرب.

البيت العاشر قوله:

باكرتُ حاجتهـا الـدَّجَاجَ بسُـحرة لأُعَـلَّ منهـا حـين هـبَّ نيامُهـا

فيلزمك أنه - عز وجل عما قلت - خلق هذا القول وصنعه، وخلقُه صُنعه عندك، وأنه يباكر قبل صياح الديك الخمر، ليعلّ منها، أي: يشربها في قول لبيد يصف نفسه حين استيقظ ندماؤه النيام. فزعمت أن الله تعالى صانع هذا القول، ولا نعلم شركاً في الأرض هو أعظم من هذا الذي وضعت علينا في الكتب، فانظر ماذا نزل بك.

البيت الحادي عشر قول لبيد أيضاً:

وغَـدَاة ريـحٍ قـد كشـفتُ وقـرةٍ قـد أصبحت بيـدِ الشـمال زمامُهـا

فيلزمك كل بلية وشناعة في صفة خالقك البريء من كذبك، والفرية عليه.

البيت الثاني عشر:

بصـبُوح صـافية وجـذب كرينـةٍ   بمُـوتَّرٍ تأْتـالـه إبهَامُهـا

فيلزمك أيها الهالك في دينه، الصادّ عن صراط ربه، أنه يصف الصبوح من الصافية وهي الخمر، ويصف الضاربة بالعود وهي الكرينة في لغة العرب التي ذكر لبيد، والموتر هو العود الذي اتخذه السفهاء لهواً وطاعة للشيطان.

البيت الثالث عشر من قول لبيد:

ولقـد حَميـتُ الحـيَّ تحمِـلُ شـكَّتي   فُرُطٌ وشاحِي إذ غَـدوتُ لجَامُهـا[1]

فيلزمك أنه - عز وجل من ذلك - يحمي الخيل وتحمل شكته الدواب وتحمله - تبارك وتعالى - وأن وشاحه لجامه، أراد بذلك لبيد بن ربيعة الكلابي، أن العرب إذا نزلوا عن خيولهم لحوائجهم ومخاطباتهم، ربطوها وخلعوا لجمها، فيتوشح الرجل منهم بلجام فرسه مع سيفه، يتقلده كما يتقلد بحمائل سيفه، وهذه صفة المخلوقين، عزّ الله وتعالى عما قالت المجبرة علوا كبيرا !!

وإنما احتججنا عليك بهذا القول عمداً، ليعلم من له أدنى عقل أنك يا عبد الله بن يزيد البغداذي، ومن دان بمثل قولك من أهل الجبر، القائلين إن الله خلق أفعال العباد كلها، قد بانت فضيحتكم، وسقطت دعواكم، وصح كفركم وباطلكم بما ذكرنا، وأوجبنا عليكم من الحجة القاطعة، فيما ألزمناكم من شعر لبيد.

ثم نقول لكم: أخبرونا متى خلق الله عز وجل قصيدة لبيد، قبل اكتساب لبيد لها، أم بعده؟

---

(١) معلقة لبيد.

فإن قلت: إن الله خلق القصيدة قبل اكتساب لبيد لها، وخلقُه صنعُه – زعمتم – لزمكم أن الله عز وجلِ قد صنع كل ما في قصيدة لبيد من العظائم، وكذلك كل شعر هو صنعُه وفعلُه.

وإن قلتم: إن الله عز وجل خلق قصيدة لبيد بعدما اكتسبها لبيد، لزمكم أن قول لبيد لها كان قبل صنع الله، وأن صنع الله إنما هو تابع لصنع لبيد، فاختاروا أي هذين القولين شئتم، فأيها ما قلتم به، ألزمكم الكفر والخروج من دين الاسلام.

ثم نقول لكم: لابد لكم أن تقولوا: إن الله عز وجل خلق هذه القصيدة وحده منفرداً بخلقها وصنعها، لا صانع لها غيره.

فإن قلتم ذلك وأجزتموه. قلنا لكم: فقد لزمكم في صفة ربكم ما وصف لبيد، وأن لبيداً لا فعل له فيها، وكفرتم.

وإن قلتم: إن الله عز وجل خلق بعضها، ولبيد بعضها، لزمكم أن معبودكم خلق نصف ما قال لبيد وصَنَعَه، ونصف ما قالت الشعراء أو صنعت، من وصف الخمر والمغنيات وجميع البلايا !!

وهذا ما لم يسبقكم إليه الزنادقة ولا المجوس، ولا أحد من الملحدين، ولم تظن يا عبد الله بن يزيد البغداذي ولا غيرك من المجبرة أنكم تجابون بمثل هذا الجواب الهاتك لأستاركم، والمبين لعواركم أبداً !! ولا بد لك من أن تقول ببعض هذا.

وإن قلتَ: لا أقول إن الله خلق أشعار العرب ولا صنعها، لزمك أنك قد رجعت عن قولك بالجبر، وصرت إلى قولنا بالعدل، وأن الله لم يصنع أشعار العرب، ولزمك أنك قد كنت كاذباً علينا في دعواك: أنَّا مفترون على الله عز وجل.

ثم نقول لك: أليس قد ذمّ الله عز وجل الشعراء، حيث يقول: ﴿وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا

يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ [الشعراء]. فهل يجوز أن الله عز وجل خلق وصنع من شعرهم ما عاب عليهم وهو خلقه وصنعه؟! وهل هذه صفة حكيم عادل، وهو يقول في كتابه: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة]؟! وكيف يؤدبنا على شيء ثم يفعله، عزّ عن ذلك وجل !!

ثم نقول لعبد الله بن يزيد البغدادي ولمن قال بقوله: أخبرونا عن القصيدة التي هجا بها عمرو بن العاص رسول الله صلوات الله عليه، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وآله خبره قال: «اللهم إنك تعلم أني لا أقول الشعر، فالعنه بكل بيتٍ لعنةً»[1]، فنقول لكم: أليس في قولكم أن الله عز وجل خلق تلك القصيدة؟

فإن قلتم: نعم، لزمكم أن الله جل ثناؤه هو الذي هجا رسوله صلى الله عليه، وهذا كفر من قائله.

وإن قلتم: لم يخلق قصيدة عمرو بن العاص، رجعتم عن قولكم، وبان كذبكم، وصح أن الحق معنا دونكم.

ثم نقول لكم: أخبرونا أليس مَن خلق شيئا وصنعه، لزمه أنه رب لذلك الشيء؟

فإذا قالوا: بلى.

قلنا لهم: أفجائز عندكم أن يقول القائل إذا دعا ربه: يا ربَّ الأشعار والقصائد اغفر لي ذنوبي ! أو هل يجوز أن يدعو فيقول: يا رب الزنا، ويا رب الخمر، ويا رب اللواط، ويا رب المعازف، ويا رب الفواحش، ويا رب القتل والظلم، والكذب والربا، والكفر والشرك، اغفر لي ذنوبي !

---

(١) شرح نهج البلاغة ٦/ ٢٩١.

فإن قلتم: نعم، ذلك جائز أن يُدعَا به.

قلنا لكم: فهل هذه الأسماء حسنة أم قبيحة؟!

فإن قلتم: أسماء حسنة، بان كذبكم وكفركم عند جميع الأمة، إذ سميتم القبيح في العقول: حسناً، وخرجتم من المعقول.

وإن قلتم: لا، بل هي قبيحة.

قلنا لكم: فلِمَ أجزتم أنه جائز أن يدعو الداعي بها إلى الله عز وجل، والله عز وجل يقول: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾ [الأعراف]. فيجب عليكم الرجوع إلى ما نوجب عليكم من الحجج القاطعة، التي لا مخرج لكم منها، والحمد لله رب العالمين.

ومن الحجج لنا على عبد الله بن يزيد البغداذي، وعلى من قال بقوله من جيمع أهل الجبر والإلحاد في صفة الله جل ثناؤه، أنا نقول لهم: خبّرونا عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧]، أليس هذا في القرآن؟!

فإن قالوا: بلى.

قلنا لهم: فأخبرونا عن الكفر والشرك، وجميع المعاصي والفواحش كلها، التي ادّعا عبد الله بن يزيد أن الله عز وجل خلقها وصنعها، وأرادها وقدّرها، وكذب المفتري على الله، أليس هي بين السماوات والأرض؟! فلا بد لهم من أن يقولوا: نعم.

فنقول لهم: فخلق الله للشرك والكفر وجميع المعاصي التي ذكرت، أحق هو أم باطل؟! أم خلقُ ذلك كله لا حق ولا باطل؟!

فإن قالوا: خلقه الله حقا؟

قلنا لهم: فهو حق كما خلقه الله حقا.

فإن قالوا: لا، لزمهم لنا ووجب عليهم أن الله عز وجل لم يخلق الأشياء على أمر من الأمور يوقف عليه، فنحن على خلاف الأمر الذي خلقَنا الله عليه، فهم لا يدرون لعل الله خلق الناس حميراً والحمير ناساً، وهذا غاية التجاهل والعمى !!

وإن قالوا: لا نقول ذلك، ولكنا نقول: خلق الله جميع ذلك حقا.

قلنا لهم: فالكفر والشرك، وقول أهل الدهر، وجميع المعاصي حق كما خلقها الله حقا؟

فإن أقروا بذلك وأجازوه، لزمهم أن القول بأن الله ثالث ثلاثة، وأن له ولداً، وأن يده مغلولة، وأن الشركاء والأنداء، والأضداد والأولاد حق. وهذا هو التعطيل والخروج من ملة الاسلام، والبراءة من الله العدل الذي لا يخلق الباطل ولا يصنعه، ولا يقضيه على فاعله، ولا يريده ولا يرضاه، كما قال عز وجل: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

وإن قالوا: إن الكفر باطل، وإن الله خلقه باطلاً.

قلنا لهم: فإنه يجب عليكم من الكفر أعظم من الذي هربتم منه، لأن قولكم: إن الله الذي خلق الباطل تكذيب منكم لقوله، وردّ لكتابه، إذ يقول عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧]، والكفر والشرك وجميع المعاصي بين السماوات والأرض. فتبارك الله وتعالى عما يقول المجبرون علواً كبيرا !!

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، فلِمَ يسمِّي خلقه وصنعه: باطلا، أفهكذا يقول الحكيم الحسن الفعل، الذي يخبر عن نفسه أنه لا يجور ولا يظلم، ويقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا (٨٧)﴾ [النساء]، ثم قال: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦]. فليت

شعري أيها الباطل وأيها الحق، وكلاهما – زعمتم – خلق الله وصنعه، فوالله لا يزيد المجانين على هذا الخبط والتخليط الذي لا يعقل.

إن المجبرة زعمت أن الواحد الحكيم، العدل الذي لا يجور ولا يظلم، يُنزل على رسوله فرائض افترضها على عباده، وحتمها عليهم، ثم يحول بينهم وبين الوصول إليها، ثم يقول لمن افترض عليه الفرائض: لِمَ لم تؤدِّ إليّ ما أمرتك به؟! وقد خلق بين السماء والأرض أفعال العباد كلها – كما زعمتم ووصفتم – وقال: إنه لم يخلق ذلك باطلاً، وقال: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، (إنما يقول: باطلا، أي: همجا لا لمعنى، لا أنه عنى: السماوات والأرض وما بينهما أنهم باطل في ذات أنفسهم، كذلك هذا للفائدة لا للمعارضة)[1] - رجع – علينا زعمتم.

فإذاً في كتابه أن بعض ذلك الخلق قد صار حقا، وبعضه قد صار باطلاً، بعدما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧)﴾ [ص]، ثم قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)﴾ [الأنبياء]، فمَثَل هذا الذي أسندتم إليه هذه القبائح، مثل رجل زجّاج عمل آنية كبيرة من الزجاج، فلما فرغ منها أخذ لها عموداً، ثم اعترضها من جانب بالخبط والكسر، فلما انكسرت قال لها: لِمَ تكسّرتِ؟! والله لأعاقبنّكِ العقوبة الموجعة. ثم يجب له من بعد هذا اسم الحكمة والعدل، والنصفة والرحمة، ونفي الجور والظلم، ألا ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)﴾ [هود] !!

ولا أكفَرُ بالآخرة ممن زعم أن رب الآخرة هذه صفته، واتبع هواه، وترك

---

(١) سقط من (أ): ما بين القوسين.

القرآن والتدبّر لبراهينه، وعجيب مجاريه، وإياه نحمده على ما أوضح لنا في كتبه، وأرشدنا إلى[١] سبيله، إنه منان كريم.

ثم نقول لعبد الله بن يزيد البغداذي، ولمن قال بقوله من أهل الجبر والفرية على الله عز وجل: خبّرونا عن هذه المسألة فإن فيها قطعَ ما قلتم، وإليه من الأمر ذهبتم، خبّرونا عن الكافر، أعاجز هو عن خلق الكفر؟

فإن قلتم: نعم.

قلنا لكم: أفقادر هو على اكتساب الكفر؟

فإن قلتم: نعم.

قلنا: فالشيء الذي عجز عنه هو الشيء الذي قدر عليه؟

فإن قلتم: نعم، لزمكم لنا أنه عاجز عما هو قادر عليه، وقادر على ما هو عاجز، وهذا من أعظم التخليط وأبين الاستحالة والمناقضة.

وإن قلتم: الذي عجز عنه هو غير الذي يقدر عليه، والذي يقدر عليه هو الاكتساب، والذي يعجز عنه هو الخلق، والخلق غير الاكتساب، فقد لزمكم لنا في زعمكم أن اكتساب العباد غير ما خلق الله عز وجل، وهذا تركٌ لقولكم، ورجوع عن مذهبكم.

ثم نقول لعبد الله بن يزيد: أليس من قولك في أول هذه المسألة التي سألتنا عنها أن اسم الكفر هو الكفر، وأن اسم الايمان هو الايمان، وأن ليس اسماهما شيئا غيرهما، فيلزمك لنا أن اكتساب الكفر هو الكفر، وأن اكتساب الايمان هو الايمان، لا غير ذلك على ما قلتَ، وهذا كتابك الذي وضعت علينا، وقد بان قهرُنا لك،

(١) في (أ): إليه.

وقطعْنا لحجتك، بأوضح البيان، وأيقن الايقان، لما ناقضت القول، وخالفت الدعوى.

فزعمت أن ليس الأسماء هي شيء غير الأفعال، لأنك زعمت أن ليس اسم الشيء غير الشيء، فيلزمك فيما تدعي من التوحيد أن اسم الله هو الأحرف المعروفة، وهي (ألف لام لام هاء)، فزعمت أن ليس الاسم غير المسمَّى، ففسد عليك ما ادعيت من التوحيد، إذ زعمت أن معبودك ليس اسمه غيره، فيلزمك أن (ألف لام لام هاء) التي تكتب مرة وتُمحَى مرة، تبصرها الأعيان، وتدركها الحواس هي معبودك، لَمَا زعمت أن ليس الاسم غير المسمَّى، وكفى بهذه فضيحة عليك، إذ خرجت من العدل والتوحيد جميعاً.

ومن الحجة عليك قول الله عز وجل يضيف أفعال العباد إليهم، وأنه لم يخلقها ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، فارتفعوا في اللغة العربية وعند أهل النحو، لأنهم فاعلون، ولو كان هو عز وجل خلق أفعالهم، لم يجز في القرآن العربي إلا أن يقول هو الذي خلقكم كافراً ومؤمناً، فيجب أنه الذي خلق أفعالهم، وهذه من القرآن، ولا يجوز في النحو غيرها.

ومن الحجة عليك أن نقول لك: أخبرنا عن قول الله عز وجل: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٧، البروج: ١٦]، هل هذه الإرادة تامة نافذة محكمة، أنه لا يريد شيئا من جميع الأشياء كلها، صغر ولا كبر ولا هان، إلا كان ذلك الشيء، أم بعض ذلك يمكنه كونه، ويمتنع كون بعضه؟!

فإن قلت: إن الله عز وجل إذا أراد أمراً من جميع الأمور، فلا بد من نفاذ ذلك الأمر، كائناً ما كان، لا يمتنع عليه شيء مما أراد وشاء، وأحب وقضى، وخلق وأمضى.

قلنا: كذلك الله عز وجل، ولكن اعرف ما يلزمك في قولك عليه بالجبر، وافهم ما يأتيك في آخر المسألة، فإن فيها فضيحتك وانقطاعك.

ثم نقول لك: قد أقررت ولزمك أنه لا يمتنع على الله عز وجل شيء ولا يغلبه، إذا أراده وأمر به.

فإن قلت: نعم، قد أقررتُ ولزمني ما قلتم، لأنك لو قلت غير ذلك كفرت.

قلنا لك: فما معنى قوله عز وجل: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾ [البقرة]، هذا قولُ جبرٍ جبرهم عليه، أم تخيير منه لهم، إن شاؤوا فعلوا، وإن لم يشاؤوا لم يفعلوا؟

فإن قلت: بل هم مخيّرون تخييراً، إن شاؤوا فعلوا وصاروا قردة، وإن لم يشاؤوا لم يصيروا قردة، لزمك أن الخلق مخيّرون تخييراً، من أراد أطاع، ومن أراد عصى، على أن ليس قولنا: إن القوم الذين قال لهم: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ مخيرون في ذلك تخييراً، ولكن قولنا: إنهم مجبورون جبراً وقسراً.

وإن قلت: لا أقول إنهم مخيرون تخييراً، ولكني أقول: إنهم مجبورون جبراً وقسرا، لا بد لهم من ذلك، لأن إرادة الله وأمره لا بد من نفاذه، ولذلك صاروا قردة خاسئين، لا بد لهم من ذلك.

قلنا: صدقت، هذا هو الحق، فما تقول في قول الله عز وجل حيث يقول للناس: ﴿كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥]، هل أراد ذلك منهم جبراً جبرهم عليه، وقسراً قسرهم على فعله؟

فإن قلت: لا، لم يجبرهم ولم يقسرهم، وجب لنا عليك، ولزمك أن العباد مخيّرون تخييراً في الطاعة، غير مجبورين ولا مكرهين ولا مقسورين، ورجعت عن قولك ودخلت مع أهل الحق.

وإن قلت: لست أقول إلا أن الله جبر العباد وقسرهم على أن يكونوا قوامين بالقسط، لا حيلة لهم في ذلك، ولا مخرج لهم منه، لأن إرادة الله جل وعز نافذة، وأمره الأمر الذي لا يُردّ ولا يُغلب، على ما بنيتَ عليه أصل مسألتك، وقُدت عليه

اعتقادك، لزمك لنا ووجب عليك، أن إرادة الله عز وجل لم تنفذ في المشركين ولا الكافرين، ولا في جميع العاصين، من جميع من لم يقم بالقسط كما أمره الله عز وجل، وافترض عليه، ونطق به القرآن، وجاءت به الرسل عن الله جل ثناؤه، وأنه لزمه العجز عن هؤلاء القوم، فلم ينفذ أمره فيهم، ولا قوله لهم: ﴿كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥]، فعصوه ولم يطيعوه، ولم ينفذوا أمره كما أنفذ الذين قال لهم: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾ [البقرة]. فيلزمك أنه قَوِيَ على الذين جعلهم قردة وقدر عليهم، ولم يقدر ولم يقو على الذين قال لهم: ﴿كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾، وإنما هو أمر واحد بكلمة واحدة، لا فرق عندهم بين الأمرين وبين القولين، فلا بد لك من تعجيز الله عز وجل الذي لا يعجز ولا يُغلب، وأن الأمر الذي أقررت لنا به، من أن إرادة الله نافذة غير مردودة ولا مغلوبة، لم يتم على ما قلت، وأنها قد انتقضت، لا بد لك من ذلك، ولا حجة لك تدفعنا بها أبداً في هذه المسألة ولا غيرها، حتى ترجع إلى الحق، وتدخل في دين الاسلام من ذي قبل.

فتقرّ وتعتقد أن الله تبارك وتعالى أراد من القوم الذين قال لهم: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ إرادةَ حتم وقهر وجبر، لا حيلة لهم فيها، ولا مخرج لهم منها، ولا محيص لهم عنها، ولا سبيل لهم إلى تركها بما عصوا، فاختاروا الكفر على الايمان، واستحقوا النكال والمسخ باختيارهم، لا بما أراد، ولا بما قضى، ولا بما خلق من فعلهم، وأن القوم الذين قال لهم: ﴿كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾، إنما أراد منهم القيام بالقسط تخييراً لهم، لا جبراً ولا قسراً، إذ هو الذي لا يمتنع عليه أمر يريده، عزّ وتعالى !!

وإلا فما العجز[1] عن نفاذ الأمر[2]؟!

(١) في (أ): عجز.

(٢) في (أ): أمره.

فهذا هو دين الله عز وجل الذي تعبّد به الأولين والآخرين، وجاء به عنه المرسلون، ونطق به الكتاب المبين، والحمد لله رب العالمين.

وقد قال لنبيه صلى الله عليه يعزيه: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، أي: قسراً وجبراً، وإنما خيَّرهم ليستحقوا لما خيّرهم إما الثواب وإما العقاب.

قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (٩٩)﴾ [يونس].

فإن قال قائل: فأي إكراه أكبر من السيف؟

قلنا: لم يعْن الله عز وجل الإكراه بالسيف في هذا الموضع، إنما عنى: إكراه القلوب وجبرها على الايمان، فذلك ما لا يطيقه النبي صلى الله عليه، ولو كان عنى إكراه الحرب لم يكن للآية معنى !! لأنه قد أكرههم بالسيف بعد البيان والامتناع والحمية، وبعد الإبلاغ والإنذار، فأمرَه بقتالهم، وهذا الإكراه ليس هو إكراه القلوب وقسرها على الايمان. ولو كان الأمر على ما قالت المجبرة، لم يجز في الحكمة ولا في العقول أن يقول لمن أكره الناس وفرغ من إكراههم: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (٩٩)﴾ [يونس]. فافهم هذا الجواب وانظر فيما ذكرنا لك، ورسمنا لك من الحق، فلن تجد المجبرة سبيلاً إلى نقضه على أهل العدل أبداً، والحمد لله رب العالمين.

ثم قال عبد الله بن يزيد البغداذي: ثم سلهم مَن جعل الكفر كفراً، والايمان إيمانا؟ فإنهم يقولون: إن الله لم يجعل التوحيد حسناً، ولا الشرك قبيحاً، وكيف يقع الثواب على ما لم يحسّن الله ولم يقبّح؟!

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: إنا نقول: إن الله جل ثناؤه الذي جعل الكفر كفرا، بالتسمية والحكم لا بالخلق له، وجعل الايمان إيمانا، بالتسمية لا

بالخلق له، وليس لله عز وجل في الايمان فعل، قلّ ولا كثر، إلا الأمر به، والافتراض له، وكذلك ليس لله عز وجل في الكفر فعلٌ، قلّ ولا كثر، بوجه من الوجوه كلها، إلا النهي عنه، والافتراض لتركه، والخروج منه.

وأما قولك: إنا في زعمنا أن الله لم يجعل التوحيد حسناً، ولا الشرك قبيحاً، وقولك: فكيف يقع الثواب على ما لم يحسّن الله ولم يقبّح، ولم يجعله كفراً ولا إيمانا، واللهُ - زعمت - إنما ذكر في كتابه أن الثواب [على الايمان] والعذاب على الكفر، فهذا كذب منك علينا، وإسناد إلينا ما لم نقل، وليس من قولنا ما قلت، جل الله وتعالى عن ذلك، وقد حرّفت وخلطت.

وإنما قولنا: إن الله عز وجل جعل التوحيد حسناً بالدعاء إليه، والترغيب فيه، والدلالة عليه، فحسّنه في قلوب الخلائق بالنعت والصفة لثوابه، إذ هو دينه الذي بعث به المرسلين من الأولين والآخرين، الذي لا يقبل غيره، ولا يرضى سواه، ولا يقبل عملاً من سائر الفرائض إلا به، ولا جنّة لمن خالفه وقصر منه. وكذلك قبّح الله عز وجل الكفر بالنهي عنه، والتحذير منه، والإعذار والإنذار في تركه والخروج منه، وليس الجعلُ لذلك إلا جعل حكم وتسمية.

فأما[1] جعلُ حتم وجبر وخلق خلقهما، أعني: الايمان والكفر وقسر عليهما العباد، وخلق فعلهما جميعا من الايمان والكفر، فليس ذلك قولنا في صفة خالقنا، عزّ عن ذلك وتعالى !! ولا ذلك قول الملائكة المقربين، ولا الأنبياء المرسلين، ولا الأئمة العالمين.

وإنما ذلك قول الملحدين، والزنادقة الأرذلين، والمشركين والظالمين، وقول عبد الله بن يزيد وأصحابه المجبرة الأخسرين. والشاهدُ لنا على أن الله عز وجل بريء مما

---

(١) في (أ): أما.

قالوا، قوله جل ثناؤه: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)﴾ [الحجرات]، يعني عز وجل: أنه حبَّب الايمان إلى من أراد الدخول فيه، بما وصف من جنات النعيم، وشوّق إليه من الملك العظيم، والثواب الكريم، وكذلك كرّه الفسوق والعصيان، إلى من أحب ترك ذلك من العالمين، بما أوعد مَن فعله وعصى فيه، من العذاب المقيم، والنكال الأليم، والمقام في خلود الجحيم. لا أنه جبر أحداً من خلقه على أحد من الأمرين، من الأولين والآخرين. ولو جبرهم على الطاعة أو المعصية جبراً – كما قلتم – لم يجب للمجبورين ثواب، ولا عليهم عقاب.

وأما قولك: كيف يثيب الله على ما لم يجعله هو عز وجل إيمانا ولا كفراً؟!

فنقول لك أيها المغرور، المغلط في دينه، والتارك لكتاب ربه: هل رأيت رجلاً قط خاط ثياب نفسه، ثم لما فرغ منها أعطى خياطاً آخر أجرة ثيابه التي خاطها هو لنفسه؟ أو هل يجوز ذلك في التعارف، أو في اللغة، أو في العقول؟!

أو هل رأيت رجلاً قط بنى داراً بيده حتى إذا فرغ من عمارتها أعطى البنّائين أجرة ما بنى هو بيده لنفسه؟!

أو هل رأيت جمَّالا حمل نفسه وأولاده على جماله إلى مكة، ثم أعطى الجمالين كراء جماله التي يمكلها، ولم يخرجوا معه إلى مكة ولم يسافروا، وأعطاهم الكراء على غير عمل؟!

فهل هذه الصفة تجوز في حكمة حكيم، أو في صفة متقن عظيم؟!

أو هل سمعت – أيها المخدوع المعجب بجهله – آية واحدة من كتاب الله عز وجل تشهد بما قلت إنه يثيب أحداً على خلقه، الذي هو تولى خلقه، أو يثيب أحداً على أمر تولّى هو عز وجل صنعه دون غيره؟!

أليس آيات القرآن تشهد وتدل على أن الثواب للمطيعين العاملين، وعلى أن العقاب على العاصين التاركين، الذين آثروا الهوى، واختاروا لأنفسهم الدنيا، على الآخرة التي تبقى، فقتلوا الأنبياء وأئمة الهدى، وأشركوا وكفروا وفعلوا كل قبيح باختيارهم وإرادتهم، لا بإرادته عز وجل، ولا خلقه الذي ألزمته أنه خلق فعلهم، بل هو البريء عن ذلك، تبارك وتعالى !!

وقال في غير موضع من القرآن ما لا نحصيه، أن العقاب وقع عليهم: بما ﴿قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [المائدة: ٨٠]، وبما عملت أيديهم ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠، التوبة: ٧٧]، و ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠، يونس: ٤، ٧٠]، قال الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢)﴾ [فصلت]، وهذه الآية من الشواهد أن هذا الشيء خاص دون عام، يعني به مما أنطق، إذ كان كل شيء لا ينطق إلا أهل النطق لا غيرهم، وإنما احتججنا بهذه الآية، لأنها توجب لنا حجة فيما نحن في ذكره، وحجة لنا عليك في دعواك: أن الله خالق كل شيء، تريدون بذلك أفعال العباد، وجب في هذه الآية أن ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]، وإنما هو خاص لا عام، مع شواهد كثيرة سوف نذكرها في مواضعها إن شاء الله.

وكذلك قوله عز وجل لأهل الجنة: ﴿جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧، الأحقاف: ١٤، الواقعة: ٢٤]، وقوله: ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ [الحاقة]، وقوله: ﴿قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا

لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾ [النحل]، وقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧)﴾ [النور].

فهذا القرآن الذي لا حيلة لك في ردّه، يوجب أن الجزاء لا يكون إلا على المجازى، وإلا لم يجب أن يجزى المجازى على عمل نفسه، ولا يسمَّى ذلك: جزاء، ولا يعرف في لغة عربية ولا غير عربية، ولا يقبله عقل لبيب.

إلا أن يقال لرجل: أعطني جزائي على زيارتك لقبر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، أو أعطني أجري على حِجتك إلى البيت الحرام، أو يجوز في اللغة أن فلاناً احتفر بئراً بيده، فلما فرغ منها وخرج ماؤها، قدم إليه رجل من أهل البصرة فقال له: أعطني أجري على بئرك التي حفرتها لنفسك وبيدك.

وهذا نفس المحال من المقال، فكيف قول عبد الله بن يزيد البغداذي في هذا الموضع؟! وما حجته على الله عز وجل أن يكون يجزي على فعله هو، ويعاقب على فعله وهو خَلقه – زعمت – صَنَعه، فيجزي على صنعه الذي صنعه دون غيره بالجنة وبالنار، التي إليهما مصير الخلائق، وملك الأبد، أو عذاب الأبد.

فهل يخرج هذا القول في فعل حكيم، أو عادل كريم، ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١، النمل: ٦٤]، فلا حجة لك في هذا ولا خلاص، إلا التوبة والرجوع، فتضيف إلى كل عامل عمله، لقول الله عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة]. كأن هذا القرآن عنى به غير المجبرة، وكأنهم لم يسمعوا قوله عز وجل: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا

(٤٩)﴾ [الكهف]، وكأنهم لم يقل لهم: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء]، وقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١)﴾ [المدثر].

فلعمري إنهم عند تذكرة الحق، وحجج القرآن، لكالحمير النافرة من الأسد !!

والدليل على ذلك، أنك إذا أنظرتهم ببراهين القرآن هربوا من النظر، ورووا في الحديث أن أسلافهم وكبراءهم قالوا لهم لا تسمعوا القرآن من صاحب بدعة، وأهل العدل والتوحيد عندهم أصحاب البدع، فكيف يعرف القرآن أو يهتدي إلى عجائبه، والنَّيِّرِ الشافي من حججه، من اعتقد هذا الجهل، ودان به من رواة الأحاديث؟! وجعله ديناً عليه يعمل، وبه يحتج. وترك قول الله عز وجل: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، و ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وقوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥)﴾ [القمر]، وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾ [فصلت].

فنعوذ بالله من الحيرة في دينه، والهجران لكتابه، والعنود عن حقه !! إنه قوي عزيز.

وليت شعري ما الفرق بين من روى هذا الحديث، وبين المشركين الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، وقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت].

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادي: أوليس لو شاء العباد لصنعوا الكفر إيماناً، والايمان كفرا، لأنه إنما هو صنعُهم وجعلُهم، وتحسينهم وتقبيحهم، والله لم يصنع ذلك. يضيف إلينا أن هذا قولنا - زعم - وقد كرر كلامه في هذا الموضع من كتابه،

بأمرٍ بعضُه يكفي، لأنا نعلم ما يريد في أول كلمة يقولها، ولا بد لنا إذا كرر أن نكرر عليه حتى يتبين.

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: إنا نقول: إن العباد يقدرون على أن يحوّلوا الكفر إيمانا، فيخرجوا من الكفر إلى الايمان الذي دعاهم الله إليه عز وجل، وكذلك هم قادرون على أن يحوّلوا الايمان كفرا، فيرتدّوا عن الايمان الذي أمرهم الله عز وجل بالدخول فيه، فيرجعوا عنه ويصيروا إلى الكفر الذي نهاهم الله عنه. إلا أن تقول يا عبد الله بن يزيد البغداذي وإخوانك المجبرة: إن أحداً من الناس لم يرتدّ قط عن الاسلام، وإن أحداً لم يخرج من الكفر وعبادة الأصنام، ويرجع إلى الايمان؟!

وكفى شهادة القرآن لنا على من آمن، وعلى من ارتدّ، فأي حجة لك في هذا؟ وأي قول قد كررت فيه ووكّدته، حتى كأنك قد جئت بشيء تبهر به أهل العدل، الحماة عن دين الله جل ثناؤه، وأهل الذب عن الاسلام. فهذا يوجب عليك أن العباد يقدرون على أن يجعلوا الايمان كفرا والكفر إيمانا. وجعلهم هو أفعالهم التي لم يخلقها الله عز وجل عن ذلك، وخيّرهم فيها، وقال: ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، بعد إرسال الرسل، وإنزال الكتب، والإعذار والإنذار، ثم قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

وأما قولك في التحسين والتقبيح، فالحسن عند الله عز وجل فهو الحسن الذي لا ينكر، ولا يخرج من التعارف، ولا مما دعت إليه الرسل، ولا مما جاءت به الكتب.

والقبيح فهو القبيح الذي لا يجهل، مما نهت عنه الرسل، وحرّمته الكتب.

فالقبيح مثل فريتك على الله أنت وأصحابك المجبرة، من قولكم: إن الله عز وجل - قلتم - خلق زنا الزانين، وإلحاد الملحدين، وشرك المشركين، وقتل الأنبياء،

وأئمة الهدى، وإتيان الأمهات والأخوات والبنات، وأنه أراده – زعمتم – وخلقه وقدّره، ثم غضب منه أشدّ الغضب، وأعدّ العذاب الأليم لفاعله، وذمّه في كتبه، وعلى ألسنة رسله، وتبرأ منه، ونسبه إلى قوم براء مما خلق، فقال في كتابه: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال لهم: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال لهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، و﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]، وقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)﴾ [النجم]، ثم قال: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾[المائدة]. فكيف ينتهون عن أمر أراده منهم وقضاه عليهم، وخلقه من فعلهم؟!

ثم قال: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤]. فمما يتوبون أيها الجاهل المغرور؟! ومما يستغفرون؟! أمن فعله، أم من فعلهم، وهو القائل عز وجل: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]؟!

فأي حجة أقوى – ويحك – من أن يقولوا له يوم القيامة، ويحتجوا عليه – على قَوَد قولك – لو تركتنا يا ربنا من خلق الكفر فينا، وإرادتك له منا، وتقديرك له علينا، لسلمنا من نارك وعذابك المقيم، الذي لا فكاك منه أبداً، وقد أخبرتنا في كتابك أنك العدل الرحيم، الذي لا يجور ولا يظلم، وأنك حسن الفعال.

فأخبرنا يا عبد الله بن يزيد البغدادي لِمَ يعذبهم وقد صدقوا في حجتهم عليه – في زعمك وعلى قولك – إن هذه الصفات كلها صفته، وإن ما حل بهم إنما هو من إرادته وفعله وخلقه، وإنه لولا إرادته ما هلكوا ولا خرجوا من طاعة؟!

فحسبك بهذا العمى عمًى، وحسبك بهذا الجهل جهلاً، وحسبك بهذا الكفر كفراً!!

فلا في القرآن نظرتم، ولا العقول استعملتم، ولا عن أهل العدل قَبِلتم، ولا بقول الشعراء تأدبتم، فأنتم والبهائم في منزلة. قال الشاعر:

ألا أيهـــا الملحـــدُ المجـــبر ... أراكَ لـــــذنبكَ تســــتغفر
أتســـتغفرُ الله مـــن فعلـــه ... وأنـــتَ لـــه تـــارةً منكـــر
تقـولُ وجـدتُ جميـعَ الـذنوب ... ربي عـــلى فعلهـــا يجـــبر
ومنـــه إذا مـــا زنيـــت الزنـــا ... بزعمـــك والخمـــرُ والميســـر
أمـــا لـــك عقـــلٌ إذا لم تكـــن ... ذنوبـــك منـــك فـــلا تُغفـــر
أضـــفتَ القبـــيح إلى ربنـــا ... ومـــا هـــو مـــن خلقـــه منكـــر
وقهـرَ اليتـامى وسـفكَ الـدما ... فلِـم عبـتَ كُفـرَ الـذي يَكفـر
إذا كـــان فاعلـــه غـــيرُه ... فـــما ذَنبُـــه عنـــد مـــن يَفكـــر
وقتـــلَ الأئمـــة والمرســـلين ... ومـــا عبـــتَ شـــكرَ الـــذي يَشـــكر
نســبتَ إلى الله كفــرَ العبــاد ... وكـــلَّ المعـــاصي التـــي تُـــذكر
ولـــو قـــال ذا قائـــلٌ في أبيــ ... ـــكَ مـــا كنـــتَ عـــن قتلـــه تقصُـــر
ولـــو كـــان فيـــك لكذَّبتـــه ... وفي الله أنـــتَ بـــه تجهـــر
ألم تســمعوا قــولَ أهــل الجحيـــ ... ـــمِ في درك نـــارٍ إذا تُســـعر
وقـــد ســـألوا ربهُـــم رجعـــةً ... لكـــي يعملـــوا صـــالحاً يُـــؤجروا
فقـــال ألم أكُ عمَّـــرتُكم ... وجـــاء النـــذير فلـــم تشـــكروا
ألم يـــأتكم منـــذرٌ مـــنكمُ ... فقـــالوا بـــلى جاءنـــا مُنـــذر
ولكـــن غرينـــا بتكـــذيبهم ... وكُنـــا مـــن الرســـل قـــد نســـخرُ
فنُـــودوا إذِ اعترفـــوا بالـــذنو ... بِ بُعـداً وسـحقاً لكـم فاصـبروا
وقـــد أنكـــروا أن يكـــون القُـــرا ... نُ عـــدلاً ولـــو أنهـــم فكـــروا

لـــــــدَلَّهُمُ أنـــــــهُ عـــــــادلٌ ولكـــــنهم فيـــه لم ينظـــروا[1]

وأما الفعل الحسن الذي سألت عنه، فهو الإجابة إلى كتاب الله عز وجل، وما دعا إليه رسوله صلى الله عليه وآله من الطاعة، التي قال الله جل ثناؤه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾ [فصلت]. فهذا هو الحسن الذي سألتنا عنه عن تفسير الحسن والقبيح، فتدبَّر ما قلنا، وما جاءتك من حجتنا هذه، القاطعة لدعواك، والحمد لله رب العالمين.

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادي: ثم سلهم فإن قالوا: إن الله إنما جعل اسم الكفر واسم الايمان، ولم يجعل الايمان ولم يجعل الكفر. فقل لهم عند ذلك: أخبروني عن اسم الايمان أهو الايمان؟ وعن اسم الكفر أهو الكفر؟

فإن قالوا: إن اسم الايمان هو الايمان، وإن اسم الكفر هو الكفر، فقد أعطوك أن الله جعل الايمان والكفر، وصنعها وخلقهما، فقد أمكنوك من أنفسهم، ورجعوا عن قولهم، لأن اسم الكفر هو الكفر، واسم الايمان هو الايمان، لا أن الاسم غير المسمَّى، فإذا جعل الله الأسماء، لزمهم أن الأسماء هي الأشياء بعينها لا غيرها، فقد جعل الله أسماءها، وأسماؤها هي هي، وليس الاسم شيئا غير الكفر، وكذلك الايمان ليس اسمه غيره، فقد جعل الله الكفر والايمان وصنعهما وخلقهما.

وإن قالوا: إن اسم الكفر غير الكفر، واسم الايمان غير الايمان، والكفر المعنى الذي وقع عليه الاسم، والاسم ليس بكفر ولا إيمان، فارجع إلى أصل مسألتك، فقل: أليس العباد جعلوا الايمان غير الكفر، والكفر غير الايمان، وهم جعلوا الكفر قبيحاً، والايمان حسناً، والله لم يجعل ذلك؟! ثم ارفعهم[2] إلى ما رفعتهم إليه في

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (أ): ارفعه.

صدر المسألة، فإنهم لن يجدوا مخرجا، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٨٨، ١٤٣].

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين: قد قلت ما قلت، فأعمل ذهنك فيما يرد عليك من جوابنا إن شاء الله، فإنا نقول لك: قد أقررت ولزمك أن اسم الكفر هو[1] الكفر، وأن اسم الايمان هو الايمان، لا غير ذلك – زعمت – وأن الله جل ثناؤه في قولك الذي خلق الكفر والايمان.

فقد أكذبك الله عز وجل حين يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]، وقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (١٠٣)﴾ [المائدة].

أفلا ترى أنه تبرأ من جعل هذه الأسماء التي سموها للأنعام، وهو عز وجل الذي خلق أجسامها، فلم يتبرأ من خلقها، وإنما تبرأ مما جعلوه هم، وكفى بهذه حجة !!

وقوله عز وجل: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾ [الكهف].

فإن زعمت أن الله خلق ذلك من فعلهم، لزمك أنه الشاتم لنفسه، والمدعي لها الصواحب والأولاد، عزّ الله وتعالى وتقدس عما تقولون !!

ومع ذلك تدّعي أنك من أهل التوحيد – زعمت – ونفي التشبيه !! ومعاذ الله ما يقول بالتوحيد ولا يحسنه[2]، ولا يسلم من التشبيه العظيم، والكفر الجسيم، من

---

(١) في (أ): هو اسم.

(٢) في (أ): يحسبه. مصحفة.

يقول بالجبر، لأنه يلزمك في قولك الذي ادعيت من التوحيد، ما أنا ذاكره، فافهم ما يحلّ بك.

أرأيت إن سألك سائل فقال لك: أخبرنا عن الاسم اسم الله عز وجل المعبود الذي تعبده، هل الاسم عندك فيه غير المسمَّى، أم هو الاسم لا غيره؟

فإن قلت: إن الاسم هو المسمَّى، لزمك أن (ألف لام لام هاء)، الأحرف المخطوطة الموجودة هي معبودك الذي توحّد، والذي له تصلي وتحفد[1]، وله تصوم وتسجد، فتكفر بهذا القول عند جميع أهل التوحيد، ويلزمك أن معبودك يُمحَى فيمَّحي، ويحرق فيحترق، وتقع عليه الأبوال والأنجاس، ويقع عليها فلا ينتصر، ويجيء مرة ويذهب مرة، وتراه الأعين، وتدركه الحواس، ويخطّ بالأيدي في الكتب، وكفى بهذا بلية عظمى، وكفراً أعمى.

وإن زعمت أن الاسم غير المسمَّى، لزمك من أصل أذنك - وأنت راغم الأنف، مفلوج الحجة - أن الذي ادعيت وقلت به، وأكثرت فيه الخطاب، من أن الاسم هو المسمَّى، أنك قد أبطلت فيه وأخطأت وافتضحت، ووجب على أصحابك بلا شك ولا مرية التوبة عن تقليدك أمر دينهم، ولزمهم أن يلعنوك حيًّا وميتاً، وأن يفارقوك في حياتك إن عشت، ويتبرأوا إلى الله عز وجل مما وضعتَ لهم من الكفر والجهل، وإلا فالنار.

ويلزمك أن الكفر هو غير الاسم الذي يسمّى[2] به كفراً، وأن الايمان غير الاسم الذي يسمّى[3] به إيمانا، لأن الاسم غير المسمّى في جميع الأشياء كلها،

---

(١) الحفد: الإسراع في الشيء.

(٢) في (أ): سمي.

(٣) في (أ): سمي.

بأوضح دليل، وأبين برهان، فقد ثبت عليك الفلج، والحمد لله رب العالمين.

وقد بان لنا ولأصحابك جهلك في التوحيد، وصحّ تشبيهك، إذ زعمت أن اسم الايمان ليس هو شيء غير الايمان، وأن اسم الكفر ليس هو شيء غير الكفر، فاستفدْ أنت وأصحابك هذه الفائدة في التوحيد الذي جهلتموه كما جهلتم العدل، واعلموا علماً يقيناً أن التوحيد لا يتم لمعتقِده، ولا القائل به، إلا بمعرفة القول بالعدل، وإلا فلا يصلح توحيد إلا بعدل.

ألا ترى كيف أخطأت الخطأ العظيم في التوحيد، ولزمك التشبيه لما احتججت في إبطال العدل، بأن الاسم هو المسمّى لا غيره، فلزمك الكفر في التوحيد. ففسد عليك اعتقادك وما ادّعيت من معرفة التوحيد، فشبّهت وألحدت، وبان جهلك، وسقطت رئاستك، وهذه التي جئت بها من الخطأ أعظم من جبل أُحُد، فقد افتضحت وفضحتك !! إلا أن ترجع أنت وأصحابك إلى تعلم العدل والقول به، وتتوبوا عن الجبر والجهل.

ومن الحجة لنا عليك أيضا في أن الاسم غير المسمى، أن قائلاً لو سمّى دنانير ودراهم وإبلاً وخيلاً وقال: هي عندي، وهو فقير لا دنانير له ولا إبل ولا خيل، لم يحصل معه من تسميته الدنانير والدراهم، والإبل والخيل، قليل ولا كثير.

وكذلك لو قال وذكر خبزاً ولحماً وتمراً وهو جائع، لم ينفعه ذلك ولم يشبعه، لأن الاسم غير المسمّى.

وكذلك لو قال: ماء الفرات وهو عطشان، لم يروه اسم الماء دون وجود الماء.

فمن هاهنا وجب عليك أن الاسم غير المسمى، وبطل ما قلت، لأن اسم الله عز وجل غير الله سبحانه، وهذا اسمه مكتوب في المصاحف، يراه الناس وتحيط به الأقطار، إذ الاسم أحرف أربعة، والمسمى لا نظير له ولا عديل، ولا يتجزأ أجزاء،

تبارك وتعالى الواحد الفرد، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى] !! أسماؤه تعبير، وأفعاله تفهيم، وهو اللطيف الخبير !!

ثم نقول لك: أخبرنا عن قول أبي جهل بن هشام لعنة الله عليه بالتعنيف منه لمحمد صلى الله عليه وعلى آله، جاءنا محمد - زعم - بالايمان ليدخلنا فيه، هل قول أبي جهل وتسميته للايمان توجب له إيمانا، أم لا؟!

فإن قلت: نعم، إن ذلك القول الذي ذكرته اسم الايمان يوجب لأبي جهل إيمانا، لزمك أنك قد شهدت له بالايمان، ووجب عليك أن النبي صلى الله عليه قتله ببدر وهو مؤمن، إذ اسم الايمان هو الايمان عندك.

وإن قلت: إنك لا توجب لأبي جهل تسميته للايمان إيمانا، رجعت عن قولك، وافتضحت عند أصحابك، ولزمتك التوبة من فريتك على الله عز وجل، وبطلت حجتك.

وكذلك إن قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «الكفر دين الشيطان»، وسمى كفرا، لزمه – على قَوَد قولك – فعل الكفر، وهل تقول ذلك أم لا؟!

فإن قلت: إن الكفر يلزم النبي عليه السلام حين سمى الكفر: كفراً، كفرت بالله وأشركت، وخرجت من الاسلام بقولك في النبي صلى الله عليه مثل هذا القول.

وإن قلت: لا يلزم النبي صلى الله عليه بتسميته الكفر: كفراً أنه يكفر، بطلت حجتك، وانتقض كتابك الذي وضعت لأصحابك على أهل العدل. وكفى بهذه فضيحة وحجة باهرة !!

والعجب من أصحابك كيف يقيمون على قولك ويعتقدونه ديناً، تذهب فيه أعمارهم بعد هذا البيان، إلا أنهم اتخذوا دين الله جل ثناؤه عصبية وحمية، واستكباراً عن الرجوع إلى الحق، مع قولهم إنهم لا يقدرون على تغيير خلق الله وإرادته، لما هم

عليه – زعموا – من المذهب، وأبطلوا قوله لمحمد صلى الله عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء: ٦٤].

فزعموا أن مَن علم الله منه الكفر والمعصية، أن الله لا يريد منه الايمان، لأنه إن أراد منه الايمان بطل علمه – في زعمهم – وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وزعم عبد الله بن يزيد البغدادي ومن قال بقوله من المجبرة: أن الله – عز وجل عن قولهم – لم يصدق في هذه الآية، وأنه أراد من قوم الايمان، ومن قوم الكفر، وردُّوا كتاب الله صراحاً بلا حجة، إلا بدعوى فاسدة، إذا ما قابلها الرجال من أهل العلم والتوحيد أبطلوها عليهم، وعرّفوهم بجهلهم مثل ما قد تسمع، والله يعلم إنا لندع كثيراً من الحجج لكثرتها وترادفها علينا، وتسابقها إلى جوابنا، والحمد لله المعز لدينه، والناصر لحقه، والموضح لكتابه، والمذلّ لمن عانده وكفر به.

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادي: ثم سلهم مع هذا فقل: أرأيتم إذا كانوا هم يجعلون الايمان والكفر، أليس الايمان طاعة، والكفر معصية؟!

فإن قالوا: بلى.

فقل: أفليس هم الذي يصنعون ذلك، وليس لله عز وجل فيه صنع؟

فإن قالوا: نعم.

فقل: أفليس أنتم لا تحتاجون إلى الله فيها، وأنتم أغنياء عن الله في الطاعة لا تحتاجون إلى الله فيها، ولا إلى عون الله عليها، ولم يُعِن الله عليها خلقاً قط، ولم يحتج خلق قط إلى الله، والناس مستغنون عن الله فيها. فإن أعطوك هذا، فما أراك أن تريد ترفعهم إلى أعظم من هذا.

فإن قال قوم: إنا مستغنون عن الله عز وجل، لا نحتاج إلى الله عز وجل في طاعة، ولا أن يكفّنا عن حرمة، ولم يكفّ عنها خلقاً، ولم يلطف ليوسف حين قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]، وأشباه هذا. فإن أبوا إلا أن يتمادوا فوقّفهم على أنهم لا يحتاجون إلى الله عز وجل، وأنهم مستغنون عن الله، وسينقطع هذا الكلام حتى لا يجيبوك.

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: اعلم أنك قد أكثرت التكرار في هذا الباب، وذلك لما عندك من الغي والجهل بالدين، وكلمة من هذا الذي هذيت به تجزي، وقد أجبت نفسك عنا ببعض قولنا، ولم تكن أحسنت تحتج فيه فتكسره، من أن العون عونان لا غيرهما، عون الدعوة إلى الحق والدلالة لنا عليه.

وعون الله عز وجل لنا بالأسماع والأبصار، والاستطاعة المركبة قبل الفعل، والألسنة وجميع الجوارح، والصحة والعافية في الأبدان.

فهذه هي عون الله عز وجل الذي أعاننا به، وتفضل به علينا.

ولا غنى بنا عنه في شيء من ذلك، ولا قوام لنا طرفة عين إلا به، ولا سبيل لك إلى وجود عون غيره، إلا ما ادّعيت من الجبر الذي خالفت به القرآن، وافتريت به على الرحمن، وليس عون الله عز وجل للعباد شيئاً غير ما ذكرنا، إلا أن تدعي كما ادعيت أن الله – عز وجل عما تسندون إليه – أعانهم على فرائضهم، فقام ببعضها عنهم، فصلّى عنهم بعض الصلوات عند اشتغالهم، وصام عنهم بعض شهر رمضان إذا عطشوا أو جاعوا، أو حج عنهم إذا كسلوا عن الحج وتوانوا، وقاتل المشركين دونهم إذا لزموا بيوتهم، وتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه، أو عن إمام هدى، فيكون ذلك كما قال المضلون الظالمون من قبلكم: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾ [المائدة]. فإن كان ما قلت حقا من العون، (فهذا لعمرك عون ثالث، لا نعرف عوناً بعدما ذكرنا غيره.

فإن قلت: نعم، هذا هو العون)[1] الذي عنه سألت، وهو الذي أريد.

قلنا لك: فقد لزمك الكفر والخروج من الاسلام، بقولك: إن الله عز وجل يصلي بعض صلاة الناس، ويصوم بعض صومهم، ويحج بعض حجهم، ويجاهد الأعداء دونهم، ويتزكّى من ماله دونهم[2]، إذا لم يدفعوا الزكاة إلى الأنبياء، وأئمة الهدى عليهم السلام. وكفاك بهذا جهلاً وعمىً وكفراً !!

وإن قلت: إنك لا تقول هذا لبيان فساده.

قلنا لك: فأوجدنا عون الله عز وجل للعباد على فرضهم الذي افترض عليهم، أين هو؟ وما هو؟ وكيف هو؟ فلا تجد عونه للعباد غير ما ذكرنا، من تفضّله عليهم، والدعاء إلى الاسلام، وما وهب لهم من الأسماع والأبصار، والألسنة والقوة، والأيدي والأرجل وجميع الجوارح، والصحة والعافية، والقدرة على أداء الفرض بالاستطاعة المركبة فيهم، فلا سبيل لك إلى وجود عون من الله عز وجل للعباد على أداء الفرائض إلا طرحه، أو قيامه ببعضها دونهم، أو الرجوع إلى القول بالعدل كما قلنا، لا بد لك من ذلك، ولا خلاص لك منه، وسقط قولك: إنا سنُقطع في مسألتك هذه - زعمت - وفرّحت نفسك وأصحابك بذلك، فدونك الآن، فخلّص نفسك مما وقعت فيه، ولا خلاص لك من هذا الذي قلنا لك أبداً بوجه من جميع الوجوه، إلا التوبة والرجوع إلى القول بالعدل.

وأما قولك: إنا فينا من يقول إن الايمان لا يستطاع إلا بعون حادث، فلسنا نقول ذلك أيضاً، ذلك قولك وقول أصحابك، إن الاستطاعة - زعمتم - مع الفعل تحدث بحدونه، ولا نقول نحن بأمر حادث، بل فينا الاستطاعة موجودة قبل

(١) سقط من (ب): ما بين القوسين.

(٢) في (أ): دونهم من أموالهم. زيادة سهو لا معنى لها.

فعلنا، ولذلك لزمتنا لله عز وجل الحجة، وقد ذكرنا في صدر كتابنا هذا من الرد عليك في الاستطاعة ما فيه أكفى الكفاية، والحمد لله رب العالمين.

ومن الحجة لنا عليك في إبطال قولك، الذي زعمت فيه أن الله عز وجل أراد الكفر من الكافرين، ما يأتيك من كتاب الله عز وجل ما يوجب تكذيبكم، وبراءته عز وجل، من فريتكم عليه، وهو قوله جل ثناؤه: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِّ إِنَّ اللهَّ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهَّ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَّ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)﴾ [الزمر]. فاسمع إلى قوله عز وجل، حيث يقول القائل: ﴿لَوْ أَنَّ اللهَّ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، فاسمع إلى جوابه عز وجل، حيث قال: ﴿بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللهَّ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللهُّ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)﴾ [الزمر].

فلو لم يكن نزل في العدل، وبراءة الله عز وجل من كفر الكافرين، ووضوح شهادة القرآن به أنهم اختاروا الكفر ولم يُرده الله منهم، لكان في هذا أكفى الكفاية، وأوضح البرهان !!

وقوله عز وجل: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)﴾

[يس]. أهذا ويحك من أراد الكفر من عباده؟! جلّ عن ذلك رب العالمين !

وقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)﴾ [يس]، أهذا قول من أراد الكفر منهم ثم عنفهم وعاقبهم على فعله وعلى ما أرد منهم؟!

أهذه صفة الرحيم الحكيم، الذي أخبر الله عز وجل عن نفسه أنه لا يجور ولا يظلم، وقال في كتابه: ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨)﴾ [آل عمران]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٢٨)﴾ [الأعراف]؟!

فهذه الآية مكذّبة لقولك ولمن مضى من قبلك ولمن بقي من إخوانك، إذ صرتم في الفرية على الله جل ثناؤه إلى كل باب عظيم، لا تقوم له الجبال، بمفارقتكم للقرآن صراحاً، ومجادلتكم بغير القرآن، إلا ما تعلقتم به من المتشابه الذي جهلتم فيه التأويل، والمعرفة باللغة العربية، التي خاطب الله جل ثناؤه أهلها، وفارقتم الحق وأبغضتم أهله، وقال قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. وكفى بهذه الآية كلايةً[١] وبياناً وقطعَ عذرٍ، لمن تخلّف عن الحق وأهله !! لو[٢] قامت نَصَفَة، أو إعراض عن حمية، أو قِيمَ لله جل ثناؤه بواجب حق، ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)﴾ [المؤمنون] !!

وقوله عز وجل: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن

---

(١) في (أ): كلاما. والكلاية: الحفظ. ولم يتضح لي معناها في هذا الموضع. فلعلها مصحفة.

(٢) في (ب): ولو. مصحفة.

نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠)﴾[عبس].

فنقول لك: ما القول عندك في قول الله جل ثناؤه: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾، أيجوز من فعل حكيم عادل أن يقتل رجلاً في غير جرم، وهو الذي أراد قتله ثم يقول: قبح الله فلاناً، ما أشرَّه وما أظلمه، هل يجوز هذا في لغة العرب وفي واضح العقول؟!

ثم نقول لك على أثر هذا، أحين قال عز وجل: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾، أتقول إرادته لكفره، أم إرادته لايهانه؟

فإن قلت: هو إرادته لايهانه، صدقت وقلت الحق وهو قولنا، لأن الله عز وجل قد يسّر الكفار كلهم للسبيل[1]، ودعاهم إلى الطاعة، وعرّفهم سبيل[2] التقوى، ودلهم على النجاة، فاختاروا الكفر على الايهان، ولزمك أنك قد رجعت عن قولك: إن الله أراد الكفر من الكافرين.

وإن قلت: إن هذا التيسير من الله جل ثناؤه للكافرين، إنها هو إلى سبيل الكفر لا إلى سبيل الرشد، أكذبك الله عز وجل بواضح البرهان، وأبين البيان، وأقوى السلطان، بقوله تبارك وتعالى الذي لم تهتدِ إليه، ولم تدبر[ه] قط في ساعة من الساعات: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ [الانسان]، فأخبر عز وجل أنه هدى الكافرين والمؤمنين، ابتداً منه ومنّة ونعمة، بغير استحقاق استوجبوه، وذلك هدى تعريفٍ ودلالة إلى السبيل، بالكتب والرسل، لا هداية جبر ولا قسر لواحد من الفريقين.

وأخبرنا في هذه الآية أنه قد بدأ الكفار بالدعاء والهداية إلى الايهان وهم على

---

(١) في (أ): للكفار كلهم السبيل.

(٢) في (أ): بسبيل.

كفرهم، وهذه سنة الله عز وجل في الأولين والآخرين، أنه يدعوهم إلى دينه، وذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)﴾ [الليل].

فاسمع إلى هذا البيان، وإلى واضح هذا البرهان، كيف ذهبت عنه وكيف خرجت منه وتركته صفحاً، فلا يبعد الله إلا من ظلم. ثم يكذبك بعد هذا جميع أهل القبلة بأسرهم أن الله عز وجل ما عنى بتيسيره الكفار إلى السبيل، إنه لم يعن بذلك إلا سبيل الهدى والطاعة والرشد، لا اختلاف بينهم في ذلك، ومَن رده كفر.

وقوله سبحانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، أهذا عندك قول من أراد منهم الكفر؟! ثم يسألهم فيقول: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ [بِاللهِ] وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً﴾، وهو الذي أراد كفرهم، سبحان الله العظيم ما أقبح ما قلتم، وأوضح فساده !!

وقوله عز وجل: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩)﴾ [المدثر]، وقوله: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقول المؤمن في سورة يس: ﴿وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾ [يس]، وقوله يخبر عن الكفار: ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص: ٦٣]. فكل هذه الآيات تشهد على تكذيبك، وتشهد لله جل ثناؤه بالبراءة مما قلت، إنه أراد كفر الكافرين.

.ثم قال عبد الله بن يزيد البغداذي: وإن سألوك أخلق الله الكفر والايمان؟

فقل: نعم، خلقهما الله عملاً من العباد، ولم يعملهما على وجه ما عملهما العباد، العباد يزنون ويسرقون، ولم يفعل الله ذلك على ما فعله العباد، ولكن الله عز وجل

خلق عملهم، فخلقَ الطاعة والمعصية عملاً من العباد، وكذلك كل شيء صنعه العباد وعملوه، فالله خالق عملهم عملاً منهم.

واعلم أنه ليس كلام تكلم به أهل القبلة من الجور أقرب إلى الزندقة، من قولهم: إن الله لم يخلق أفعال العباد، فهو إذاً لم يُضحك ولم يُبكِ، ولم يجعل اختلاف الألسنة، ولا خلق السرابيل، لأن خلق الألسنة لم يختلف، وإنما اختلفت[1] اللغات، وإنما كتبت هذه المسألة لتعرف ما يدخل عليهم في هذا الكلام، فأحسن النظر ولا تعجل.

واعلم أنهم إن قادوا كلامهم على هذا، زعموا أن الله لم يخلق ثوباً، ولا سربالاً، ولا نهراً، ولا ضحكاً، ولا بكاءًا، ولم يسق الله عطشاناً، ولم يطعم الله جائعاً، ولم يجعل الله كناناً من الجبال التي عملها العباد، ولا قصراً من السهل، وأشباه هذا الذي عملها العباد، ولم يخلق الله كفراً ولا إيمانا، ولم يجعل الله الايمان غير الكفر، ولا الكفر غير الايمان، ولم يحسّن الله إيمانا، ولم يقبّح كفراً، وإن ذلك كله عمله العباد وصنعوه، وحسّنوه وقبّحوه، ولم يجمل الله في ذلك ولم يجعله، وأشباه هذا فهو أكثر من أن نصفه لك.

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: قد صح لنا أنك من القوم الذين قال الله جل ثناؤه فيهم: أولئك ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف]. قد فهمنا ما ذكرت من فريتك على الله – عز وجل عما قلت – من أن الله خلق أفعال العباد، فخلق الكفر والايمان، والطاعة والمعصية عملاً من العباد، ولم يفعل ذلك - زعمت - على وجه ما فعله العباد، فقد أجبناك على أشباه هذه المسألة في غير موضع.

---

(١) في (أ): اختلف.

ومن جوابنا لك المسألة القاطعة التي سألناك فيها عن أيهما أفضل أفِعل الله الذي ليس للعباد فيه اكتساب ولا فعلٌ، أم فعل الله الذي للعباد فيه اكتساب وفعل؟ وتلك حجة لا قوام لمجبر بعدها أبداً، ولا مخرج له منها، وهي قبل كلامنا هذا، فاستغنينا بها عن إعادتها.

وأما قولك: إنه لم يتكلم أحد من أهل القبلة بجوز أقرب إلى الزندقة، من قولنا هذا: إن الله لم يخلق أفعال العباد، فنحن نقول: إنه ليس قول أوسط في التعطيل والشرك والخروج من الاسلام جملة، من قولكم: إن الله خلق أفعال العباد، ثم غضب مما خلق وعذب على خلقه، فإذا نظرت في المسألة التي فوق هذا الكلام من هذا الكتاب الذي شرحناه، كان مثلك عند نظرك إليها مثل الرجل الذي ذكروا أنه أشرف على نخل البحرين، فلما رأى كثرته واتساعه وعظم شأنه، قال: امرأته طالق، ما على وجه الأرض نخل هو أكثر من هذا النخل !! ثم سار أياماً حتى أشرف على نخل البصرة، فلما نظر إليها وبان له كثرتها وعظم شأنها، وهول ما عاين منها، وأنها أكثر وأجلّ من النخل الذي حلف عليه، فلما خاف الحنث - زعم - في يمينه التي حلفها، قال عند ذلك: إن شاء الله، فهذا مثلك إذا نظرت في جوابنا في خلق الأفعال.

وأما قولك: إنه يلزمنا أن الله عز وجل لم يُضحك ولم يبك، ولم يجعل اختلاف الألسنة، ولا عمل السرابيل، فنحن نقول: إن الله جل ثناؤه خلق فينا الاستطاعة قبل الفعل، وفوّضنا في الحركات بعد الأمر والنهي وحكم الكتاب، فإن شئنا قمنا، وإن شئنا قعدنا، وإن شئنا ضحكنا، وإن شئنا بكينا، وإن شئنا أمسكنا، وإن شئنا فجرنا، وإن شئنا أمسكنا عن الفجور، وإن شئنا آمنا، وإن شئنا كفرنا، وإن شئنا صلينا، وإن شئنا لم نصل، وإن شئنا صمنا، وإن شئنا لم نصم، ولذلك لزمتنا الحجة ووجب علينا الحكم من الثواب والعقاب والجنة والنار. شاهد ذلك قوله عزوجل: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)﴾ [يس].

وأما قوله: ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣)﴾ [النجم]، فإنما يعني بذلك: ما في الدنيا من العبر التي تُضحك وتبكي.

ألا ترى أنه عز وجل قال: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١)﴾ [عبس]، وليس هو جل ثناؤه الذي يحفر قبور الموتى ولا يدفنهم. فعلى هذا القياس يخرج الإبكاء والإضحاك، لأن استطاعة البكاء والضحك موجودة في بني آدم من قبل الفعل.

وقوله عز وجل: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [العلق]، والله لم يَبرِ الأقلام، ولم يستمدّ بها من الدوى، ولم يخطّ بها في الألواح ولا في الصحف، وإنما هداهم إلى التعليم، وكذلك هداهم إلى صنعة الدروع وغيرها، ولم يصنعها هو دروعاً، عزّ عن ذلك رب العالمين !

وأما اختلاف الألسنة فهو الدلالة على كل لغة والتعريف بها، لا أنه خلق ذلك الكلام الذي قاله أهل اللغات، وقد جاء في الخبر أن لغة بني آدم افترقت على ثمانين لساناً، فلو خلق كلام المتكلمين، لكان الخالق لقول الكفار: إنه ثالث ثلاثة، ولو كان ذلك منه لم يجزْ في الحكمة ولا في العدل أن يخلق قولهم إنه عز وجل ثالث ثلاثة، ثم يقول: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾ [المائدة]. ويلزمكم أنهم لو انتهوا عن قولهم: ﴿إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، كان القول الآخر الذي صاروا إليه، وانتهوا فيه عن الأول هو خلق الله أيضا. فإذا هو ينهاهم عن خلقه ويحوّلهم إلى خلقه، وهذا هو المحال، والله عز وجل لا يأمر بالمحال، ثم يغضب - زعمتم - من خلقه وتغضب السماوات والأرض والجبال، فيكدن أن ينشققن وينفطرن وينهددن من خلقه - زعمتم - ثم يخلد العباد في النار على خلقه وإرادته وتقديره، وهذه صفة أهل العبث واللعب، والتخليط والمجانين، وليس هذه صفة الحكيم الرحيم العادل، الذي لا خلل في حكمته، ولا عبث في تقديره، ولا حجة لأحد في صنعه وخلقه، عزّ عن ذلك ربنا وتعالى !!

ثم نقول لك: أخبرنا عن إرادة الله عز وجل لكفر خلقه – زعمت – هل هو أهلٌ لما أراد من ذلك؟

فإن قلت: نعم، هو أهل لما أراد من ذلك، لزمك أن الله عز وجل أهلٌ أن يُكفَر به، وبان كفرك، وحسبك بهذا جهلاً !!

وإن قلت: إن الله ليس بأهل لما أراد من الكفر، لزمك أنه ليس بأهل لما أراد، وفي هذه فضيحتك وانقطاعك، فاختر أي القولين شئت، ففي هذه المسألة وحدها قطع كل مجبر على وجه الأرض.

وأما السرابيل التي سألت عنها، فهي أيضاً دلالة لله عز وجل دلّ عليها المؤمنين، وتعريف عرّفهم به، ليتحصنوا بها عن الظالمين، دل الله جل ثناؤه وعز نبيه داود صلى الله عليه، فعملها بيده وقدّر سَردها باستطاعته، ولم يخلق الله عز وجل الدروع حلقاً ومسامير، وإنما خلق الله عز وجل عين الحديد، ومن ذلك الحديد عمل الناس الدروع، وكذلك جميع الصناعات، ولم يخلق الدروع فيكون زرّادا، ولا السفن فيكون نجارا، وقد قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [العلق].

فهل تقول: إن كل كتاب كتبه أحدٌ من كفرٍ وإلحاد، وتشبيه وجبر، وشعر وغناء، وسفه وفساد، إن الله عز وجل هو الذي كتب ذلك الكتاب، لأن خلقه فعلُه – زعمت – وفعلَه صنعه، وأنه فعل خَلق أفعالهم؟!

فيلزمك أنه إذا تكاتب سفيهان بالسفه أحدهما إلى الآخر، كان الله عندك هو الذي كتب ذلك الكتاب وخلقه، وكفاك بهذا فرية على الله عز وجل !!

وقد سمعت كيف أخبر عز وجل عن أمره لداود بصنعه للدروع، ولنبيه نوح صلى الله عليهما بعمل السفينة، وأنه لبث سنين كثيرة يعلمها، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ [النحل: ٤٠]، من غير نجار ولا زرّاد، ولا حداد ولا صانع، فجعلت أنت أفعال العباد كلها فعلاً لله تعالى، لجهلك بعدله وحسن تقديره، وأنه لا يعذب على صنعه، وعلى أمر اضطّر العباد إليه، وقد أعلمناك أن الجعل في كتاب الله عز وجل على وجهين:

جعلُ حكم وتسمية.

وجعلُ حتم لا مخرج منه.

وقوله عز وجل: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢)﴾ [الزخرف]، فذلك في الفلك خاصة جعلُ دلالة وتسمية، لا أنه نجرها ولا دسرها، ولا أنهم يركبون الفلك لا بد لهم من ركوبها حتماً، إنما الأمر إليهم، إن شاؤوا ركبوها، وإن شاؤوا تركوها، تخييرا لا جبراً.

وإنما أخبرهم بالنعمة فيما سخَّر لهم من العيدان، والدلالة على عمل النجارة والمسافرة على وجه الماء. فهذه نعم يجب أن تُشكَر[1] ويُعترف لمن تفضل بها. وكذلك ما اعتللت به من العطشان والجائع والعاري، فالله عز وجل الذي خلق الطعام والشراب، وأمر بالاحسان إلى الجياع والعطاش، ولم يطعمهم من طريق الضيافة والتلقيم، ولا حمل الكؤوس إلى أفواههم، ولا النسج لثياب العارين، وإنما أمر بالاحسان من بعضهم إلى بعض، وحضّ عليه، وقال: ﴿وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، فهذا إطعامه وفضله وكسوته ونعمته. وقال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ

(١) في (أ): يشكر.

لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم]، وهذا هو وجه القول وإصابة المعنى، لا ما ذهبت إليه، من أن الله عز وجل هو الذي يفعل جميع أفعال العباد، وأنه - زعمت - الذي خلق السفن والدروع، وغير ذلك من أعمالهم التي عملوها بأيديهم، واتخاذهم للأصنام.



[شبهة في قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾]

فإن قلت: إنه قد قال في كتابه: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [الصافات].

قلنا لك: إنه خلق الذهب والفضة، والنحاس والحديد، والخشب والحجارة التي عملوا منها الأصنام، فصوّروها وقدروها ونحتوها، وليس ذلك الذي عملوا بأيديهم فعلاً لله عز وجل، وإنما فعلُه خلق الأشياء التي منها عملوا، ولو كان فَعَل فِعلهم، لوجب لهم عليه أن لا يندبهم إلى طاعة، ولا يسألهم عن تقصير، ولا يعذّبهم على غير جرم، وهو الذي فعل جميع أفعالهم، وقد أخبرهم أنه لا يجور عليهم ولا يظلمهم، وأنه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، فأي عسر أعسر مما قلتم؟! وأي ظلم أكبر مما ذكرتم؟! عزّ عن ذلك اللطيف الخبير !!

ثم قال عبد الله بن يزيد البغداذي: ثم سلهم عند ذلك كيف جعل الله السرابيل التي تقي الحر وتقي البأس؟ وكيف جعل الله من الجبال أكناناً مما لم يكن فيه ذكر إلا بعمل الناس، أفَعَل الله ذلك الخلق ووصله، وغزل القطن والكتان وحاكها؟!

فإن قالوا: لا.

فقل: كيف جعل الله السرابيل؟ فإنهم لن يجدوا بدًّا من أن يقولوا: خلق الله عمل الناس[1] وجعل عملهم.

فقل: أفليس الله جاعل عملهم وخالقه وصانعه؟

فإن قالوا: نعم، فقد أعطوك بأن الله خالق أعمال العباد وصُنْعهم، وهذا قولنا وهو العدل.

---

(١) في (ب): عمل الله. مصحفة.

فإن أبوا أن يعطوك هذا، فأعِد عليهم المسألة فقل: كيف جعل الله إذاً السرابيل التي تقي الحر، والتي تقي البأس؟

أهو خلَقَ الخلق وصنعه ووصله، وهو الذي غزل وحاك وخاط الثياب؟

فإنهم لن يعطوك هذا ولن يجدوا بدًّا أن يجعلوا صنع الله فيها خلق الله لأعمالهم، وجعلُ الله لأعمالهم هو صنعه.

ثم سلهم عن قول الله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ﴾ [الزخرف: ١٢]، كيف جعل الله الفلك؟

فإن قالوا: خلق الشجر.

فقل لهم عند ذلك: أليس إذا رأينا خشبة أو شجرة قلنا هذه فلك؟

فإن قالوا: نعم، فهذا ما لا يقبله أحد، ويعلم مَن سمعه أنه كذب، ولن يعطوك هذا.

وإن قالوا: جَعلُ الله لعمل العباد وصنعُ الله لعملهم، فهو قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ﴾.

فقل لهم حينئذ: هذا قولنا إنا نقول: إن جعلَ الله[1] للفلك جعلُه لعملها، وكلها جعل الله، وجعلُه فهو خلقه، لأن الله جاعل ما خلق، وخالق ما جعل، وخلقه وجعله وصنعه للأشياء واحد، لم يصنع الله شيئا لم يخلقه، ولم يخلق الله شيئا لم يجعله.

وإن ذهبوا يلوون ألسنتهم بشيء، فسلهم كيف جعل الله الفلك، أهو شق الخشب وصوّرها ونحتها؟!

فإنهم لن يعطوك هذا ولن يجدوا جواباً، إلا أن يقولوا: جَعلُ الله لها، خلقُ العباد[2] لها.

(١) سقط من (أ): الله.

(٢) في (أ): خلق الله لعمل العباد.

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: قد فهمنا ما سألت عنه من إضافتك إلى الله جل ثناؤه خلق السرابيل التي تقي الحر والبأس، وعمل الأكنان والسفن، وغير ذلك من أفعال العباد، التي أضفت فعلها إلى الله جل ثناؤه، وتريد بذلك أن تُلزمنا أنه عمل الزرادة والنجارة والخياطة والخرازة، لتثبت أنه الذي فعل الزنا والشرك والكفر، وجميع المعاصي، جلّ الله وتعالى عما قلت، قدوس قدوس رب العالمين !!

وأما قولك: إنه يلزمنا إذا أنكرنا عليك أن الله بريء مما أضفت إليه، أنه لم يجعل كناناً من الجبال التي عملها العباد، وكذلك السفن والدروع وغيرها، فكذلك نقول: إن العباد هم الذين[1] حفروا بعض الكنان التي في الجبال، وعملوها بمعاولهم وأيديهم، وقوّتهم المركبة فيهم، وإن الله عز وجل لم يعملها ولم يحفرها بالمعاول، وإنما جعل الأكنان والكهوف التي هي في الجبال مخلوقة بلا معاول ولا كلفة، قال لها كوني فكانت من آخر ساعتها.

فذلك فعله عز وجل المخلوق في الجبال، والعباد إنما عملوا أكنانهم التي حفروها بعد الدهور الطويلة، والتعب والنَّصَب وكذلك القصور، ولم يقولوا لها: كوني فكانت، وليس لله جل ثناؤه في فعلهم لها فعلٌ غير ما أعطاهم من القوة التي اختاروا بها ما أرادوا، فهذا قولنا.

والدليل على ذلك، قوله عز وجل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)﴾ [الشعراء].

أفلا تراه كيف أضاف اتخاذ المصانع إليهم، وعاب عليهم اتخاذها لعلهم

---

(١) في (أ): العباد الذي. مصحفة.

يخلدون، ولم يقل كما قلتَ: إنه خلق ما عملوا فيها. فهذا شاهد من كتاب الله جل ثناؤه.

وزعمتَ أنك لا تستطيع أن تكتب علينا كل ما يدخل في مسائلك، لأنها - زعمت - تكثر، وأنت أيها المسكين المغرور لم تظن أنه يحلّ بك منا ما حل، ولا ينزل بك ما نزل، وليس صبيّ من صبيان أهل العدل تهوله مسائل أهل الجبر، لأن الحق إنما جعله الله عز وجل حقا في نفسه بالحدّ، والباطل جعله باطلاً في نفسه بالحكم والتسمية، لا بالخلق والجبر، فمحال أن يزهق حق ويثبت باطل، وإنما الذي يزهق الباطل ويثبت الحق، وكذلك قال رب العالمين: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)﴾ [الأنبياء].

وإلا فأوجِدنا إن كنت صادقاً قوي الحجة أين موضع خلق الله لأفعال العباد؟ حتى نعرف كيف ذلك الخلق، وكيف صورته؟ وأين موضعه؟ وأين يكون؟ حتى تفرق لنا بينه وبين فعل العباد، ولو بمقياس شعرة، فلن تجد ذلك أبداً بنور الله وبراءته من قولكم.

وأما قولك: أن نسأل[1] عن قول الله عز وجل: ﴿جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]، فقلت: كيف جعل الله السرابيل؟ وكيف خلقها لهم، وهم الذين عملوها كما عملوا الكفر والايمان؟

فإن قلنا لك: - زعمت - أن الله خلق الشجر الذي يكون منه الثياب، وخلق الحديد الذي يكون منه السرابيل، فتسألنا - زعمت - هل يجوز إذا رأينا حديداً أن نقول: هذا سرابيل، وإذا رأينا شجرَ قطنٍ أو قطناً أو كتاناً، قلنا: هذه سرابيل تقينا الحر، ولم تغزل ولم تنسج ولم تحكْ ولم تعمل، وإذا رأينا جبلاً مصنوعاً ليس فيه كنّ قلنا: هذا كن.

---

(١) في (أ): تسأل.

فإذا قلنا: نعم - زعمت.

قلت: فهذا ما لا تقبله العقول، ولا يمتري فيه أحد أنه كذب.

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: فجوابنا لك: أنه يلزمك في هذه الدعوى مثل ما يلزمنا لك، وقد علمت وعلم أهل العقول أنا لا نقول: إن الحديد ولا القطن ولا شجر القطن يجوز في اللغة أن تسمَّى: سرابيل تقينا الحر، وسرابيل تقينا البأس، ولا يجوز أن يقال لجبل ليس فيه كن: إنه كن، هذا باطل فاسد، محال من المقال، لا يقوله أحد، ولا يذهب إليه متكلم.

ويلزمك أن الله عز وجل خلقها متفرداً[1] بخلقها، ثم أوجدها فعمل العباد منها السرابيل هم منفردون بعمل ذلك، لأن الله عز وجل الذي فعلها لم يعمل الدروع حِلَقاً مدوّرةً، ولا سمّرها بمساميرها دُسراً، ولا جعل لها الجيوب ولا الأكمام، ولا حاك الثياب بالأنيار[2] والأداة، ولا خاطها بالإبر والأجلام[3]، ولا جعل لها الجيوب والأكمام، ولا حفر الكهوف في الجبال بالمعاول، وإنما خلق الله عز وجل الحديد الذي منه عملت الدروع، وخلق الشجر، وخلق فيه القطن الذي منه عمل الناس الثياب وحاكوها، هم منفردون بعمل ذلك كله، والحديد والشجر وجميع ما خلق الله من الأشياء التي منها اشتقّ العباد ما عملوا، كلُّ ذلك موجود غير معدوم ولا مفقَوَد، تبصره الأعيان، وتحسّه الأيدي، وتدركه جميع الحواس، وتوقن به العقول، ويوجد جسماً مجسَّماً، مرئياً مدركاً، حاضراً معروفاً، لا شك فيه ولا مرية.

(١) في (أ): منفردا.

(٢) الأنيار: جمع نير، وهو الخيوط إذا اجتمعت.

(٣) الأجلام: جمع جَلَم، وهو ما يجز به الصوف.

وعند ذلك يلزمك أيها المفتري على الله عز وجل الفرية العظيمة في قولك: إنها خلق الكفر والشرك، وجميع القبائح والمعاصي، كما خلق الحديد وشجر القطن. والكهوف الموجودة في الجبال من خلق الله عز وجل وتقديره، وأنك تلزمه عز وجل أنه خلق الدروع وحاك الثياب، وعمل السفن والصناعات، والكهوف المحفورة.

فنقول لك أيها المفتري على الله: أوجِدنا الكفر والشرك، والزنا والخنا، وقول الكفار: إن الله ثالث ثلاثة، وإن له – عز وجل – صاحبة وأولاداً، وكذلك توجدنا قتل الأنبياء وأئمة الهدى، كما أوجدتنا الحديد الذي منه عُملت الدروع، والشجر الذي منه عُمل القطن، والخشب الذي منه عُملت السفن، وجميع ما ذكرت، حتى نبصره بالأعيان، ونلمسه بالأيدي[1]، وتدركه جميع الحواس، ويكون جسماً موجوداً معروفا، قد تميّز من قبل فعل الآدميين له، كما تميز الحديد وشجر القطن، وغيره من قبل عمل الآدميين له، فتوجدنا جسماً معروفاً مقدوراً عليه، ومنظوراً إليه، أو مسموعاً صوته، أو مشمومة رائحته، أو مدركاً ذوقه، أو ملموساً بحاسّة، أو محويًّا[2] بقطر من الأقطار، كما أوجدتنا الحديد والقطن والخشب، وغير ذلك مما خلق الله عز وجل.

لا بد لك من ذلك، وإلا لزمك أنك تناظرنا على أمر محال، وخلقٍ لا يدرك ولا يعرف، ولا يوجد متجسّما ولا مرئيا ولا ملموساً، فتكون دعواك باطلة بلا بينة، ولا أمر تشهد عليه العقول والألباب، ولا تدركه الحواس، ولا يوجد في لغة العرب، ولا يوجد في كتاب ولا سنة، وإنما هذه نزغة من نزغات الشيطان، ألقاها في قلوبكم وعلى ألسنتكم، لتُثبتوا بها حجة المشركين والكافرين ، والزناة وقتلة الأنبياء، وجميع

---

(١) في (أ): وتلمسه الأيدي.

(٢) في (أ): وعويا.

العاصين، وأن تكون الحجة على الله لهم لازمة، وعليه قائمة، بما خلق لهم - زعمت - وفيهم، من الشرك والكفر، والزنا واللواط، وجميع المعاصي.

فأخذوا كل هذه الفواحش والكبائر، من فواحش قد وجدوا ربهم - زعمت - قد سبق إلى فعلها، وخلقها قبل خلقهم لها، فمنها عملوا، ومنها أخذوا، ولولاها ما وجدوا كفرا يكفرونه، ولا شركاً يُشركونه، ولا زنا يزنونه، ولا لواطاً يلوطونه، ولا قتلاً يقتلونه، ولا عصياناً يفعلونه.

كما أنه عز وجل لو لم يخلق لهم الحديد وشجر القطن، والتراب والماء، والحجارة والأَدم[1]، والصوف والشعر والجبال، لم يجدوا حديداً يعملون منه الدروع، ولا شجر قطن يحوكون منه الثياب، ولا صوفاً يعملون منه الأكسية، وغير ذلك من الأثاث، ولا تراباً ولا ماء[2] يعلمون منه القصور، ولا خشباً يعملون منه[3] الأبواب والسقوف.

ومن الحجة لنا عليك في أن الاستطاعة قبل الفعل، وأن أفعال العباد في قولنا: نحن غير خلق الله عز وجل، وأنه بريء من خلقها، وأنها فعلهم هم تفرّدوا بها، لا فعل رب العالمين، عزّ عن ذلك وتعالى !!

فنقول لك أيها المجبر ولإخوانك المجبرة: خبّرونا متى خلق الله عز وجل الاسلام، أقَبل إرسال الرسل، أم بعد إرسال الرسل؟

فإن قلتم: إن الله جل ثناؤه خلق الاسلام قبل إرسال الرسل، لزمكم أن الاستطاعة قبل الفعل، ولزمكم أيضاً أن إرساله لأولهم وهو آدم عليه السلام، أن

(١) الأدم: الجلد.

(٢) سقط من (ب): ولا ماء.

(٣) في (أ): بها.

الصيام والصلاة والحج والعمرة والجهاد وجميع الفرائض، قد كانت معروفة موجودة، محدودة مخلوقة، قبل أن يرسل الله عز وجل بها آدم عليه السلام.

ثم يلزمكم أيضاً أن يقال لكم: خبرونا عن هذه الفرائض التي زعمتم أنها مخلوقة قبل بعثة آدم عليه السلام، كيف هي؟ وما هي؟ وأين هي؟ أفي أرض؟ أم في سماء؟ وكيف صورها؟ وهل تُدرك ببصر؟ أو تحسّ بسمع؟ أو تنال بلمس؟ أو تذاق؟ أو تشمُّ باستنشاق؟

فإن قلتم: إنها موجودة في الأوهام، من غير أن تدرك بالحواس.

قلنا لكم: فقد نراكم قد أوجدتمونا قديماً موجوداً في الأوهام آخر مع الله عز وجل، لا يُدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، فيه الصفة التي وصفتم[1] بها الواحد، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وهذا كفر بالله العظيم، وخروج من الاسلام، وإبطال الوحدانية، ودعوى إلهين اثنين صفتهما واحدة لا فرق بينهما، لأنكم ادّعيتم شيئاً ليس له حد ولا غاية تعرف، ولا نهاية يوقف عليها، ولا تدركها الحواس، ولا تُعلم هذه الصفة إلا للواحد القديم الأزلي، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، تبارك وتعالى.

فهذه حجة لازمة لكم، ودامغة لدعواكم[2]، ولا مخرج لكم منها.

وإن قلتم: إن الله عز وجل خلق الاسلام بعدما أرسل الرسل، لزمكم أن الاستطاعة قبل الفعل أيضا، وأن الله جل ثناؤه أرسل رسله يوم أرسلهم، وليس معهم إسلام يدعون الناس إليه، ولا هدى يوجب لهم الطاعة، ولا تقوم لله به على بريته حجة، لأنه – زعمتم – إنما خلق الاسلام بعد إرسال الرسل، فوجب عليكم

(١) في (أ): وصفهم.

(٢) في (أ): لازمة لك. وفي (ب): ودامغة لدعواك.

أنه أرسل إلى الناس رسلاً غير مسلمين، إذ لا إسلام معهم، وإنما خُلق – زعمتم – بعد إرسالهم، وكفى بهذا كفراً وجهلا من قائله !! وفيه خروجكم من دين الاسلام.

وإن قلتم: خلق الله عز وجل الاسلام مع إرساله للرسل، لا قبل ذلك ولا بعده، رجع عليكم القول الأول، والمطالبة لكم من خصومكم بأنه لا بد لكم أن توجدونا الاسلام، الذي ادعيتم أنه خُلق مع إرسال الرسل، بحدوده وشخصه، ولمسه وذوقه، وسمعِ صوته وحسّه، والنظر إلى صورته وإدراكه، وإحاطة الأنظار به، حتى يعرف ويوجد، ويوقف على صورة ذلك الخلق، إن كان خلقاً لله عز وجل!!

وإن قلتم: إنه لا يدرك إلا بالصفة لا غيرها، لزمكم أنه واحد ليس كمثله شيء، لأنه قد انتظمته صفة الله عز وجل الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] – في زعمكم – لأن كل شيء خلقه الله عز وجل من الخردلة فما فوقها من السماوات والأرض، لا بد له من ستة حدود تحوي كل مخلوق خلقه الله عز وجل، وهي القدام والخلف، واليمنة واليسرة، والفوق والتحت. فهذه الحدود لابد لها أن تحيط بكل مخلوق، لأن الخالق عز وجل لا حد له، ولا قدام ولا خلف، ولا يمنة ولا يسرة، ولا فوق ولا تحت.

فهذا الفرق بين الخالق عز وجل وبين المخلوق، وما ليس له حدّ يدرك بالحواس، فليس هو خلقاً لله عز وجل. وهذا أكبر الدليل عل أن أفعال العباد غير مخلوقة، ولو كانت مخلوقة لكانت بائنة، بمعنى تحيط به الحدود والأقطار[1] دون فاعليها، وإنما أفعال بني آدم حركاتهم وفعلهم هم، لا فعل الله عز وجل ولا خلقه.

وكذلك الكفر يلزمكم في خلقه من الحجة مثل ما لزمكم في خلق الاسلام

---

(١) في (ب): ثابتة لمعنى تحيط الأقطار.

سواء، إن ادعيتم أنه خُلق قبل الكفار، طالبناكم بشخصه[1] وحدّه، ولمسه ودرك الحواس جميعاً له.

فإن لم تأتوا على ذلك ببرهان، لزمكم توحيده، لَمَّا جعلتموه بصفة الواحد، ولا بد لكم من أحد هذه الثلاثة الوجوه التي ذكرنا لكم، ليس لها رابع، وليس لكم من واحد منها مخرج.

فاعرف ما قلتَ يا عبد الله بن يزيد البغدادي لإخوانك، من قولكم لهم: أن ليس قول أقرب إلى الزندقة – زعمت – من قول أهل العدل: أن ليس أفعال العباد مخلوقة!!

فأي القولين الآن أقرب إلى قول الزنادقة؟!

بل أيهما هو الزندقة؟

بل أيهما هو الشرك الأعظم الذي جعلتم الله – عز وجل عن قولكم فيه – شريكاً لكل مشرك، أو فاعل فاحشة، أو مرتكب لعظيم كفر، فجاز حد[2] قولكم قولَ أهل الأصنام، وفات من[3] جميع الأنام، وأخرجكم من قبة الاسلام، فلا يبعد الله إلا من ظلم.

قال الله: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)﴾ [المؤمنون]، وقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥)﴾ [المؤمنون]. أهذا عندك قول من أراد أن يُكفر به؟! أو قول من خلق الكذب والاستكبار، وعذب عليه؟! ثم سمَّى نفسه: عادلاً لا يظلم، ثم قال: ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٣].

---

(١) في (أ): بتشخصه.

(٢) سقط من (أ): حد.

(٣) سقط من (أ): من.

وأما اعتلالك بقوله عز وجل: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]، فقد أعلمناك أن هذا خصوص لا عموم. والدليل على ذلك ما يلزمك الاقرار به، أحببت أو كرهت، وهو قوله عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فنقول لك: أخبرنا عن الدهرية المعطلة، الذين زعموا أن ليس لهم خالق، أليس هم شي أم لا؟!

فإن قلت: أن ليس هم بشيء، أكذبك جميع الخلق، وخرجت من حد الكلام، ودخلت في العبث.

وإن قلت: هم شيء.

قلنا لك: فهل هم يسبحون الله؟

فإن قلت: نعم، بانت فضيحتك، وأكذبك جميع الخلق، لأنهم معطلة يجحدون الخالق، وهم الذين ذكر الله عز وجل في كتابه، حين قال: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤)﴾ [الجاثية].

وإن أقررت أنهم ليس يسبّحون الله جل ثناؤه، قلنا لك: قد صدقت، وفي صدقك هذا يلزمك أن ليس كل شيء يسبّح الله عز وجل، وإنما عنى بعضاً دون بعض. وكذلك قوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]، إنما عنى ما خلقه جل وعز، لا ما خلق العباد. وفي هذا كفاية لمن عقل.

وإنما خلق الله جل وعز الأجسام والأعراض، لا غيرهما مما يعرف، وليس له عز وجل خلق ثالث يعرف إلا الأجسام والأعراض، إلا ما قاله عز وجل: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل]، ولا يقوم عرض إلا في جسم، ولا جسم إلا في عرض.

فإن قلت: إن الأعراض لا تدرك بالحواس، ويلزمكم لنا فيها مثل ما لزمنا لكم في خلق أفعال العباد.

قلنا لكم: فإن جوابنا لكم في ذلك أن الأعراض ترى وتسمع وتدرك، وليس أفعال العباد ترى ولا تسمع، ولا تدرك بصورة ينظر إليها، ولا جسم متجسم، إلا أن يقول قائل: إن القتل يرى بمعنى غير حركة الآدمي، (أو أن الصلاة ترى بمعنى غير حركة الآدمي، أو أن الزنا يدرك بمعنى غير حركة الآدمي)[١]، أو شيء من جميع أفعال بني آدم يقال فيه: إنه يدرك أو يرى بمعنى آخر غير حركة الآدمي[٢]، فلا يوجد السبيل إلى ذلك أبداً، إلا أن توجدونا شمسين في وسط السماء.

وكذلك الزنا ليس هو شيء يدرك ولا يحس، غير التقاء الفرجين، وحركة الفاعلين تكون مع ذلك، ولا يوجد خلق كما افتريت إلا أجسامهما، فأجسامهما خلقُ الله عز وجل.

وكذلك الزكاة ليس هي بشيء يحس ولا يدرك، غير دفع الدنانير والدراهم والحبوب، من يد رجل إلى رجل، فأين خلق الزكاة؟ أوجدنا إن كنت صادقاً حتى نعرفه بصورته، ولن تجد ذلك أبداً.

وكذلك الجهاد ليس هو شيء يحسّ ولا يدرك، إلا الرجل يضع السيف ويرفعه، ويرسل السهم ويمسكه، ويمد الرمح ويصرّفه، فأين خلق الله عز وجل لقتل الأنبياء، وسفكه الدماء، وفعله لجميع القبائح من الأشياء التي قلت فيه؟!

هل هو إلا ما ذكرنا من حركات بني آدم التي برئ الله عز وجل منها ومن خلقها، حيث يقول عز وجل: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، وتلك الحركة

---

(١) سقط من (ب): ما بين القوسين.

(٢) سقط من (أ): غير حركة الآدمي.

فهي[1] فرع الاستطاعة التي ركبها الله عز وجل في خلقه، وهي القوة التي وهب لهم، ثم حظر بالأمر والنهي المؤكد، والبرهان المشدد، أن لا يستعملوا تلك القوة - التي وهب لهم، وفوّضهم فيها، مخيرين غير مجبورين في إمساكها ولا إرسالها - إلا في جميع ما يرضيه، وأن لا يعملوا[2] بها شيئاً مما يسخطه.

وأعدّ الجنة لمن أطاعه، وأعد النار لمن عصاه، وأرسل بذلك الرسل، وأنزل به الكتب، وأعذر وأنذر، وحذّر وكرر، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾ [الأنفال]، فمن ادّعا بعد هذا شيئا يريد به إسقاط الحجة عن الكفار والعصاة، ويُلزم الله عز وجل الظلم والجور؟! فقد كفر بآيات القرآن، وهو قوله عز وجل: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقوله عز وجل: وما اختلفوا إلا ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣][3]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء].

وقلت أنت أيها المجبر: إنه أراد الكفر من الكفار، وقد كررنا هذه الآيات، لأنها حجة الله عز وجل، ولا حجة أقوى منها، وقد وجدنا الله تبارك وتعالى قد كرر القول في غير موضع من كتابه، لتأكيد الحجة والإبلاغ في الموعظة، وفي أقلّ مما قلنا به كفاية، وانقطاع لكل مجبر على وجه الأرض، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) في (ب): هي.

(٢) في (أ): وأن يعملوا.

(٣) في (أ) و (ب): ﴿ وما اختلفوا إلا من بعد... ﴾، ولا توجد آية بهذا اللفظ.

ومن الحجة عليكم في قولكم: إن الله عز وجل خلق الاسلام قبل إرسال الرسل، أنه يلزمكم أنه قد كانت صلاة موجودة من غير مصلٍّ، وزكاة موجودة من غير متزكٍ، وصيام موجود من غير صائم، وحج موجود من غير حاج، وعمرة موجودة من غير معتمر، وجهاد موجود من غير مجاهد، وأمر بمعروف، ونهي عن المنكر من غير قائم بذلك، وهذا هو الخروج من المعقول، وهو يبطل قولكم: إنه فِعل من فاعلَين، بأوكد حجة، وأوضح برهان.

وإن قلتم: إن الله خلق الاسلام بعد إرسال الرسل، لزمكم أن الاستطاعة موجودة قبل الفعل لا بد من ذلك، لأنه يلزمكم أن الرسل قد دعتكم إلى أمر قبل فعلكم له، إذ ليس من شأنها عليها السلام، ولا من[1] عدلِ مَن خلقها تبارك وتعالى الدعاء إلى ما لا سبيل إلى دركه.

وإن قلتم: إن الله خلق الاسلام مع إرسال الرسل، لزمكم أن توجدونا صورة الاسلام وحسّه ودركه قبل أن يُفعل.

فإن قلتم: إنه لا يدرك إلا بالصفة، لزمكم أنه إله[2] موجود فيه، مثل صفة الله تبارك وتعالى، فلا خلاص لكم من هذه الثلاثة الوجوه، وفيها انقطاع قولكم، وبيان جهلكم، وفريتكم على خالقكم، ومفارقتكم لكتابه صراحاً، وظلمكم لأهل العدل، وكذبكم عليهم.

إلا أن ترجعوا وتتوبوا، ويكون قولكم: إن الله عز وجل لم يخلق أفعال العباد، لا الصالح منها ولا الطالح، وإنه بريء من ذلك كله، إلا ما أمر به، ونهى عنه، وهو متعالٍ عن خلق أفعال العباد، متنزّه عن خلق الفواحش، وجميع الشرك والظلم

---

(١) في (ب): في.

(٢) في (ب): أن الإله.

والكفر، وقتل الرسل وأئمة الهدى، وإلا فالنار لا شك فيه، لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٢٨)﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣]، وقوله: ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨)﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

أفلا تسمع إلى قولهم وإقرارهم أنهم الذين فرطوا، وأنهم قد دعوا بالحسرة على ذلك التفريط، ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ (٣١)﴾ [الأنعام]، ولم يقولوا ما قلت: يا حسرتنا على ما خلق الله من أفعالنا !! ولا على ما أراد منا !! وقوله: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١)﴾ [ص].

فنقول لك: أخبرنا عمن قدّم لهم ذلك، أهو المريد لكفرهم؟

فإن قلت: لا، رجعت عن قولك بالجبر.

وإن قلت: نعم، المقدم لعذابهم هو المريد لكفرهم، لزمك أن خالقك يدعو على نفسه بعذاب النار، هذا من أعظم كفر قال به قائل !! فالحمد لله المعز لدينه، والموضِّح لبراهينه، والناصر لأهل طاعته، والذابّين عن كتابه، وهو القوي العزيز.

واعلم علماً يقيناً أنه لا حدّ لفعل بني آدم يدرك إلا حدّ فاعله، وليس هو بشيء بائن عن فاعله، إنما هي الحركات الموجودة فيهم، وهي فرعٌ لاستطاعتهم، والاستطاعة فعل الله عز وجل التي عليها البنية، والحركات فعلوها بإرادتهم واختيارهم، بعد الأمر والنهي من الخالق الحكيم.

ولو كانت أفعال العباد قائمة موجودة وحدها على الانفراد، بائنة عن الأجسام، ثم وصفتها المجبرة بصفة غير ما قلنا، للزمها أن تثبت لها الحدود والأقطار.

وإن لم تحدها[1] ونفت عنها الحدود على الانفراد، لزمها أنها قد وجدتها كما وجدت الصانع القديم. وهذا أبطل باطل يكون، وفيه القطع لكل مجبر على وجه الأرض، إذ لا حجة تفسد ما قلنا، ولا تقطع ما به احتججنا.

والدليل على ذلك، قوله عز وجل: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]. فإنما ذلك الإفك حركاتهم، ولو كان الإفك شيئا غير حركاتهم، منفرداً عن حركاتهم، لوجب أنهم يخترعون عيون الأشياء، ويخرجونها من العدم إلى الوجود، كفعل الواحد الحميد، فلا يقدر على ذلك إلا الله الكبير المتعال، الذي لا يعجزه شيء وهو الولي الحميد.

ويلزمكم أيضا في قولكم إن قلتم: إن الله عز وجل خلق الاسلام مع إرسال الرسل، أن يقال لكم: إن الرسل متفاوتون في البعثة، وكل رسول منهم بينه وبين صاحبه المدة الطويلة، والسنون الكثيرة، فلا يجوز لكم أن تقولوا: إنه خلق الاسلام إلا مع إرسال الأول منهم، ويبقاء من بقي بلا اسلام، حتى يُخلق له اسلام جديد يكون معه.

فإن قلتم: إن خلق الاسلام الأول يجزي من بقي.

قلنا لكم: فقد وجدنا مع كل واحد منهم شريعة تخالف الأخرى، وأحكاماً تخالف الأحكام التي من قبلها، وهذا ينقض[2] عليكم ما ادعيتم من خلق الاسلام الأول، لأن مع كل نبي أمرا غير أمر صاحبه، وشريعة غير شريعة صاحبه. فأين الخلق الذي ادعيتم من أن الاسلام مخلوق، فلا يجوز ما قلتم، وإنما الاسلام أمر ونهي، وشرائع وأحكام، تحدث بحدوث النوازل في كل عصر وزمان، فالاسلام

---

(١) في (أ): تجدها. مصحفة.

(٢) في (أ): ينتقض.

دين الله عز وجل، وهو أمرٌ أمرَ به، لا خلق خلقه، والشرائع مختلفة لحكمة المتعبِّد لعباده، وتصريفهم من الأمر على ما أراده، ولو كان الاسلام مخلوقاً، لكانت شرائعه شيئا واحداً، لا تختلف ولا تنتقض عن الخلقة الأولى التي فطرت عليها، والحمد لله رب العالمين.

وإن أبيتِ إلا أن الله الذي خلق أفعال العباد، قلنا لك: فإنه يلزمك أن توجدنا شركاً وكفراً وزناً وقولاً: إن الله ثالث ثلاثة، وإن له ولداً وصاحبة، عزّ عن ذلك !! وكذلك توجدنا قَطْعَ الطرق، وأَخْذَ الأموال، ونقب الحوانيت، وغلّ الزكوات، وقتل الأنبياء والمرسلين، وعباد الله الصالحين، فتوجدنا ذلك كله من خلق الله له.

كيف خلقه[1]؟

فأين وجده العباد حتى اكتسبوه كما قلت؟

وأين هو؟

وهل تراه الأعيان؟

أو هل تسمعه الآذان؟

أو تدركه العقول منفرداً؟

وهل تدركه الأيدي والأرجل؟

وهل يُدرَك بالذوق أو الشمّ؟

وهل تحويه الفِكَرُ؟

وهل تقع عليه الخواطر؟

وهل تحويه الأقطار منفرداً، كما تحوي سائر الأشياء المحوية الموجودة؟! حتى

---

(١) سقط من (أ): خلقه.

يصح لك، وتتبين حجتك فيه، ونعلم نحن وأصحابك أنك صادق في دعواك، أن الله خلق الشرك والكفر وجميع المعاصي، فيصح ذلك لنا ولك ولجميع الناس. كما صحّ الحديد الذي قلت الذي منه عُملت الدروع، والشجر الذي حدث منه القطن فعملت منه الثياب، والخشب الذي عملت منه السفن، كما قلتَ، وصح لك لعمري.

وهذا حق أن الحديد الذي عملت مه الدروع، وشجر القطن، وخشب السفن، والأكنان في الجبال، كل ذلك موجود، ومنه عمل الناس جميع الصناعات التي عملها بنو آدم، إنما عملوها من[1] أشياء وجدوا الله عز وجل قد سبق إلى خلقها وإحداثها، وافتطارها من قبلهم، فأخرجها من العدم إلى الوجود، لم يشاركه في خلقها أحد، ولم يسبقه إليها صانع. فعمل الناس منها جميع ما عملوا من الصناعات، التي لا تقوم الدنيا ولا تعمر إلا بها وبعملهم لها.

وذلك من الدلائل العظام على التوحيد أن أحداً لا يحدث جسماً، ولا يخترع صنع شيء من جميع الأشياء المجسمة، ولا يقدر على إحداث ذلك كله إلا الله القوي العزيز، فمِن صنعه وخلقه وفطرته واختراعه عملوا، ولولا ما وجدوا من ذلك، ما قدروا على شيء يعملون منه مصالحهم، لأن هذه الأشياء مشاهَدة مرئية موجودة، تدرك لا شك فيها من درك الحس[2]، من الشم والذوق، والسمع والبصر.

وأما الشرك الذي ذكرت أنت وإخوانك المجبرة، وجميع المعاصي التي ادعيتم أن الله عز وجل خلقها، وأخرجها من العدم إلى الوجود، فيلزمكم لنا أن تأتوا عليها بدليل وبرهان، أضوأ وأوضح من نور الشمس الطالعة، حتى يتبين للناس

---

(١) في (أ): في.

(٢) في (أ): الحسن. مصحفة.

صدقكم، ولن تجدوا ذلك أبداً، ولن تقدروا عليه، لأن المعنى الذي ذهبتم إليه فسميتموه: خلقاً لله - عز وجل عما قلتم - إنه حركات العباد التي يتحركون بها بالقوة التي فيهم، والله عز وجل إنما خلق الاستطاعة وهي القوة المركبة في بني آدم، وهم فيها مخيرون، إن شاؤوا تحركوا بها، وإن شاؤوا لم يتحركوا.

فالاستطاعة من الله عز وجل موهوبة، منّة ونعمة، والحركات ليست من الله عز وجل، وإنما هي فعلهم هم لا فعل الله عز وجل.

وشاهدُ ذلك القوي الواضح من كتاب الله عز وجل، قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)﴾ [النور]. فلو كان الله عز وجل هو الخالق لنظرهم إلى المحارم، والخالق لحركاتهم في الفروج التي يتحرك بها[1] الآدميون، لم يجز في الحكمة ولا في العدل أن يقول للمؤمنين: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾، وإنما نهاهم عز وجل عن أمر هو إليهم مالكون له، إن شاؤوا فعلوه، وإن شاؤوا لم يفعلوه.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)﴾ [الحجرات]. ولو كان الله عز وجل خلق حركاتهم بالأصوات، لم ينهَهم عن خلقه، وإنما نهاهم عز وجل عما يعلم أنهم يقدرون على تركه.

والله عز وجل فلم يخلق حركات العباد، وهي الزنا الذي تحركوا له، والقتل الذي تحركوا له، والشرك الذي تحركوا له، وحركوا فيه ألسنتهم وأيديهم، وقالوه بأفواههم وأهوائهم، وكذلك جميع الظلم والفواحش التي حركوا فيها جوارحهم وحواسّهم، وقد حظر الله عز وجل عليهم أن يستعملوا تلك الحركات إلا في

---

(١) سقط من (أ): بها.

الطاعات، والكف عن المحرمات، فعصى من عصى، فوجبت له النار، وأطاع من أطاع، فوجبت له الجنة. إذ ليس ثمَّ جبر ولا إكراه، ولا خلق فعلٍ. والله عز وجل لم يخلق شيئا من جميع أفعالهم، ولو خلقها لكان شريكاً لهم، وإذا كان لهم في شيء من أفعالهم، قلّ أو كثر، شريكاً لم يكن إلهاً، ولزمه من الجور والظلم، والخروج من الحكمة والعدل، في عذاب مَن خلق فعله، ما يلزم الجائرين.

ودليل ذلك أنا نقول لك: هل يعذب الله عز وجل داود عليه السلام في عمل الدروع التي قلت، أو يعيب ذلك عليه؟! وهل سمعته قال: لِمَ فعلت ولم عملت الدروع؟! وإنما أخبر أنه علّمه صنعة الدروع، ولم يخبرنا أنه هو الذي خلق الدروع.

وكذلك آدم صلى الله عليه لم يعذبه الله عز وجل في حوك الثياب، ولا الحرث، ولا فيما عمل من الصناعات.

ولا قال لنوح صلى الله عليه قولَ تعنيف في عمل السفينة، ولا عذّبه على عملها، ولا سمعته في شيء من كتابه قال لمؤمن ولا لكافر: لِمَ عملتم الدروع؟ ولم عملتم الأكنان في الجبال؟ ولم عملتم الآلات؟ إلا أن يعملوها لباطل أو معصية لله جل ثناؤه، فهناك يقع التعنيف ويجب العذاب.

وإنما قال لهم عز وجل: لم كذبتم رسلي، وأعرضتم عن كتبي، وألحدتم في صفتي، وشبّهتموني بالجائرين؟! ولِمَ قتلتم أنبيائي والأئمة من خلفائي، والمؤمنين من أصفيائي؟ ولم كفرتم بي وعبدتم غيري؟ وخالفتم أمري ونهيي؟!

فهذا يوجب أن ليس لأجل خلقه لما خلق يعذب عباده، إنما يعذبهم لما خلقوه هم، وأتوه عامدين بأهوائهم وإرادتهم وحركاتهم. فهذا جوابنا لك على دعواك في خلق الكفر، الذي زعمت أن الله عز وجل خلقه وأراده.

وهذا ما لا مخرج لك منه، لأنا سألناك أن توجدنا شركاً[١] وكفراً وظلماً وفواحش مخلوقة، منها أخذ العبادُ ما عملوا، ومنها اكتسبوا ما به كفروا، كما أوجدتنا الحديد والقطن والخشب والأشياء المخلوقة الموجودة، التي احتججت بها علينا في مسألتك هذه.

ولن تجد شركاً ولا كفراً ولا فسقاً ولا فواحش أخذ منها العباد ما عملوا، ولا منها اكتسبوا ما به أحدثوا.

فلا سبيل لك إلى وجود ذلك أبداً، حتى تناول النجوم من أعنان السماء بكفّك، ولن يكون ذلك أبداً، وفي هذا بطلان قولك، ولزوم[٢] حجتنا لك، ووجوب النار عليك، إلا أن ترجع وتتوب عما قلت أنت ومن تبعك، والحمد لله رب العالمين.

وأما قولك: إن الله عز وجل الذي خلق الكفر والايمان، على وجه غير ما خلقه العباد عليه، وإن العباد - زعمت - يزنون ويسرقون، وهذا - زعمت - لا يجوز على الله، ولا نعلم أحداً اجترأ على ما اجترأت عليه، من هذا القول الفاحش الذي استخرجته[٣] من عقلك.

فنقول لك أيها الأعمى في دينه، والجاهل بربه، فقل أيضاً إنه قد يجوز أن يُرى على غير وجه الحقيقة، من المعاينة غير نظر الأعيان، ويُسمع على غير وجه (الحقيقة من المعاينة غير نظر الأعيان، ويسمع على غير وجه)[٤] من حقيقة السمع غير سمع

---

(١) في (ب): شريكا.

(٢) في (أ): ولزمك.

(٣) في (أ): استجزته.

(٤) سقط من (أ): ما بين القوسين. وفي (ب): غير وجهه. والصواب ما أثبت.

الآذان، وأنه تشاهده[1] الخليقة بالحواس [على غير وجه] من حقيقة المشاهدة، والحس المحسوس الذي يُعقل من غير حس ولا مشاهدة[2]، وكل هذا محال لا يجوز، كما استحال ما قلت.

وأخبرنا ما الفرق بين قولك هذا الذي ضاهيت فيه قول النسطورية من النصاى وبين قولهم، إذ زعمت النسطورية أن عيسى صلى الله عليه ابن الله على معنى – زعموا – غير معنى الولادة.

فنقول لك: هل يلزم النسطورية بهذا القول كفر أم لا؟!

فإن قلت: إنه يلزمهم الكفر بهذا القول، لزمك مثله، لأنك زعمت أن الله عز وجل فعل الزنا والسرقة على وجه غير ما فعله العباد.

وإن قلت: إنه لا يلزم النسطورية بهذا القول كفر، خرجت من قول أهل الصلاة، وفارقت أهل الاسلام.

وإن قلت: إنه يلزمهم بهذا القول الكفر، لزمك مثله سواء، لأنهم جاؤوا بكلام محال، وجئت بكلام محال مثله، لا فرق بينهما في وجه من الوجوه.

وقد قال علي بن الحسين رحمة الله عليه: «ليس في محال القول حجة، ولا في المسألة عنه جواب»، فقد أعظمت الفرية بقولك هذا على خالقك، فلا يبعد الله إلا من ظلم، وكيف يلزم خالق الزنا والسرقة وجميع المعاصي عيبُ ما خلق؟!

وكيف لا يفسد قوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]؟!

فإن قلت: إنه لا يلزمه عيب ما خلق.

---

(١) في (ب): شاهد.

(٢) في (أ): ومشاهدة.

قلنا لك: وكذلك لا يلحقه[١] حمد ما خلق.

فإن قلت ذلك، خرجت من الاسلام، ومن قوله: ﴿اشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ [البقرة]. وكيفما قلت لزمك فيه الكلام حتى ترجع إلى الحق، فتقول: إن الله عز وجل لم يخلق شيئاً من جميع ما افتريته عليه فنفلجك.

ثم نسألك فنقول لك: هل العقول المركبة فينا تدلّنا على غير الحق أنه حق؟ وعلى غير الباطل أنه باطل؟

فإن قلت: نعم، إن الأشياء تخالف العقول، وإن العقول لا تميّز الحسن من القبيح، ولا الحق من الباطل، خرجت من حدّ مَن يُكلَّم، وأكذبك جميع الخلق، لأنك يلزمك إن قلت بهذا، أن العقول لا تميّز الليل من النهار، ولا القحط من الأمطار، ولا الظلمة من الأنوار، ولا السَّوام من الأشجار، ولا غير ذلك مما تحوي الأقطار.

وإن قلت: لا يجوز ذلك أن تستحيل الأشياء في العقول، وتقلب على غير وجوهها حتى لا تميزها العقول، لزمك أن الذي قلت باطل وكفرٌ، من أنه يخلق الزنا على معنى غير الزنا، والسرقة على معنى غير السرقة. وفي هذا كفاية، والحمد لله رب العالمين.

ثم نقول لك: أليس تقر لنا أن لله عز وجل (الأسماء الحسنى؟

فإن قلت: نعم.

قلنا لك: أفليس قد افترض الله عز وجل)[٢] أن ندعوه بأسمائه الحسنى، حيث قال: ﴿وَللهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؟

---

(١) في (أ): يلزمك يلحقه.

(٢) سقط من (أ): ما بين القوسين. سهواً.

فإذا قلت: نعم.

قلنا لك: فهل يجوز لنا ولك أن ندعو الله[1] عز وجل فنقول له: يا خالق الكفر والشرك، والزنا واللواط، والأشعار والغناء، وجميع المعاصي اغفر لنا.

فإن قلت: نعم، ذلك جائز أن يُدعَا به.

قلنا لك: فما الفرق بين الأسماء الحسنى، والأسماء القبيحة، حتى نعرف بعضها من بعض؟!

فإن قلت: إن هذه الأسماء التي ذكرنا حسنة جميلة، لا عيب في الدعاء بها، لزمك أن الزنا والشرك والكفر، وجميع الفواحش والمعاصي كل ذلك حسن جميل لا عيب فيه، ولا عيب على من دعا الله عز وجل به، وسمّاه: خالقاً له.

وإن قلت: إن هذا الدعاء لا يليق بالله - عز وجل[2] عما قلتم - وأنه لا يجوز أن يدعا به، لقبحه وشناعته وكذب من دعا به. لزمك أن حجتك علنيا فيه كاذبة، باطلة فاضحة، وأنك مبطل في قولك: إن الكفر والمعاصي كلها خلق الله - عز وجل عما قلت، وافتريت أنت ومن تبعك على مقالتك - وكفى بهذا كفراً وصدوداً عن القرآن أن يضاف إلى الله جل ثناؤه ما برئ منه، وعنّف فيه إبليس وجنوده، وأوجب لهم على اتيانه النار التي لا تطفأ، ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)﴾ [المؤمنون] !!

وأما قولك: إن الله عز وجل خلق الأسماء كلها، فالرد عليك أنا نقول لك: أخبرنا عن اسم محمد صلى الله عليه، هل هو المعنيّ في خلق الله عز وجل له؟!

ولما قالت قريش من تسميتها النبي صلى الله عليه أنه: مذمَّم، فالله عز وجل قد سماه: محمداً وأحمد، وسمّته قريش: مذمماً، فقال صلى الله عليه: «ألا ترون إلى نصر

---

(١) سقط من (أ): الله.

(٢) في (ب): جل ثناؤه.

الله عز وجل لي على قريش، حين سمّوني: مذمّما ويلعنون مذمما، وأنا محمد».

فنقول لك: إذا كان الله عز وجل هو الذي خلق اسم محمد، وخلق اسم مذمم، أي عيب على قريش في قولها لمحمد عليه السلام إنه مذمم؟!

وكلاهما خلق الله عز وجل (وحد المسلمون الله – زعمتم – قد سماه: محمداً فسموه بذلك، ووجد المشركون الله عز وجل)[1] – زعمتم – قد سماه: مذمماً فسموه بذلك، فماذا عليهم والله الخالق زعمتم[2] للاسمين، والفاعل للقولين، والمريد للمعنيين؟!

فإنكم تنقطعون هاهنا ولا تجدون حجة تدفعوننا بها. إلا أن تجسروا[3] فتزعموا أن الله[4] عز وجل هو الذي سمَّى رسوله صلى الله عليه: مذمّما، فيبين جهلكم وكفركم لجميع من صلى القبلة، وكفى بهذا جهلاً وخروجاً من الحق !!

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادي: ثم سلهم عن الأصنام من خلقها وجعلها أصناما؟

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: نحن نقول: هل خلقها أصناماً وأوثاناً وأنصاباً فسماها بذلك الاسم؟! وكان ذلك الاسم تُدعَا به، وتعرف به قبل أن يعبدها مَن نحتها، وجعلها صوراً من المشركين في الزمان الأول، وفي زمان قيدار بن إسماعيل؟

فإن قلت: إن ذلك كان اسم الحجارة، تعرف في العرب قبل ابتداع مَن ابتدعها،

---

(١) سقط من (أ): ما بين القوسين.

(٢) سقط من (أ): زعمتم.

(٣) أي: تقدموا.

(٤) سقط من (أ): الله.

وعبادة مَن عبدها. أكذبك جميع الخلق وشهدوا على بطلان قولك، لأنها لم تزل تعرف بأن اسمها: حجارة وصخر وصفوان وصفا، وغير ذلك من الأسماء.

فلما نحتها الكفار بأيديهم، وصوروها[1] بحركاتهم، وسمَّوها أصناماً وأوثاناً، وسموها بالأسماء المحدثة، منها: اللات والعُزى، ومناة الثالثة الأخرى، وأساف ونائلة، ويغوث ويعوق ونسر، وغير ذلك، وهي التي ذكرها الله عز وجل في كتابه، وعنّفهم على اتخاذها وتسميتها، مما دل على براءته من خلق ما خلقوا فيها، من التقدير والتصوير، والخرط والنحت، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)﴾ [النجم].

كأنك - يا لك الويل - لم تسمع هذا القول في[2] كتاب الله قط ! ولم يخطر لك على بال ! حين زعمت أن الله عز وجل خلق (الأصنام، وذهبت بجهلك إلى قوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [الصافات]، وإنما عنى بهذه الآية: أنه خلق)[3] الحجارة وجميع الأشياء التي عُملت منها الأصنام، إذ لا خالق للأصل غيره، وإنما وقع العيب والتعنيف عليهم في نحتها وتقديرها، وتصويرها وعبادتها، لا غير ذلك.

وقوله: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللهِ أَنصَارًا (٢٥)﴾ [نوح].

---

(١) في (أ): وصورها.

(٢) سقط من (أ): في.

(٣) سقط من (أ): ما بين القوسين. سهواً.

أفلا تسمع أيها المغرور إلى قوله عز وجل: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾، ولم يقل: إنهم أُدخلوا النار بخلقه لفعلهم ! فسبحان الله العظيم ما أجهلك وأجهل من أصغى إلى قولك !! ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ [الشعراء]، ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١)﴾ [طه].

فاسمع إلى تفسير الفرية، فلو كان الله عز وجل هو الذي خلق الفرية – كما زعمت – للزمه أنه قد خاب، عزّ وتعالى عن ذلك !! لقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾، لأن من خلق الكذب فهو كاذب، وكذلك قال عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾ [الشمس]، (فلو كان الله عز وجل هو الذي دساها، للزمه أنه شتم نفسه وخيبها، حيث قال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾)[1]، ولا تدسية أعظم من الكفر!

وقد زعمت أنه أراد منهم الكفر وخَلَقَه، وخلْقه – زعمت – فعلُه وصنعُه، فيلزمك في هذه الآية أنه دسّاهم بالكفر، وأنه يلزمه أنه قد خاب من دساها.

وبالله لو لم يكن لنا في القرآن غير هذه الآية، لكانت كافية قاطعة لكل مجبر على وجه الأرض، ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨)﴾ [هود].

ثم قال عبد الله بن يزيد البغداذي: ثم سلهم عن وجه ما وضعوا مما أخطأوا فيه تأويل قدرة الله عز وجل، فإنهم عابوا علينا أن قلنا: إن كل شيء أخبرنا الله به أنه لا يكون أو يكون، فإنه لا يجوز على الله عز وجل أن يقول: إنه إن شاء كان، على وجه [أنه] إن شاء كان ما يجهل وما لا يعلمه[2]، لأنا متى قلنا ذلك، قلنا: لا ندري لعل

(١) سقط من (أ): ما بين القوسين.

(٢) العبارة غير واضحة المعنى.

الله إن شاء قال الباطل، تعالى الله ربنا وتبارك، لقد حمَلَنا أهلُ البدع على أن تكلمنا بكل قبيح ما يُدخِل عليهم هم في كلامهم، مع أن الله تبارك وتعالى قد وصفه بعض الكفار، فقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، فوصف كذبهم.

ولولا ذلك ما وصفنا كذبهم، لأنا متى قلنا: إن القيامة إن شاء الله لم يُقِمها، قلنا: إن الله كذب. وإن قلنا: إن الله إن شاء لم يفعل [ما وعد]، قلنا: إن شاء الله أخلف الميعاد، ولا يجوز على الله هذا، إلا أن يشاء أن يكون غير ما علم أنه يكون، ولا يشاء أن يخلف وعده، ولا يشاء أن يتخذ الولد، ولا يشاء أن يتخذ معه إلهاً، تبارك وتعالى !! لا يجوز على الله هذا

الكلام في قول العدل، إنما يشاء أن يكون ما علم أنه يكون، ولا يشاء أن ينقص ملكه، ولا يشاء أن يغيّر صفته، تعالى عن ذلك علوا كبيرا !!

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: زعمت أنَّا وضعنا خطأ أخطأنا فيه تأويل قدرة الله عز وجل، بأنا عبنا عليكم – زعمت – أن كل شيء أخبر الله عز وجل منه أنه لا يكون أو يكون، فإنه لا يجوز على الله عز وجل أن نقول: إنه إن شاء كان، على وجه أنه إن شاء كان ما يجهل وما[1] [لا] يعلم.

وقد فهمنا هذا القول من أوله إلى آخره، فأجزانا ذلك عن إعادة قولك، لأنك إنما مدارك على الفرية على الله عز وجل، وعلى إبطال كتابه، وعلى إبطال أمره لخلقه بالايمان، والرجوع عن الخطأ، والتوبة عن الكفر والظلم، واجتهاد رسله في دعاء الكفار، إلى أن لا يعلم الله عز وجل منهم الكفر، وأن يَدَعوا الكفر والشرك، ويرجعوا إلى الايمان والهدى والطاعة.

---

(١) سقط من (ب): ما.

وإنك[1] إنما تريد في قولك: إن من علم الله منه الكفر، أنه ليس له حيلة في الرجوع إلى الايمان بوجه من الوجوه -زعمت- لأن ذلك العلم الذي علمه الله عز وجل عندك هو الحائل بنيهم وبين الايمان - زعمت - وهذا كفر غلطت فيه، وخالفت القرآن، وجهلت كيف العلم به، ولم يبلغه عقلك. وذلك أن المجبرة أنزلوا العلم بمنزلة الشيء المانع الدافع لهم، الحائل بينهم وبين طاعة الله عز وجل، فالتوبة عن خطأهم، وتركهم قوله جل ثناؤه، بعدما علم أن القاسطين يكونون[2] لجهنم حطباً.

فأخبر تبارك وتعالى أن علمه ليس هو المانع ولا الحائل دون الاستقامة على طريق الهدى، وأنهم إنما هلكوا وصاروا حطباً لجهنم باختيارهم واتباع أهوائهم، لا بعلمه عز وجل الذي قلت: إنه حال بينهم وبين الطاعة. فقال جل ثناؤه: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا (١٨)﴾ [الجن].

وقد أعلمنَاكَ أن تأويل الفتنة في القرآن يخرج على عشرة وجوه في كتاب الله، والله عز وجل لا يفتن المستقيمين، ولا يُضل المطيعين، لأنه عز وجل إنما أخبرنا أنه لو استقاموا على الطريقة، لأحسن إليهم وأسكنهم جنته، ولم يخبرنا أنهم إن استقاموا فتنهم، على جهة ما ذهبتم إليه من الإغواء.

ألا ترى أنهم لو استقاموا على الطريقة، لم يعلم منهم الكفر الذي صيرهم به حطباً لجهنم، وأنهم لو أرادوا الهدى لم يعلم الله عز وجل منهم الكفر.

والشاهد على ذلك لنا، أن الله عز وجل إنما افترض على الخلق الخروج من

---

(١) في (ب): إنك.

(٢) في (ب): كانوا.

الكفر، ولم يفترض عليهم الخروج من العلم، ولو كان الأمر على ما ذَهَبَتْ إليه عقولكم الصدئة، لم يجز للحكيم العادل، الذي لا يظلم أن يقول: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠)﴾ [الانشقاق]، ويقول: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤)﴾ [النساء].

وليس في القرآن من أوله إلى آخره آية واحدة، تشهد لكم على أن علم الله عز وجل هو الذي منع الناس عن الايمان، وحال بينهم وبين الطاعة، ولا حملهم على الكفر. فإن وجدتم آية واحدة تشهد لكم بذلك، فالقول قولكم، أو وجدتم آية توجب أن الله عز وجل قال لأحد من خلقه من الأولين والآخرين: ادخلوا النار بما علمت منكم، وادخلوا الجنة بما علمت منكم. لأنه جل وعز إنما يعاقب ويثيب على الأعمال، لا على علمه بالأعمال.

وقد أجبناك في العلم في أول كتابنا بما فيه الكفاية، إلا أنك تكرر مسائلك فلا نجد بدًّا من أن نكرر ما قد انقضى فيه الجواب، لأن لا تعتلق علينا بحجة، أو تقول: قد تركوا بعض مسائلي.

وأما قولك: إن الله عز وجل لو شاء لفعل ما لا يجوز فعله، من أن لا تكون القيامة، وأن يتخذ الولد، وأن يُخلف الوعد، وأن يبدل القول، فهذا كله قولكم أنتم، وهو لازم لكم. وليس أهل العدل والتوحيد يقولون هذا القول، هم أعرف بتوحيد الله سبحانه وأقوم بعدله، من أن يقال لهم هذا القول، أو نُسِب[1] إليهم، بل هذه صفتكم أنتم، وصفة إخوانكم الأشقياء، المجبرة الجهلاء.

وأما قولك: إن أهل البدع حملوك على أن تكلم بما لا تريد، ونحن نقول على

(١) في (أ): وينسب.

أهل البدع لعنة الله ولعنة اللاعنين، وكيف يكون أهل البدع من قام بالقرآن، وعرف تأويله وتنزيله، ومحكمه ومتشابهه، وأخذ الحق من معادنه، الذين قال الله عز وجل: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]، وقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

ثم نقول: أأنت أعرف بعدل الله، أم موسى صلى الله عليه؟!

فإن قلت: إنك أعرف من موسى، كفرت.

وإن قلت: إن موسى صلى الله عليه أقوم بعدل الله منك، وأعرف بدينه، فما تقول في موسى صلى الله عليه لما قتل القبطيّ، ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥)﴾ [القصص]، ولم يقل: هذا من قضاء الله عز وجل وإرادته ! يجب في هذا القول أنك أعلم من موسى صلى الله عليه، وأقوم بعدل الله عز وجل !!

وكذلك قال الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبأ: ٥٠].

وقال يعقوب صلى الله عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾ [يوسف].

أو لا ترى أن الله عز وجل قد نفى عن الأنبياء صلوات الله عليهم ما ألزمته، وأن ليس واحد منهم أضاف ذنبه إلى خالقه كما أضفت.

وأما قولك: إنا أخطأنا في صفة قدرة الله، وليس القول كما قلت، ولكنا نقول: إن الله عز وجل قد صدق في قوله، ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣]، وما أشبه هذه الآيات في القرآن.

فإن كان ذلك إنما دلّنا به على إثبات قدرته، وأنه لو شاء لحال بين الكفار وبين

الكفر، حتى لا يقدرون على فعله، بالجبر منه لهم والقهر، ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً، أي: جبراً وقسراً، ولا يرسل إليهم الرسل، ولا ينزل عليهم الكتب، ولكن لم يكن ذلك من حكمته، وإنما أخبرنا بقدرته على ذلك وأنه لا يفعله، حتى يروا أنهم إنما فعلوا ما فعلوا من المعاصي، عن غير غلبة له عز وجل، ولا ضعف كان منه عنهم.

فأما قوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)﴾ [السجدة]، فإن المجبرة يتعلقون بهذه الآية، ثم لا يقرأون ما بعدها، وهو قوله عز وجل: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾ [السجدة]، فصحّ أنه بما كسبوا، لا بفعل الله عز وجل، ولا بإرادته لمعصيتهم، مع أن هذه الآية إنما حكمها من أحكام الآخرة، وليست من أحكام الدنيا.

ألا ترى كيف قال عز وجل، وعنى أن المخاطبة في الآخرة لا في الدنيا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)﴾، يعني: ممن عصى في الدنيا وخالف أمره، ثم قال بعد هذا: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾، فصحّ أنه في الآخرة تكون هذه المخاطبة، والعدل في الآية قائم بنفسه، لا جبر فيه لا قسر، ولا فرج للمحد مجبر، والحمد لله رب العالمين.

وأما قولك: إنه يلزمنا أنا نقول: إن الله عز وجل لو شاء لم يكن ربًّا، وإنه لو شاء لظهر للناس، وما قد ذهبتَ به في هذا الموضع من الخطأ والتخليط، فأهل العدل أعلم بالله عز وجل وتوحيده الذي أنت به جاهل، فلن يقولوا مثل ما قلت، وإنما يجب عليك لو استعملت الأدب والحكمة أن تخاطبنا بما قلنا. فأما ما ليس هو من قولنا، فَلِمَ تكرره وتكثر فيه الكلام؟!!

ولكن وجدت جهّالاً لا يميزون عليك قولك، وقلدوك أمر دينهم فأهلكتهم،

فلا يبعد الله إلا من ظلم. وهيهات شَرُفَ الحق وعظم قدره وقدر أهله، من أن تخطفه أيدي الباطل، أو يفتاتوا[١] على أهله بحجة، ((فاربع على ظَلَعك))[٢]، و ((قِسْ شبرك بفترك))[٣]، واخرج مما قلنا، وافهم ما به أجبنا، وادع من استطعت من أهل الجبر، فإنكم لا تقومون بحجة واحدة من هذا الكتاب، ولا تقدرون لها على دفع ولا نقض، بحول الله وقوته.

وهذا قول مُدلّ[٤] واثق بفلجه، لأن دين الله عز وجل لا تقوم له الجبال، وما كان من الله عز وجل فلن يُغلب أبداً، وغيره دين الشيطان، ودين الشيطان إلى البوار والدمار والدبار والخسران، فلا يقوم الباطل للحق أبداً.

وسألت عن أم موسى صلى الله عليه وعن فرعون لعنه الله، وقد أعدتَ هذه المسألة، وقد مضى جوابنا لك في هذا الكتاب بما فيه الكفاية.

وذكرت الاستطاعة في قتل موسى صلى الله عليه، وقد أجبناك أيضاً في باب الاستطاعة بما فيه الكفاية، وأوضح البرهان، وما لا يقدر له أحد من المجبرة ولا غيرهم على نقض أبداً.

ونحن نقول لك في الاستطاعة أيضاً: أخبرنا هل افترض الله عز وجل على الناس عندما بعث إليهم محمداً صلوات الله عليه وعلى آله أن يقولوا: لا إله إلا الله، وأن يقرُّوا أن محمداً رسول الله؟

---

(١) الإفتتات: الاختلاف.

(٢) مَثَلٌ مشهور، معناه: تكلف ما تطيق. يضرب لمن يتوعد فيقال له: لا تجاوز حدك في وعيدك، وأبصر نقصك وعجزك عنه. مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤١٠.

(٣) هذا مَثَلٌ عربي بمعنى المثل السابق، والفِتر ما بين طرف الإبهام وطرف المشيرة من الأصابع، والشبر معروف.

(٤) المدل مأخوذ من الدل، وهو السكينة والوقار.

فإذا قلت: نعم.

قلنا لك: فأخبرنا هل افترض الله عز وجل عليهم من ذلك ما يقدرون عليه ويمكنهم، أم ما لا يقدرون عليه ولا يمكنهم؟

فإن قلت: إن الله عز وجل افترض عليهم أمراً لا يقدرون عليه ولا يمكنهم، لزمك أنه افترض عليهم ما لم يجعل لهم السبيل إليه ولا المقدرة، وأنه قد أبطل في قوله في كتابه، ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)﴾ [البلد]، أي: عرّفناه طريق الخير والشر، والحق والباطل، ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥)﴾ [البلد]. فأي دلالة إلى السبيل أعظم من هذه الدلالة؟! ويكفيك أيضاً قوله عز وجل: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، و﴿إِلَّا مَا آتَاهَا﴾[الطلاق: ٧].

وإن قلت: إن الله عز وجل افترض عليهم أمراً يقدرون على اتباعه وفعله ويمكنهم، بطلت دعواك في الاستطاعة أنها مع الفعل، ولزمك أن الاستطاعة قبل الفعل، ولولا ذلك لما افترض الله عليهم أمراً لا يقدرون عليه، من قبل أن تقع استطاعتهم فيه مع فعلهم، فيلزم أنه يكلّف الفروض قبل وجود الاستطاعة، وهذا ما لا يجوز في عدل ولا حق، ولا حكمة ولا عقل، وهذه وحدها تكفي من عقل.



[شبهة في قوله: ﴿مَن اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾]

ثم قال عبد الله بن يزيد البغداذي: ثم سلهم عن قول الله عز وجل: ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾ [آل عمران]، فقل: أخبرونا ما الحج عندكم؟ أليس هو الطواف بالبيت، والموقف في عرفات والمشعر، وقضاء تلك المناسك بمكة وبمنى؟!

فإن قالوا: بلى.

فقل: أخبروني عمن له مائة ألف دينار وألف جمل، وأشباه ذلك، وهو صحيح يستطيع الحج، وهو بالبصرة أو بخراسان أو ببلد من البلدان ناحية[1] عن تلك المواقف والمشاهد.

فإن قالوا: نعم.

فقل: أفليس يستطيع الطواف بالبيت، ووقوفاً في تلك المواقف، وهو مقيم في بلده لا يأتي مكة ولا يقربها، أفليس قد يستطيع الطواف بالبيت وهو مقيم ببلده ولم يذهب، فيكون مقيماً بخراسان؟!

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: زعمت أنه لا يكون حج الرجل، ولا يستطيع أن يطوف بالبيت، ولا يأتي جميع المناسك وهو في بلده، وكذلك لا يجوز في غيره من أهل خراسان ولا العراق ولا مصر، ولا غيرها من البلدان، تريد بذلك – زعمت – أن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل، وذلك خطأ منك وجهل بالاستطاعة كيف هي؟

(١) الناحية: البعيد.

وقلت: هل يستطيع من بالبصرة ومن بالكوفة وغيرهم أن يحجوا وهم في بلدانهم؟

ونحن نقول: إن الله جل ثناؤه لم يفرض الحج على من بالبصرة، ولا على من بالكوفة، ولا غيرهم، أن يحجوا وهم في بلدانهم.

ولكنا نسألك: هل يستطيع من بالبصرة ومن بالكوفة ومن بخراسان أن يقوم الرجل منهم فيرمي بالحجارة إلى رأس نخله[1]، وإلى رأس جداره، ويطوف ببيته أشواطاً، ويحلق رأسه، ويشرب في بئره التي في داره، ويفعل ما أراد، من مجيء أو ذهاب، أو تكبير أو تهليل، أو قول أو عمل، أو ذبيحة؟

فإن قلت: لا يقدر على ذلك أحد من أهل هذه البلدان التي سميت، أكذبك جميع الناس، وخرجت من حد من يُكلَّم، وبان جهلك.

وإن قلت: نعم، هم يقدرون على ما ذكرتم هم وغيرهم من أهل البلدان.

قلنا لك: فتلك هي الاستطاعة التي هي مركبة في الآدمي، بها يعمل جميع المناسك إذا صار إلى مكة.

فإن قلت: إن الاستطاعة منه لا تكون إلا مع فعله، لزمك لنا أنك قد أقررت أن الاستطاعة قد كانت موجودة فيه في بلده، وإنما عليه المسير والمسافرة، حتى يؤدي المناسك وفروض الحج، بالاستطاعة التي أقررت أنها موجودة فيه قبل أن يخرج من بلده، وقد قطعناك في الاستطاعة بما قد شرحناه في صدر كتابنا هذا، بما كان فيه الكفاية، غير أنَّا لا نجد بدًّا كلما أعدت مسألة أن نعيد الجواب فيها.

وأما قولك لنا: هل يستطيع العباد الكفر والايمان جميعا؟

---

(١) في (أ): نخلة. مصحفة.

فجوابنا: أن هذا قول محال، لأنه لا يجوز أن يكون القائم قاعداً، ولا القاعد قائماً في حالة واحدة، ولكنا نقول: إن العباد يستطيعون أن لا يؤمنوا، ويستطيعون أن لا يكفروا، وإن دخلوا في الايمان وقبلوه ودانوا به، استطاعوا بعد ذلك الخروج منه إن أرادوا، لأنك تعلم كيف حكم الاسلام في المرتدّ، وهذا أكبر دليل على أن المؤمن يقدر أن يرتدّ، وكذلك إذا دخل العباد في الشرك واعتقدوه، استطاعوا بعد ذلك[1] تركه والخروج منه إلى الايمان.

وهذا مُشاهَد معروف لا ينكره أحد، أن المؤمن إذا شاء كفر، وأن الكافر إذا شاء آمن، وليس [كذلك] قولك: إن من عَلِم الله عز وجل منه الكفر لا يستطيع الايمان، هذا القول الذي قلت لا يجوز، لأنه نفس الجبر الذي هو دينك ودين إخوانك، وليس هو دين الله عز وجل.

والشاهدُ على بطلان دعواك، قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤)﴾ [النساء]، وقوله في المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ (٧٧)﴾ [التوبة].

أَفَتُرَاك ويحك ما تدبرت هذه الآيات قط، ولا أفكرت فيها، و[لا استمعت] إلى برهان عدل الله جل ثناؤه، وبراءته من ذنوب الظالمين !! وكأنك ما رأيت ولا سمعت بكافر أسلم، ولا بمؤمن ارتدّ عن الاسلام، ولم تسمع بحكم المرتدّ، ولا بذكره في القرآن، ولا قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ

---

(١) في (أ): استطاعه تركه.

فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. فذكر عز وجل أنهم يرتدّون باختيارهم، ويؤمنون باختيارهم، لا جبراً ولا قسراً.

ومن الحجة في قولكم: إن الله عز وجل خلق بعض الناس كافراً، وبعضهم مؤمنا، وهذا أعظم الفرية على الله جل ثناؤه، وأوضحه ردًّا لكتابه!!

فنقول لك عند ذلك: أخبرنا عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧]، ما يريد بهذا القول، وما هذه الزيادة التي ذكر أنها مزيودة في الكفر، هل تلك الزيادة منه زادها في الكفر، أم هي من الكفار زادوها هم في الكفر؟

فإن قلت: إن الله عز وجل زادها في الكفر.

قلنا لك: فأخبرنا عن خلقه لهذه الزيادة التي زادها في الكفر – زعمت – بعدما خلق الله الكفر – عزّ الله عما قلت – كيف هي وما صورتها؟ وأين المقدار الذي بان لك منها في الزيادة في نفس الكفر؟ وهل هي موجودة أم لا؟

فإن قلت: إنها موجودة محدودة من قبل زيادتها في الكفر، لزمك أن تُعرفنا بها حتى نعرفها، كما عرفتها بعينها وحدودها.

وإن قلت: إنها ما زاد الكفار في الشهور وما أحدثوا، لزمك أنها فعلُ الكفار لا فعل الله عز وجل، إذ لم تأت على تلك الزيادة ببينة، لا حجة تعرف، ولا جسم يحسّ، وأنهم هم زادوها في كفرهم، أي: أحدثوا إلى الكفر كفراً، وذلك هو الحق.

وإن قلت: إنها فعلُ الله عز وجل وخلقُه، لزمك أن ليس لله جل ثناؤه بين السماوات والأرض إلا فعل يدرك ويحس، ويعرف بعينه وحدوده، ويبين بنفسه عن فعل بني آدم.

وإن قلت: إنه لا يدرك ولا يحس ولا يعرف، لزمك أنه بصفة الواحد الذي

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولا تقع عليه الحواس.

لأن الله عز وجل أخبر نبيه صلى الله عليه عما أحدثت بنو كنانة بن مدركة في الشهور، حتى كانوا يرون الحج عاماً في ذي الحجة، وعاماً في المحرّم، فقال الله عز وجل يخبر نبيه صلى الله عليه أن ذلك فعلهم لا فعله، فقال: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللهُ﴾ [التوبة: ٣٧].

فلو كان هذا فعله ما عنَّفهم عليه، ولا عجّب نبيه صلى الله عليه عنهم، ولا أضاف ذلك الفعل إليهم !! فيلزمه أنه قد دخل فيما عاب، لقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢)﴾ [النساء].

فصح وثبت أن النسيء الزائد في الكفر هو فعلهم الذي زادوه من الكفر في الكفر، لأن الكافر يمكنه الزيادة في ظلمه وفجوره وكفره، كما يمكن المؤمن الزيادة في إيمانه، لما يكسب من الخيرات والمسارعة في طلب الدرجات.

وذلك كله فعل العباد، لا فعل الله عز وجل. وقد وجدنا العرب قد أقرت بذلك الذي زادت من النسيء، وتشرفت به، وفخرت بفعله على غيرها من العرب في الجاهلية. وأنتم أيها المجبرة تعذرونهم، وتُلزمون الله عز وجل فعلهم، وهم يفتخرون بذلك، ويضيفون فعلهم إلى أنفسهم لا إلى خالقهم. قال شاعرهم:

ألـيس النسـيُ سُـنَّتنا علـيكم ... بـدعنَاهُ ونحـنُ المبـدعونا
جعلنـا الحـجَّ في وقتـين لَّمـا ... مَلَكنـا النـاس طُـرا خاضـعينا[1]

أفلا تراه كيف أضاف فعل النسيء إليهم، أنهم هم أبدعوه وسنّوه للناس، وأن الله عز وجل لم يسنّه ولم يُبدِعْه، وأنه جل ثناؤه بريء منه.

(١) لم أقف عليهما.

وقال الكميت بن زيد الأسدي رحمه الله في الاسلام، يذكر النسيء ما كان من فعل عمير[١] بن يحيى الكناني:

ونحن النَّاسِئُون على معدٍّ ... شُهورهمُ الحرامَ إلى الحليل[٢]

أفلا تراه يذكر أنهم هم الذي فعلوا النسيء، وأن الله عز وجل لم يفعله، وأنه تبارك وتعالى قد أوضح في كتابه أنه بريء من ذلك النسيء، وأنهم هم الذين أبدعوه، ولذلك حرّمه وأبطله، وعاب على فاعله وذمَّه، وأمر نبيه صلى الله عليه بالحج المستقيم، والحق الذي هو خلاف النسيء. وأنت تزعم أن الله عز وجل أراد كفر الكافر وخلقه، وقضاه وقدّره، عزّ الله وجل عما قلت، وعلا علوا كبيرا !!

ألا تسمع إليه كيف يقول عز وجل: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللهُ﴾ [التوبة: ٣٧]، أفلا تسمعه عز وجل يخبر بمضادتهم له، ومخالفتهم إرادته، أهذا قول من فعل فعلهم، أو قول من قدّره عليهم، سبحان الله العظيم، ما أعظم ما قلتم، وأبين جهلكم وفريتكم عليه، عزّ الله عن ذلك، وعلا علوا كبيرا !!

ثم قال جل ثناؤه: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)﴾ [النساء]. أهذا قول من جعلهم كفاراً. ثم قال عز وجل: ﴿لاَّ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾[النساء: ١٤٨]. فهل رأيت حكيماً قط فعل فعلاً، وهو لا يريد ذلك الفعل؟! كأنك لم تسمعه عز وجل حيث يقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣)﴾ [محمد] !!

---

(١) في (ب): عمر.

(٢) البيت للكميت، ورد في ديوانه هكذا: وكنا الناسئين...

أفلا ترى أيها الهالك في دينه، المفتري على ربه، أن الفريقين جميعاً هما اللذان اتبعا ما أرادا وما اختارا لأنفسهما، وحكى الله عز وجل ذلك عنهما، ولم يقل في نفسه جل ثناؤه أنه جعلهما على تينك المنزلتين، ولا قدّر عليهما تينك الحالتين، إلا الأمر والنهي، قدوس قدوس، رب الملائكة والروح !!

ونحن نسألك فنقول: أخبرنا عن رجل سرق من صندوق رجل مائة دينار، فلما صار بها في بعض الطريق، سقط منها خمسون ديناراً، فلما أصبح ظفر به وأخذه، فقال الرجل له: أين الدنانير؟ قال: ضاعت مني ولم يبق معي إلا هذه الخمسون الباقية، فجاء به الرجل إلى قاضيكم، فاستعدى عليه وطالبه بالمائة الدينار كلها. فقال الرجل السارق: إن الله عز وجل هو الذي قضى عليّ بسرقة هذه الدنانير، وهو الذي أذهب نصفها، وهو الذي ترك معي نصفها، وليس عليّ لوم.

فنقول لك: ما قولك فيما يقول قاضيكم في هذا الحكم، هل يُلزم الرجل السارق المائة كلها، أم يقبل منه الخمسين، ويُسقط عنه غرامة الخمسين الأخرى؟!

فإن قلت: يقبل منه، لزمك أن قاضيكم أعدل عندكم حكماً من الله عز وجل، الذي ألزم السارق المائة الدينار كلها، ولزمك أن قاضيكم قد حكم بخلاف النبي صلى الله، وبخلاف أحكام قضاة أهل الاسلام، مع ما يلزمك في قطع يده، وفريتك على ربك، وإلزامك له سرق السارق، وأنه خلق فعله وقضاه، وقدّره وأراده، ثم أمر بقطع يده.

وهكذا أخبرنا عز وجل عن عمل الشيطان بالانسان، حيث يقول: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الحشر]. فوصفتم الله عز وجل في الجور والظلم لعباده، بصفة الشيطان وما يفعل بحزبه الكافرين، سبحان الله العظيم، العليّ عن قولكم !!

وإن قلت: إن القاضي لا يسمع دعواه، ولا ينظر في حجته، وإنه يُغرمه الخمسين التي ضاعت منه، ولم يقبل قوله إن الله عز وجل هو الذي قضى عليه سرقة المائة الدينار.

قلنا لك: فكيف يجوز أن يغرمه وحده المائة الدينار، وقد صح له أنه قال: إن معه أحداً آخر أعانه على أخذ الدنانير، وقدّره على سرقتها، ولم يخلُ فعله من فعل الذي شايعه وقدّره عليه، وأراد منه ما صنع، وهو الفاعل لفعله، والمقدر عليه، والخالق لتلك السرقة، والمريد لها !!

فكيف يُلزمه قاضيكم المائة الدينار كلها؟! وقد صحّ له أن معه غيره، والواجب عليه في العدل أن يغرمه نصفها، ويغرم الذي صحّ عنده أنه غير بريء من فعل هذا السارق نصفها الآخر، لأن هذا هو العدل !!

فاختر أي ذلك شئت، فأيها ما قلت به سقطت دعواك، وبطلت حجتك، والحمد لله رب العالمين.

وقد قال الله عز وجل ما يشهد للعدل وظهور حجتنا على حجتكم، قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)﴾ [النور]. فلو كان الله عز وجل هو الذي أراد منهن الفجور وقضاه عليهن وخلقه من فعلهن، ما نهاهم عن إكراههن على[1] الفجور ! وكيف ينهاهم عن إكراههن على شيء قد أراده وقدّره وخلقه؟! سبحان الله العلي العظيم، ما أشنع هذا القول، وأفسد حجة من ادّعاه !!

وأما قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فقد جاء في التأويل أن ذلك يخرج على وجهين:

---

(١) في (أ): عن. مصحفة.

أما أحدهما: فإنه عز وجل يقول: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يعني: لمن كفّ عن إكراههن وتاب، فإنه يغفر له ما قد مضى من إكراههن إذا صحت توبته.

والوجه الآخر: فقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يعني: بهن، إذ[1] حملوهن من الإكراه على الفجور على ما لا يُرِدْنَ، والأول أحب الوجهين إلينا، والحمد لله رب العالمين.



(١) في (ب): إذا.

[شبهة هل كلف الله العباد أن يعلموا أنهم مخلوقون]

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادي: ثم سلهم هل كلّفكم الله تعالى أن تعلموا أنكم مخلوقون، وتعلموا أن الله خلقكم، ونهاكم أن تروا أنكم خالقون، أو تروا أن الله مخلوق؟

فإن قالوا: نعم.

فقل: أفليس تقدرون وتستطيعون أن تروا أنكم خلقتم السماوات والأرضين وما فيهن، وتقدرون وتستطيعون أن تروا أن ربكم دابّة من الدواب، وأنه مخلوق؟

فإن قالوا: نعم، فقد أعطوك أنهم يقدرون على ذلك، فما تريد بعد ذلك، وأي فرية أعظم من هذه الفرية، ومن أن يقول عبد: إني أقدر وأستطيع أن أرى أني خلقت كل شيء، حتى يكون ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]، وأرى أن خالقي عز وجل دابّة أو شجرة، وأني خلقته وصنعته؟!

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: جل الله وعز وتقدس عما قلت، وإليه من الفرية أضفت، فقد فهمنا ما ذكرت وقلت، ولسنا نقول ما قلت من القول الشنيع، فاسمع جواب مسألتك هذه، واصغِ إليها، فإنك قد أهلكت تبّاعك، وأفسدت عليهم دينهم، فلا يبعد الله إلا من ظلم. ونحن نقول فيها: إن الخلق كلهم[1] يقدرون ويستطيعون أن يقولوا في الله عز وجل من القول القبيح، والصفة الفاحشة الشنيعة ما ذكرت، لأن ذلك يمكنهم ويستطيعونه كما استطعتموه، من إلزامكم له شرك المشركين، وكفر الكافرين، وخلق زنا الزناة، وسرقة السارق، وغير ذلك من جميع المعاصي، فالخلق يقدرون على أن يقولوه قولاً بألسنتهم

(١) في (أ): كلها.

وأهوائهم، إن أحبوا ذلك لم يحل بينه وبينهم حائل، لما كان الأمر من الله سبحانه تخييراً لا جبراً. فافهم هذا القول.

فأما[١] أن يقدروا ويستطيعوا أن يروا في أنفسهم بالحقيقة أنهم خلقوا السماوات والأرضين، وأنهم خلقوا الأشياء التي ذكرتَ، وأن صانعهم دابة أو شجرة – زعمتَ – فهذا ما لا يجوز، ولا تقبله العقول، لأن عقولهم المركبة فيهم لا تدلّهم أبداً على أن يدّعوا فعلَ ما لم يفعلوا، إذا تركوا المكابرة، لأنه صحيح في عقولهم وعند أنفسهم بالحقيقة أنهم لم يفعلوا إلا ما فعلوا، فافهم هذا الباب.

ولكنهم يقدرون أن يقولوا: إنهم خلقوا السماوات والأرضين قولاً بألسنتهم، وهم يعلمون عند الصدق لعقولهم أنهم قد كذبوا وقالوا الباطل، للحقيقة المتقررة في أنفسهم أنهم يعجزون عن جميع ما ذكرت، فليس أحد يرى في نفسه إذا صَدَقَها أنه فعل أمراً لم يفعله.

فأما القول باللسان فهو يمكنهم، كما أمكنك أن قلت على الله عز وجل الفرية والكذب، واحتججت على أهل العدل بخلاف ما في كتابه.

وأما خلق الإفك، فذلك جائز أن يفعله أهل الإفك ويخلقوه، وخلقُهم له هو فعلُهم، وذلك جائز في لغة العرب[٢] أن يسموا صنعهم: خلقاً، وكل صانع لشيء فهو خالق له، ولذلك لم يجز على الله عز وجل خلق غيره ولا صنع غيره. وقال الكميت بن زيد:

أرادوا أن تُبـــــدِّل خالقـــــاتٌ ... أديمَهُـــــمُ يقســـــن ويفترينـــــا[٣]

---

(١) في (أ): وأما.

(٢) في (ب): اللغة العربية.

(٣) البيت للكميت، ورد في ديوانه هكذا:

أرادوا أن تزايـــــل خالقـــــات ... أديمهـــــم يقســـــن ويمترينـــــا

والخالقات عند العرب: النساء الدابغات للأُدم، وهنّ الفاريات للأُدم أيضاً.

وقال زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان بن أبي حارثة الغطفاني:

وأراك تفـري مـا خلقـت وبعـض القـوم يخلـقُ ثـم لا يفـري[١]

فهذا الشاهد من لغة العرب، والذي قلت فأمرٌ لا يجوز أن يرى العباد أنهم خلقوا ما لم يخلقوا، لأن هذا أمر يستحيل، وإذا استحالت الأشياء في عقول الخلق - كما وصفت - سقطت عنهم الحجة، لما دخل في العقول من الفساد.

فأما أن يقولوا قولاً بالمكابرة والظلم واتباع الهوى، وهم يعلمون عند أنفسهم غيره، وذلك[٢] الصحيح في عقولهم، فهذا ما لا يجوز غيره. فافهم ما قلنا، فإن الحق لا يشوبه الباطل.

ومن الحجة لنا عليك في أن العباد يستطيعون ويقدرون أن لا يعلم الله عز وجل منهم الكفر ولا الشرك، ولا شيئا من جميع الظلم، قوله لنبيه صلى الله عليه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فنقول لك: أخبرنا عن هذه الآية، أهي على الحقيقة من قول الله عز وجل أنه أرسل رسوله إلى الناس جميعاً، أم هي آية يجوز تأويلها عندكم أنها إلى بعض الناس دون بعض؟!

فإن قلت: نعم، إنه يجوز تأويلها[٣] إلى بعض الناس دون بعض، أَكْذَبَكَ جميع أهل القبلة من الفِرق كلها، وأكذبك الله عز وجل بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، والكافة في لغة العرب هي: العامة، للكل لا خصوص فيها.

ثم نقول لك: أخبرنا هل أراد رسول الله صلى الله عليه من الخلق كلها أن

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، ورد في ديوانه هكذا: فلأنت تفري...

(٢) في (ب): فذلك.

(٣) في (أ): يجوز أن يكون تأويلها أنها.

يجيبوا، دعوته ويدخلوا في الاسلام، حتى لا يتخلف منهم أحد، أم لم يُرِد ذلك؟ وهل أَمَرَهُ الله عز وجل بدعاء الجميع، أم لم يأمره إلا بدعاء البعض؟

فإن قلت: إن الله عز وجل أمره بدعاء البعض دون البعض، كان هذا هو الكفر والرد للقرآن صراحاً.

وإن قلت: إن الله جل ثناؤه قد أمره بدعاء الناس جميعا إلى الاسلام، على ما نجده منصوصاً في القرآن، وأراد ذلك منهم رسول الله صلى الله عليه، لزمك أن الله عز وجل أراد إسلامهم كلهم، وبطل قولك، وسقطت حجتك أنه – زعمت – أراد منهم الكفر لعلمه أنهم لا يؤمنون.

ولو كان كما قلت حقا، لم يقل لهم رسول الله صلى الله عليه عن الله جل ثناؤه: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ولم يُقِم الرسول صلى الله عليه على كلهم الحجة، وقد علم أن منهم من لا يؤمن، وأن الله عز وجل قد علم أن منهم من لا يؤمن، فقد صح أن العلم ليس هو الذي منعهم، ولا حال بينهم وبين الطاعة. وفي أقل من هذا كفاية لقوم يعقلون، والحمد لله رب العالمين.

ومن الحجة عليكم أيها المجبرة في قولكم: إن الله تبارك وتعالى خلق الكفر والشرك، والزنا واللواط، وقتل الأنبياء وأئمة الهدى، وقَطْعَ الطرق، وجميع الفواحش والكذب، أن نقول لكم: أخبرونا كيف جوابكم للزنادقة واليهود والنصارى، إذا سألوكم فقالوا لكم: نحن نجد في كتابكم وتحتجون علينا أن ربكم قال لنبيكم: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ﴾ [فاطر: ٣]، يخبر أنه لا خالق معه يخلق ما خلق، وأنه هو الذي خلق، وأنه لا خالق معه يخترع الأشياء، ويقدر على الأشياء. أليس هذا هو الحق عندكم وفي كتابكم؟!

فلا بد لكم من نعم.

فإذا قلتم ذلك، قالوا لكم: فأخبرونا الآن عن قوله يضيف إلى عباده: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، هل[1] نجد هذا في كتابكم؟

فإن قلتم: نعم.

قالوا لكم: أفليس هذا القول قد دلّ على أن ثَمَّ خالقاً آخر غيره يخلق الإفك، هذا نجده في قرآنكم الذي تَدَّعون أنه من عند حكيم عادل، حيث يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا (٨٢)﴾[النساء]. أهذا – زعمتم – في قرآنكم؟!

فلا بد لكم أن تجيبوهم بنعم.

فيقول لكم[2] السائل عند ذلك: فأي اختلاف يكون أعظم من هذا الاختلاف؟! وأي مناقضة تكون أعظم من هذه المناقضة؟! إذ قال ربكم – زعمتم – ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، ثم قال يعنف قوماً: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[العنكبوت: ١٧]. فلا بد لكم أنكم[3] قد لزمتكم المناقضة والاختلاف، لأن هذا بيِّن واضح في القرآن، لا حيلة لكم في دفعه ولا ردّه.

فإن قلتم لهم: كله خلقُ الله عز وجل وفعلُه، هو خَلَقَ الإفك وغيره مما خلق الله، مثل السماوات والأرض، والشمس والقمر، وغير ذلك، لزمكم أن قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ ينقض قوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾، ويفلجكم خصماؤكم من اليهود والنصارى والزنادقة، وجميع من خالفكم، لا بد لكم من أن تخلصوا منهم بحجة.

---

(١) سقط من (ب): هل.

(٢) في (أ): لك.

(٣) سقط من (أ): أنكم ز

فإن جسرتم على أن تقولوا: إن الله خلق الإفك وغيره من جميع الظلم، لزمكم في ذلك خصلتان فاضحتان:

أما واحدة: فيجب عليكم أن القرآن يختلف ويتناقض.

والخصلة الأخرى: فيلزمكم أنكم جعلتم خالقكم في عداد الكذابين الذين يفعلون الإفك، ويلزمونه غيرهم ممن لم يفعله.

فلا يزال الكلام يكرر عليكم أبداً، ويدخل - عليكم في التوحيد، وحكمة الحكيم، وعدل العادل - الفسادُ والوهن والخلل الذي لا بعده من العبث أبداً، حتى ترجعوا عن قولكم. وإلا بان كفركم، فتُقروا أن الذي[1] خلقوا الإفك هم العباد الذين لا طاقة لهم بخلق شيء من جميع الأشياء، إلا الإفك والمعاصي، وما أتوه من العدوان الذي اختاروه، وأنهم لا يقدرون على خلق شيء غير المعاصي التي هي[2] فعلهم، ولو ارادوا خلق خردلة ما قدروا عليها، لأن ذلك ليس في قوتهم، وخلق الإفك وجميع المعاصي في قوتهم، وهم في ذلك مُخَيَّرون تخييرا.

فأما أن يقدروا على خلق شيء غير ذلك، فيخرجوه من العدم إلى الوجود، فلا سبيل لهم إليه. والدليل على ذلك، قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾ [الحج]، وإن الله جل ثناؤه هو الخالق القوي القادر، الذي يخترع الأشياء فيحدثها، ويخرجها من العدم إلى الوجود، فذلك الاختراع والابتداع لما لم يكن شيئاً موجوداً، وهو الخلق الذي خلقه الله عز وجل، لا خالق له معه، ولا مشارك له فيه، ولا صانع له معه.

---

(١) في (أ): الذين.

(٢) في (ب): من.

وأما اكتساب بني آدم، فذلك خلقهم الذي هو حركاتهم المتولدة من قواهم، وقواهم هي الاستطاعة المركبة فيهم، التي لا يُسألون عنها ولا يُعاقبون عليها، ولا عيب عليهم فيها، لأن ذلك فعله جل ثناؤه، الذي قال فيه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣)﴾ [الأنبياء]. وإنما عاب عليهم وعاقبهم، ولزمتهم له الحجة في الحركات التي اكتسبوا بها المعاصي، واختاروا ذلك الاكتساب باتّباع الهوى، والأثرة لعاجل الدنيا.

وليس نجد نحن ولا أنتم هاهنا خلقاً مخلوقاً مُحاطاً به خَلَقَه العباد إلا حركاتهم، وليست تلك الحركات خلقاً لله جل ثناؤه ولا فعلاً، ولو كانت الحركات خلقه وفعله، لكان بالصحة الصحيحة الشاتمَ لنفسه، والمدعي لنفسه الأولاد والصواحب، والأنداد والشركاء والأضداد.

ولو كان كما قلتم، لكان القاتلَ لرسله !! والسافك لدمائهم !! والواضع السيوف في رؤوسهم !! والقاتل للأئمة الراشدين !! والشهداء والصالحين والمؤمنين !! ولكان الفاعلَ كل ظلم وكفر وجور في الأرض، مما كرهه ونهى عنه، وعابه وعنّف فاعليه[1]، وأعدّ عليه النيران، والعذاب الأليم الذي لا انقطاع له، وجعل فيه من الأحكام في الدنيا من القتل والصلب، وقطع الأيدي والأرجل، وسائر الحدود، ما عظم فيه النكال، وجل عن كل مقال.

﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون] !! العدل الرؤوف الرحيم، البريء مما قلتم، والمتعالي عما إليه أسندتم !!

أفيكون بهذا - ويحك يا عبد الله بن يزيد البغداذي - من النكال في الدنيا والآخرة، صفة مَن فعل شيئاً بقوم وأراده منهم وخلقه من فعلهم؟! وسمّى نفسه:

---

(١) في (ب): وعنف عليه.

عادلاً وحكيماً ورحيماً، وأنه لا يظلم ولا يجور؟! فهذه صفة خالقك عندك، وهذا تقديره وحكمته، جل الله وتعالى وتقدس عما قلتم، وعلا[١] علواً كبيراً!!

فإن قلتم: إنه قال عز وجل في كتابه: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]. فلذلك ألزمناه خلق كل شيء.

قلنا لك أيها الهالك، المغرور في دينه، الذي لم يلق العلماء، ولم يغترف من عين الماء: إن القرآن عربي مبين، عظيم القدر، واضح المنازل، زاهر السراج، وليس هو بعجميّ ولا غبيّ، ولا خافي المعنى عن أهل العلم[٢]، وأهل اللغة العربية والبيان، وورثة الحكمة من أهل بيت النبوة عليهم السلام.

ألا ترى أن العرب تقول: دخلنا السوق فوجدنا فيه كل[٣] شيء، وهم لم يجدوا فيه رسول الله صلى الله عليه وهو من[٤] أعظم الأشياء، وكذلك لم يجدوا فيه من مات من المؤمنين، ولا من آبائهم وإخوانهم، وكذلك لم يجدوا فيه قطع السحاب، ولا نجوم السماء، وهذه أشياء لم يجدوها، فجاز ذلك في اللغة.

وتقول العرب: دعانا فلان إلى منزله فأطعمَنا من كل شيء، وهو لم يطعمهم لحم خنزير، ولا لحم الأُسود، ولا لحم الانسان، ولا لحم الحيّات، فجاز ذلك في اللغة أنه قد أطعمهم من كل شيء، وهذه أشياء لم يطعمهم إياها، وإنما تقول العرب من الخصوص في الكلام ما تجعله عامًّا، وإنما نزل القرآن بلغاتهم المعروفة. وشاهدُ ذلك، قول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

---

(١) سقط من (أ): وعلا.

(٢) في (أ): خافي عن العلماء.

(٣) في (ب): من كل.

(٤) سقط من (ب): من.

والدليل على صدق قولنا كتاب الله عز وجل، حيث قال في ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النمل].

فنقول لكم: هل أوتيت شمساً وقمراً ونجوماً، وسماءً وأرضاً، وجنة وناراً؟ وهل أوتيت فرجاً كفرج الرجل، ولحية كلحية الرجل؟ وهل أوتيت ولداً من غير فحل؟ فكل هذه الأشياء لم تؤتها بإجماع الخلق كلهم، وقد قال الله عز وجل فيها: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، وهذه أشياء كثيرة لم تُؤتها، وكفى بهذا بياناً وحجة قاطعة لدعواكم !!

وكذلك قوله عز وجل: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]، إنما عنى به مما خَلَقَ خاصة، لم يعن بذلك: الشرك ولا الكفر، ولا الإفك ولا سائر المعاصي التي خلقها العباد، وهو البريء من ذلك عز وجل.

والدليل لنا على ذلك أيضا، قوله عز وجل: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ (٣٠)﴾ [آل عمران]، فأخبر أن له نفساً عز وجل[1]، ثم قال بعد هذا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]. فأجمل هاهنا أن كل نفس ذائقة الموت، ولم يستثن نفساً بعينها. فلو وجب ما قلتم في خلق الأشياء، لوجب في النفس هاهنا مثل ما ادعيتم، جل الله وتعالى عما تقولون علواً كبيراً !!

وقوله عز وجل: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف]، ثم قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. فدلّ ذلك[2] إنما خصّ الريح أنها دمرت بعض الأشياء لا كلها، بعدما[3] قال: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾، يعني عز وجل: مما أُرسلت عليه خاصة لا عامة.

---

(١) في (ب): وتعالى.

(٢) في (ب): بذلك.

(٣) في (ب): وبعدما.

ألا ترى أنها لم تدمّر مساكنهم، وأنها لم تدمر السماء ولا الأرض ولا الجبال، ولا النبي هوداً صلوات الله عليه، ولا من كان معه من المؤمنين، وأن الآية خاصة دون عامة، وإن الآية توجب عليكم[1] في قول الله عز وجل: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]، أنه يعني عز وجل: مما خلق هو وصنع وابتدع، لا ظلم الظالمين، ولا جور الجائرين، فجعل ذلك خصوصاً في خلقه المنفرد به، لا عموماً لما خلق غيره، وعذّب عليه فعله. فهذا أكبر دليل، وأوضح حجة، وأقطع لكلّ مفترٍ.

وقوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١)﴾ [فصلت]، فقالوا: ﴿أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، أراد الله عز وجل بهذا خاصًّا دون عَامٍّ، لأنه لم يُنطق الجبال ولا الأشجار ولا البهائم، ولا كثيراً مما خلق، وإنما هذا خصوص دون عموم، مثل قوله عز وجل: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]. فالكفر ليس هو غير ما ذكرنا لك، من حركات بني آدم واعتقاد قلوبهم، لا شيء[2] غير ذلك، ولا يجده أبداً إلا أنت وإخوانك المجبرة، لأنك سميت: كفراً مخلوقاً، لا حجة لك عليه ولا برهان، ولا حجة من كتاب الله[3] جل ثناؤه، إذ لا يُدرك ببصر، ولا يُحدّ بلمس، ولا يُحاط له بقطر، حتى يُعرَف ويميز خلق الله عز وجل، من خلق بني آدم.

فقد جاءك في هذا من البيان والحجة من كتاب الله عز وجل، ما في أقلّ قليل[4] منه أكفى الكفاية. وجاءك في لغة العرب ما فيه البيان. قال الشاعر يمدح رجلاً:

---

(١) في (أ): عليهم.

(٢) في (أ): ولا شيء.

(٣) سقط من (ب): ولا حجة من كتاب الله.

(٤) سقط من (ب): قليل.

فلــو كــان للشــكر حــدٌّ يُحــد إذا مـــا تأمَّلـــهُ النـــاظر
لصـــوَّرتُه لـــك حتـــى تـــراهُ فـــتعلَمَ أني امـــرُؤٌ شـــاكر[١]

فقد علمت العرب أن ليس للشكر حدّ يُدرك، ولا صورة تنال، حتى يعرف الشكر بتلك الصورة. فلا حدّ له يوقف عليه غير حركات بني آدم، من شكر اللسان، والمكافأة بالفعل، الذي هو حركة أيضا، ولا يعرف للشكر معنى آخر غير ذلك، إلا اعتقاد القلب. وكذلك الكفر مثله سواء وجميع الأفعال، ولو كان الشكر الذي عنى الشاعر أنه يريد أن يشكر به مَلِكاً من ملوك الظالمين المعاندين لله عز وجل هو مخلوق، لكان الله عز وجل هو الشاكر للملوك المشركين، والكافرين المعاندين[٢] له، بعد قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾ [البقرة]، والعدوّ لا يشكر عدوّه في سبب من جميع الأسباب، ولا يشكره على لسان غيره، ولا يصحّ هذا في المعقول أبداً، وكفى بهذا حجة !!

إلا أن تقول أنت يا عبد الله بن يزيد البغداذي وإخوانك المجبرة: إن جميع ما سمينا من الشرك والكفر، والفواحش والقتل، والزنا والخنا واللواط، والكذب والإفك، وجميع الجور والظلم، هو شيء مخلوق موجود، إلا أنه لا تراه العيون، ولا تدركه الحواس، ولا تناله الجوارح، ولا تلمسه الأيدي، ولا تحيط به الأقطار.

فنقول لك عند ذلك: فإنه يلزمك في هذا القول فسادان عظيمان، وكفران اثنان، في كليهما بطلان دعواك، وبيان كذبك، ونقض فريتك وفضيحتُك:

---

(١) البيت لعلي بن الجهم، توفي سنة (٢٤٩هـ)، ورد في ديوانه هكذا:
لـو كـان للشـكر شـخص يبـين إذا مـــا تأملـــه النـــاظر
لبنيت شكري...

(٢) في (ب): والمعاندين.

أما أحدهما: فيلزمك أنك قد أثبتّ شيئاً لا تدركه الأبصار، ولا تلمسه الأيدي، ولا تقع عليه الخواطر ولا الأماكن، ولا يُدرى ما كنهه، فيبطل عليك قولك بالتوحيد، لأنك قد ادعيت موجوداً ثانيا، فيه صفة معبودك الذي وحّدته، فزعمت أن هذا الآخر نظير له وندّ، لا تدركه الحواس، ولا تناله الخواطر، ولا تحويه الأماكن، فتفسد عليك دعواك في التوحيد، وتكفر بهذا القول الذي وصفت به أفعال العباد.

ويلزمك أنك قد وحّدت شيئاً آخر غير الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وكفى بهذا جهلاً وعمى، وفضيحة على من زعم أنه يقول بالتوحيد !!

وقد أعلمناك أنه لا قوام لقائل بتوحيد الله عز وجل، ولا ينفع ذلك دون القول بالعدل، لأنه من زعم أن الله عز وجل فعل شيئاً مما كره، أو خلق شيئا مما عنه نهى، أو دخل فيما عاب، أو عاقب على فعل نفسه، أو غضب من إرادته، أو عنّف أحداً على خلقه، كان هذا غاية التشبيه، وأنه لم يفرق بينه وبين خلقه.

ومن شبّهه بالجائرين والجاهلين والعابثين[١]، والجورة المتعنتين والمفسدين، لم[٢] ينفعه ما ادعا من التوحيد، ولم يستحق اسم موحّد، لما قد قرفه[٣] به عز وجل من الجبر والتجوير، والتشبيه بالظالمين، والتسوية بينه وبين الشيطان الرجيم، في إغوائه[٤] للخلق، وإرادة المعاصي منهم، وحملهم على ما يهلكهم ويورثهم الخلود في النار أبد الأبيد.

---

(١) في (ب): والعباثين.
(٢) في (ب): ولم. مصحفة.
(٣) قرفه: اتهمه.
(٤) في (ب): العداوة.

سبحان الله العظيم، رب العرش الكريم، العادل الرحيم عما قلتم، وبه دنتم، وفيه ناظرتم، وبه إلينا كتبتم، وعنه سألتم، وفيه نعيتم[1] !! فهذا جوابنا لكم في نقض جميع ما قصدتم به من الفرية على رب العالمين، فصرتم له خصماء، ولحزبه أعداء، وعن طاعته عُنَدَاء، ولمن خالفه أولياء. فالحمد لله الذي حجب الحق بشواهد العدل، وأوضح القرآن، وشافي البيان عن كيد الكائدين، ومعاندة المعاندين، وإلحاد الملحدين.

وأما ما ذكرت من يوسف النبي صلى الله عليه، فإن يوسف لم يعص الله عز وجل، ولم يهمّ له بمعصية، على ما ذهبتم إليه، ولو كان همّ له بمعَصية، لم يقل فيه من جميل الثناء والمدح والشكر ما لا يزال يقرأ أبداً، حتى تزول الدنيا، وتزلف الآخرة، من قوله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)﴾ [يوسف]، وليس يكون المخلَص من همّ بفعل فاحشة.

والصرف من الله تبارك وتعالى له[2] أنه برّأه من الظلم، وحَمِدَه على ما اختار، ولم يجبره على ترك المرأة جبراً، فلا يجب له حمد ولا أجر، وليس الله جل ثناؤه يفعل فعل العباد من الطاعة ولا من المعصية، ولا يجوز ذلك، ولا يكون أبدا، ولا كان فيما مضى، لما في ذلك من فساد الحكمة، ووجوب القهر والحتم.

وقد احتججنا عليك في ذلك بما جزء منه يكفي مَن عقل وأنصف، و﴿خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

---

(١) في (أ): لعنتم.

(٢) سقط من (ب): له.

السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)﴾ [هود]. فسعد من سعد باكتسابه، وشقي من شقي باكتسابه، لا حتماً ولا جبراً.

وقد قالت الحكماء: استعمال النظر فيما لا يُدرك علمه من دين الله عز وجل إلا من جهة الخبر جهلٌ ونأي عن الصواب[1]. وكذلك استعمال الخبر فيما لا يُدرك علمه من دين الله إلا من جهة النظر جهلٌ وتناءٍ[2] عن الصواب. فليتق الله من نظر في كتابنا هذا، وليُعمل الفكر فيه، فإن الإقدام على النار الخطرُ العظيم، وما بعد الحق إلا الضلال، ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩)﴾ [الجاثية].



(١) في (ب): جهل وبان وباين عن الصواب. مصحفة.

(٢) في (ب): جهل وبائن. مصحفة.

[شبهة فيمن ذكر الله أنهم لا يعقلون ولا يعلمون]

ثم قال عبد الله بن يزيد البغداذي: ثم سلهم عمن ذكر اللهُ عز وجل في الكتاب أنهم لا يعلمون ولا يعقلون ولا يبصرون، أحقّ ذلك من الله؟

فإن قالوا: نعم.

فقل: فكيف وأنتم تزعمون أنهم يعلمون ما يعلم الأنبياء، والله يصفهم بغير ذلك؟!

وإنهم إن قالوا: إنهم لا يدركونه إلا بالعقل حتى يفكروا.

فقل: أفليس توسّعون لهم حتى يفكروا، وإلى أي وقت يفكرون؟ وكم هو؟ أساعة أم ساعتين؟

فإنهم لن يقدروا[1] لك هذا أيضا، لأنهم إن وسّعوا لهم ساعة وسّعوا لهم ساعتين، وإن وسعوا لهم يوماً وسّعوا لهم يومين، وليس لهذا وقت عندهم، وسيفرون من هذا الكلام.

واعلم أنك لن تسألهم عن شيء أشدّ عليهم من هذا وأشباهه، لأنهم يقولون: لا يكلّف الله الناس إلا ما يستطيعون.

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين: إن الله تبارك وتعالى أعطى خلقه الاستطاعة التي ركّبها فيهم من الحواس الخمس، والعقول التي بها يعرفون الخير من الشر، والحق من الباطل، والصواب من الخطأ. ثم أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وافترض عليهم الطاعة، وندبهم إلى الجنة، وحذرهم النار، وأوجب لهم النجاة، تخييراً لا قسرا وجبرا.

---

(١) في (أ): يفيدوا. وفي (ب): يقيدوا. ولعل الصواب ما أثبت.

وكذلك حكمه في الأولين والآخرين، أنه أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، فلم يُطع كرهاً، ولم يُعص مغلوباً، ولم يقسر القلوب على طاعته قسراً، ولم يحملها على طاعته جبراً. الواجب عليهم أن يُنصتوا للرسل وما جاءت به، فينظروا بعقولهم في قولهم، فيأخذوا الحسن، ويتركوا القبيح، وذلك قوله عز وجل: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨)﴾ [الزمر].

فلم يجز في حكمة الحكيم أن يحمد أحداً من الخلق على فعلِه وخلقِه هو، وإنما حمدهم وأثنى عليهم بفعلهم، ووجبت لهم الهداية منه أن سمّاهم: مهتدين، أي: حكم لهم بالهدى وسماهم به، لا أنه جبرهم عليه جبراً !!

فأي أجر لمجبور؟ وأي حمد لمُكرَه؟ كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١]. كل ذلك جَعلُ حكم وتسمية، لا جعلُ قهر وجبر. ولو كان كذلك لم يكن للأئمة الذين يهدون بأمره ثواب ولا حمد لأنه أكرههم، ولا يكون على الأئمة الذين يدعون إلى النار عقاب ولا ذمّ، لأنه أكرههم أيضاً، وجعلهم دعاة إلى النار، وقد قال الله: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)﴾ [يونس].

وأما قولك في التفكّر، فلعمري لقد قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم: ٨]، والهداية من الله عز وجل لا تكون ولا تجب لكافر مُعرض عنه، يعبد غيره ويأكل رزقه، ويجعل له الصواحب والأولاد، والشركاء والأضداد، فيجبره على الطاعة، ويُميل قلبه إلى الهدى، من قبل أن يكون هو الراغب في الهدى، والمُقبل إلى الطاعة، لأن مثل

ذلك مثل رجل وقع في بئر، فأشرف عليه الناس فقالوا له: أخرج. فقال لهم: لست أخرج حتى تدلوا إليّ حبلاً أخرج به، وإلا فلست أخرج أبداً.

وكذلك الكافر عندكم، وفي قولكم لا يخرج من الكفر أبداً حتى يجبره الله على الهدى، ويمدّه بالقسر والإكراه لقلبه، وهو في غاية الكفر، وغاية الضلالة، والإعراض عن خالقه، وهو غير مستوجب من الله عز وجل للرشد، ولا مستحقّ للهدى، ولا المعونة ولا الرحمة. وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾ [الأعراف]، ولم يقل: إنها قريب من المشركين.

وقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ولم يقل: فأسكتبها للذين يشركون.

وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)﴾ [النازعات].

فإن قلتم أيها المجبرة: إن الكافر لا يقدر أن يخرج من الكفر حتى يكون الله جل ثناؤه هو المخرج له من الكفر بالجبر والقسر، ويجعل في قلبه الهدى جبراً وإكراهاً، لزم في المعقول أنه لا حمد لمكرَه مجبور، ولا لوم على عاص مدحور، ولم يكن لإرسال الرسل معنى، ولا لإنزال الكتب بأمر ونهي، وتحذير وتخويف، وترغيب وحضّ وزجر، فلا معنى لذلك !!

ولكان من حجج الأمم على رسلها أن تقولا[1] لها وهي حجة قاطعة تفلج بها الرسل: أيها الرسل إن أمرنا ليس في أيدينا منه شيء، قليل ولا كثير، ولا نقدر من أنفسنا على طاعة ولا معصية، ولا نملك لأنفسنا هدى ولا غيًّا، فاذهبوا إلى ربكم فاسألوه أن يخلّي سبيلنا، ويجعل لنا طريقاً، حتى نسلم ونتبعكم. فإن ليس لقوله:

---

(١) في (أ): تقولها.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠)﴾ [الانشقاق] معنى، وقد علم أنه قد حال بيننا وبين الايمان.

وكذلك لا معنى لقوله: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤]. وكذلك لا معنى لقوله: ﴿سَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وكذلك لا معنى لقوله: ﴿وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)﴾ [آل عمران]. وكذلك لا معنى لقوله: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)﴾ [طه]. وكذلك لا معنى لقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤]. فكان هذا القول من حجة الكفار على الرسل.

ثم قالوا لهم: فلا نجد لإرسالكم معنى، وقد حال ربنا بيننا وبين الطريق، ولم يوجد لنا فُسحة إلى السبيل، ولم يُرِد منا أن نؤمن، لأنّا إن آمنا - كما قال كبيرنا عبد الله[1] بن يزيد البغدادي - كان ذلك الايمان إبطالاً لعلمه، وقد ذكر أنه قد أرسلك إلينا يا محمد كافة كلنا، بعدما أراد أن يكون بعضنا مؤمناً وبعضنا كافراً، على ما قال شيخنا عبد الله بن يزيد البغدادي وإخوانه المجبرة.

فكيف تدعوننا أيها الرسل إلى الايمان؟! وتسفكون دماءنا وتغنمون أموالنا وذرارينا؟! وليس نقدر على الايمان بحيلة، لأن الله أراد منّا أن نكون كفارا، ولو آمنا لبطل علمه !! ونحن بعد هذا[2] نقتلكم يا معشر الرسل والأئمة من أولادكم، وهو الذي قضى علينا قتلكم، وخلق فعلنا بكم، وقدّره علينا وأراده منا. ثم أنزل في كتابه يعيّرنا ويعنفنا ويعيب علينا قتلنا لرسله، ويقول في كتابه: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١، آل عمران: ٢١]، بعدما قال: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧)﴾ [الأنعام].

---

(١) في (ب): كما قال غيرنا، وكما قال عبد الله...

(٢) في (ب): ثم نحن من بعد.

فلِمَ عاب علينا قضاء ما خلق، وكلُّ شيء في الأرض – زعمت المجبرة – بقضائه وقدره، وفعلٌ مخلوق لفاعله لا حيلة له في تركه، ولا يقدر[١] على الخروج منه. فكيف تطلبون منا يا معشر الرسل [ترك] ما لا نقدر على تركه، ولا نقدر على الخروج منه؟!

ونحن معشر العرب يقول الشاعر منا الشعر، فلا نقبل منه بيتاً معيباً، ولا معنى فاسداً، ولا كلاماً مستحيلاً، حتى نستقصي فيه ونبعد عنه[٢] التناقض، نُسقط[٣] شاعره إذا أخطأ، ونقدم عليه غيره من الشعراء.

فكيف نقبل منكم يا معشر الرسل كتاباً سماويًّا – زعمتم – نجده نحن[٤] متناقضا يُفسِد بعضه بعضاً؟ فأنصفونا ففي النصفة تجب الحجة، ويغلب الحق، ويصح لنا صدقكم، وتلزمنا طاعتكم.

وقد ذكر ربكم أيها الرسل في كتابه أن قضاءه حق، وأنه يقضي الحق، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١، آل عمران: ٢١]، فما هذا التخليط يا معشر الرسل؟! أصحّوا لنا رسالتكم القوية، وحكمة ربكم العادل الحكيم الذي زعمتم، فإذا صحّ عدل ربكم وحكمته، عرفنا ما تدعوننا إليه، وصحّ الخطاب بيننا وبينكم، وقام الحق، وسقطت الدعاوى الباطلة، من قولنا وقولكم يا معشر الرسل.

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: فما ترى قول عبد الله بن يزيد البغداذي وأصحابه المجبرة لمن احتج عليهم بهذا الاحتجاج؟

---

(١) في (أ): نقدر. مصحفة.

(٢) في (ب): منه.

(٣) في (ب): ويسقط. مصحفة.

(٤) سقط من (ب): نحن.

وما ردهم عليه؟

وما ظنُّهم تردّ الرسل على الأمم؟

وما حجتهم عليهم فيما قالوا؟!

أتراه يقول: إن الأمم قد صدقت في دعواها على الرسل؟!

فإن قالوا: نعم، إن الأمم قد صدقت فيما ادعت على الرسل، واحتجت بالصواب، كفر بالله العظيم، وصحّ كفره وخروجه من فئة الاسلام.

وإن قال: إن الأمم قد كذبت ولم تحتج على الرسل بحق، وإنما مبطلة في دعواها على الرسل، رجع عن قوله، وصحّ كذبه، وبان للخلق أنا قد غلبناه، وقطعنا حجته، وبانت فضيحته، وأنه يلزم المجبرة أن الذي ادّعت باطل، لصحة القرآن، وأنه لا يتناقض، وبطّل دعواهم، وأنه قد أكذب أهل مقالهم، وشهد عليهم بالكذب[1].

وإنما جاء غلط عبد الله بن يزيد البغداذي وإخوانه المجبرة، وإعجابهم برأيهم، من قلة علمهم بمعاني القرآن، وجهلهم بالتأويل، وتعلُّقهم بالمتشابه الذي يُصحّه التأويل، من علم أهل العلم بشواهد الحق، وتصريف[2] اللغة العربية، وأنه لم يعرف الحقائق في الكلام من المجازات، ولم يأخذ الحق من معدنه، وإنما دان بالتقليد، وكذلك دان من لحقه[3] بتقليدهم له، فلا يبعد الله إلا من ظلم.

ونحن نسأله الآن: ما مخرج قول الله عز وجل حيث يقول: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، وقوله: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، وقوله: ﴿يُخَادِعُونَ

(١) في (ب): بالتكذيب.

(٢) في (أ): وبصرف.

(٣) في (ب): وكذلك أن من تحته. مصحفة.

اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. أهذا على حقيقة[1]، أم على مجازٍ؟ كلامٌ عربي يحتمل التأويل؟!

فإن قال[2]: إنه على حقيقة لا مجاز فيها، ولا يحتمل التأويل، لزمه أن ربه يستهزئ كما يستهزئ السفهاء، ويسخر كما يسخر السخفاء، ويخدع كما يخدع الضعفاء.

وإن قال: إن هذا القول على مجاز الكلام.

قلنا له: هذا هو الحق، وله تأويل جَهِلْتَه، وقد رجعت عن قولك، وكذلك جهلت قوله الذي احتججت علينا به، في قولك: لا يعلمون، ولا يعقلون، ولا يبصرون، و﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]، له تأويل كما لهذا تأويل غطلتَ فيه، لأنهم لو كانوا لا يعلمون ولا يعقلون ولا يبصرون، لَسقطت عنهم الحجة، كما سقطت عن الأطفال والمجانين، إلا أن كلامك على اتباع الهوى والإعجاب، لا تَدَبُّر الكتاب[3]، ولا تتفكر في الصواب.

ثم نسألك أيضا عن اعتقادك في التوحيد؟ لأنك تقول – زعمت –: إنك موحّد، ومحال، ما أنتم كذلك !!

فنقول لك: ما قولك في قول الله عز وجل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥)﴾ [طه]، وقوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ [غافر: ١٥]، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩)﴾[طه]، وقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]، وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا

---

(١) في (ب): الحقيقة.

(٢) في (ب): قالوا.

(٣) في (ب): لكتاب.

(٢٣)﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]. هل هذا القول كله الذي تَراهُ يُلزم التشبيه على الحقيقة لا تأويل له، أم هو على مجاز الكلام، قولٌ عربيّ يجب تأويله، وإلا لزم التشبيه؟!

فإن قلت: إنه على الحقيقة لا تأويل له، لزمك التشبيه لخالقك، وخرجت مما ادّعيت من التوحيد الذي قلت به، وفلجك المشبهة.

وإن زعمت أنه على مجاز الكلام، له تأويل في اللغة العربية، إذ لا يسعك غير ذلك، وإلا شبهت وكفرت.

قلنا لك: فكذلك يلزمك أن للآيات المتشابهات اللاتي تعلّقت بهن تأويلاً في العدل على الحقيقة، والخروج من الجبر، وأنها مجاز كلام، لم تعقله ولا إخوانك المجبرة، ولم تهتدوا إلى القول فيه على الله جل ثناؤه بالعدل.

فإن أنكرت التأويل حميّةً وتعزُّزاً، أنكرتْ عليك المشبّهة تأويلك في التوحيد، ولزمك مثل ما تدّعي، ولا مخرج لك من هذا الباب بحيلة محتال، فكيفما قلت فجَدّك الأسفل، وحجتك الفاسدة، والحمد لله رب العالمين.

وأما قولك في تكليف العباد، فالتكليف لازم لكلّ بالغ وبالغة من ولد آدم، ممن صح عقله وبدنه، وقد قسم الله عز وجل عليهم بفضله النعم التي تفضّل بها عليهم، فعلى قدر صحة العقول والجوارح والحواس يلزم التكليف، ومن زال عنه شيء من ذلك، كان التكليف على قدره، ومن زال عقله سقط التكليف كله.

والعجب كل العجب منك لِمَ سمّيته: تكليفاً، وإنما أصل قولك أنهم جُبروا جبراً، وخُلقت أفعالهم، والمجبور والمخلوقُ فعلِه ليس هو مثل المكلّف، الذي إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، وقد أعددت[1] التفضيل لبعضهم على بعض، وأكثرت

---

(١) في (أ): أعدت.

إعادة الكلام[١] الذي لا وجه له، وقد[٢] تحرينا فيه المعنى الواحد عن تكريرك للمعاني التي تقتضي وجهاً واحداً.

وإنما مثلك في كتابك الذي وضعته على أهل العدل، وزخرفت فيه الغرور لأصحابك، ومنّيتهم الأباطيل، وأعلمتهم أن أهل العدل لا يقدرون لكم[٣] على دفع، ولا كسر حجة. وفي كل مسألة تقول: إن أهل العدل يفرّون عن كلامكم[٤] هذا، وأنتم تقطعونهم في[٥] هذا الموضع، وهذا من أشدّ ما يسألون[٦] عنه، فكان مثلك في ذلك، مثل زقّ منفوخ لا شيء فيه إلا الرياح، ثم عمد إليه رجل بإبرة فخرقه بها فانفشّ جميع ما فيه، والحقُّ فأجلُّ وأشرف من أن يخفى على العقلاء وأهل التمييز والنظر، وقد رددنا عليك من الحق ما فيه الشفاء لكل مسلم.

ثم نقول لك: ما تقول في قول الله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾ [الكهف]. فنقول لك يا عبد الله بن يزيد البغداذي: هل هذه الكلمة خلقُ الله عز وجل وصنعُه وإرادته، أم لا؟

فإن قلت: إنها خلقٌ لله عز وجل وصنعٌ وإرادة، لزمك أنه غَضِبَ من خلقه

---

(١) في (أ): الكلام فيه.
(٢) سقط من (ب): وقد.
(٣) في (ب): لهم.
(٤) في (ب): كلامك.
(٥) في (أ): من.
(٦) في (أ): يسألونهم.

وصنعه وإرادته، وهذا خروج من الحكمة، ويجب أنه عذّب على ذلك، بعدما قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى (٤١)﴾ [النجم].

ثم نقول لك: وأخبرنا لِمَ قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، مستعظماً لها ومستقبحاً ومستشنعاً، وهو الذي خلقها وأرادها وصنعها ! أهكذا يكون الحكيم الذي لا يظلم؟!

وإن قلت: لا أقول ذلك، رجعتَ عن قولك وصرت إلى قولنا.

ثم نقول لك: ما الفرق بين قوله في عيسى عليه السلام: إنه ﴿كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١]، وذكر في كتابه أنه كلمة له، خلقه وصنعه وأراده، والدليل على أن عيسى كلمته، قوله عز وجل: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وقال أيضا: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].

فنقول لك: ما الفرق بين هذه الكلمة المعنيّ بها عيسى عليه السلام، وبين الكلمة الكبيرة عند الله عز وجل التي خرجت من أفواه الكفار، الذين ﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ [يونس: ٦٨]. فإن ادّعيت فرقاً بينهما غير أن الله – في زعمك – هو الذي خلقهما جميعاً وصنعهما، وقدرهما وأرادهما، لم تقدر على ذلك بحيلةٍ محتال، ولا بوجه من الوجوه، لمّا زعمت أن الله عز وجل هو الذي خلق الكلمتين، وأراد المعنيين.

فيلزمك عند انقطاعك عن الفرق بين الكلمتين، أن القوم الكفار الذين قالوا ﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ إنما غضب الله عليهم وعاب فعلهم، وحكى لنبيه محمد صلى الله عليه عظيم كفرهم، وأوجب عليهم فيه العذاب الأليم المقيم، وأنه لم يكن في خلقه لعيسى وجعْله إياه كلمةً، غضبٌ منه على أحد، ولا عيب ولا استعظام، ولا

عذاب مقيم، فكلاهما – زعمت – كلمة لا فرق بينهما، خلقهما الله عز وجل وصنعهما – على زعمك – فعذّب عباده على واحدة وغضب منها، ولم يغضب من الأخرى ولم يعذب عليها، وهما سواء في الخلقة والصنعة والإرادة.

فأين العدل والحكمة في هذا الباب؟! بيّنه لنا وميّزه إن كنت من الصادقين؟! أو أرنا الفرق بينهما إن كنت من المهتدين ! ولا تجد فرقاً بين ذلك أبداً، وهذه قاطعة لحجتك، ومدحضة لقولك، إلا أن ترجع فتزعم أن الكلمة التي غضب الله منها وعذب عليها، أنها إرادة الكفار، وقولهم باختيارهم، وصنعهم لا صنع الله جل ثناؤه، وأن عيسى كلمته وخلقه، لا تباعة على أحد في ذلك، وهذا هو الحق، وهو دين الله الذي لا مخرج لمسلم منه، ومن قال بغيره كفر ووجب عليه العذاب، والحمد لله رب العالمين.

ثم نقول لك أيضاً: أخبرنا عن قول الله عز وجل للكفار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢)﴾ [المدثر]، فنقول لك: أرأيت إن ردّوا عليه فقالوا: ذلك بها خلقت من أفعالنا، وأردته من كفرنا، وقدّرته وقضيته علينا، هل يكذبون في هذا الجواب، أم يصدقون؟

فإن قلت: إنهم يكذبون، رجعت عن قولك وصرت إلى قولنا بالعدل.

وإن قلت: إنهم قد صدقوا في هذه الدعوى، في قولهم: إن الله عز وجل خلق أفعالهم وقدرها عليهم، وقضاها وأرادها.

قلنا لك: فقد أكذبك الله جل ثناؤه، ووجدنا القرآن يشهد بخلاف ما قلت، من إقرارهم على أنفسهم، وإبرائهم لخالقهم، وإضافتهم الظلم والمعاصي إليهم، لا إليه عز وجل، حيث ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ

(٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)﴾ [المدثر]، ثم قال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩)﴾ [المدثر]، فعجَّب نبيه صلى الله عليه كما تسمع، لعلمه أنه لا حائل بينهم وبين التذكرة. فما تقول لو ردّوا عليه في هذا الموضع، حين قال لهم: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾، فقالوا: أنت بنا، لولاك لعرفنا رشدنا، هل يصدقون في الحجة، أم يكذبون؟

فإن قلت: إنهم صدقوا، لزمك أن حجتهم أقوى من حجة الله عز وجل.

وإن قلت: كذبوا، رجعت عن قولك.

ثم نقول لك: أخبرنا ما تقول في رجل من المسلمين خرج غازياً للروم في بلدها فحاربهم وقتاً، ثم إنه وقع في أيديهم وأخذوه أسيراً، فوضعوه في الحبس والحديد، فلما دخل شهر رمضان عرضوا عليه الدخول في النصرانية، والقول بأن المسيح ابن الله، فكره ذلك وامتنع عليهم منه، فلما امتنع ربطوه بالحبال، وغلّوا يده إلى عنقه، ثم أخذوا له المغرّ الذي يُغَرُّ به الصبيان، وهو المسعط في لغة العرب، وأوجروه به الخمر كرهاً، وهو مضجع لا حيلة له في نفسه، ولا دافع عنه، ثم جعلوا يسقونه إياه، وكذلك ودك الخنزير، فلم يزل على ذلك سنة على تلك الحال، حتى إذا لم يبق من السنة إلا يوم واحد أطلقوه.

فنقول لك ولمن قال بقولك: أليس قد علم الله عز وجل أنه قد فعلوا به ذلك الفعل، وأكرهوه على شرب الخمر، وودك الخنزير حين أوجروه إياها كرهاً، وهو لا حيلة له في نفسه؟!

فإن قلت: نعم، قد علم الله ذلك منه ومنهم.

قلنا لك: فهل على هذا الرجل لله عز وجل في ذلك الذي أُكرِهَ عليه حجة أو تباعة؟ أو هل يجب عليه عذاب أم لا؟

فإن قلت: نعم، عليه حجة وذنب، وعذاب وتباعة، كذّبك جميع المسلمين، وخرجت من العدل والمعقول.

وإن قلت: لا حجة عليه ولا ذنب.

قلنا لك: صدقت، لأن الحجة عليه فيما علم أنه يقدر عليه.

ثم نقول لك أيضاً: أرأيت هذا الرجل بعينه إن شرب الخمر ساعة واحدة، أو جرعة واحدة، بطيب من نفسه، واتباع هواه، أليس قد علم الله عز وجل ذلك من فعله؟!

فإن قلت: لم يعلمه، كفرت.

وإن قلت: إنه قد علمه.

قلنا لك: فهل يعاقبه على شرب تلك الجرعة وحدها، أم لا يعاقبه؟

فإن قلت: إنه لا يعاقبه، أبطلت وعيد الله عز وجل، وخالفت المسلمين، وخرجت من الكتاب.

وإن قلت: إنه يعاقبه بشربه للخمر، واتباع شهوته في تلك الجرعة.

قلنا لك: فكيف لم يعاقبه في شرب سنة كلها على ما شرب من الخمر، وصار في بطنه من ودك الخنزير، ويعاقبه على شرب جرعة في ساعة واحدة من نهاره عمداً؟!

فإن قلت: من قِبَل أن الروم أكرهوه على ذلك، فلم تلزمه عقوبة، وهو اختار الشرب لنفسه في هذه الساعة الواحدة، فلزمته العقوبة.

قلنا لك: فقد لزمك الآن أن ليس علم[1] الله عز وجل يثيب العباد، ولا

(١) في (أ): لعلم.

يعاقبهم[١]، وإنما يثيب ويعاقب على ما فعله العباد بأنفسهم، وذلك قوله عز وجل: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، وبطل قولك أنت وأصحابك، في اعتلاكم علينا بعلم الله جل ثناؤه، أن من قِبَل علمه كان الفساد عليهم في أديانهم، وأن بالعلم ضلّوا - زعمتم - وهلكوا، وكذب العادلون بالله، وضلوا ضلالا بعيداً.

والواجب على من سمع كتابنا هذا، أن ينعم النظر فيه، ولْيَذكُر وقوفه بين يدي الله عز وجل، فأي القولين كانت الحجة فيه أغلب وأوكد وأقوى في كتاب الله عز وجل، فليتبع الحق من ذلك، فليس بعد الحق إلا الضلال، والحمد لله رب العالمين.



(١) في (أ): لعلمه يعاقبهم.

[شبهة في قوله: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾]

ثم قال عبد الله بن يزيد البغدادي: ثم سلهم عن قول الله سبحانه: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١)﴾ [الكهف]، و ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ (٢٠)﴾ [هود]. وأشباه هذا في كتاب الله عز وجل. وليس لهم في وجهٍ أخذوا فيه من الوجوه راحة، فألزم كلّ مسألة على وجهها ومعناها وحدها، فإنهم لن يفيدوا لك وجهاً خالفوا فيه العدل، وستردّهم إلى قولك، أو تنكسر عليهم وجوههم التي وضعوها، لأنها جاءت من غير الله عز وجل.

الجواب قال أحمد بن يحيى صلوات الله [عليه] وعلى آبائه الطاهرين: وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١)﴾ [الكهف]، لجهلك باللغة، وعجزك عن العلم بتصريفها في اللسان العربي عند العرب، الذين خاطبهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بلسانهم، وذلك قول الله جل ثناؤه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وقال الله عز وجل يحكي عنهم يوم القيامة: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١)﴾ [الكهف]، يعني تبارك وتعالى بذلك: أنهم كانوا لا يبصرون الحق، ولا يميلون إليه بقلوبهم، ولا يريدونه بشيء من حواسهم، ولا يصغون إليه بآذانهم، ولا يريدون أن يسمعوه باختيارهم، وإعراضهم وكراهيتهم للحق واستماعه.

وهم في ذلك يقدرون أن يسمعوا وينصتوا إليه لو أرادوا، لأن الله جل ثناؤه لم يحل بينهم وبين الاستماع، وقد قال عز وجل: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ

يُبْصِرُونَ (١٩٨)﴾ [الأعراف]، وقال عز وجل في موضع آخر: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مريم: ٣٨]، يعني: ما أسمعهم وما أبصرهم !! مثل ما تقول العرب: أكرِمْ بفلان، أي: ما أكرمه !!

وقوله عز وجل يعنّف الكفار، ويعجّب نبيه عليه السلام من كذبهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥)﴾ [فصلت]. فلو كان في آذانهم وقر لم يسمعوا دعاء النبي صلى الله عليه لهم إلى الاسلام، ولم يجز أن يخاطبوه ولا يردوا عليه هذا القول، وهم لم يسمعوا قوله حين دعاهم. فهذا أوضح شاهد عليك.

وقال الله عز وجل في أهل النار: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾ [الأنبياء]، فإن كان هذا القول على ظاهر الآية أن أهل النار لا يسمعون عندكم أيها المجبرة، فهو خير لهم أن لا يسمعوا ما فيها من البلايا والأهوال، والأصوات المنكرة المكروهة، وأصوات السلاسل والأغلال، وما فيها من الأنكال.

فإن قلت: إنهم فيها لا يسمعون وحقّقت ذلك، لأن يجوز كذبك، أكذبك الله جل ثناؤه في القرآن المبين، حيث يقول ويوجب أن أهل النار يسمع بعضهم بعضا، فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ [غافر: ٤٧]، ﴿مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١)﴾ [إبراهيم][١]. فقد صح وثبت أن هذا قولُ مَن يسمع بعضهم عن بعض[٢]، ولو كانوا لا يسمعون ما تحاجوا، ولا فهم

(١) في (أ) و (ب): جمع الإمام الناصر بين الآيتين وجعلهما آية واحد وهما آيتان من سورتين كما ترى. أو لعله سهو من الناسخ.

(٢) في (ب): بعضهم بعضا.

بعضهم عن[1] قول بعض، وإنما عنى أنهم لا يسمعون فيها شيئا من الرحمة ولا الخير.

وقوله: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١)﴾ [الكهف]، إنما يعني بذلك: أنهم لا يريدون استماع الحق ولا الرغبة فيه، ولم يستعملوا استطاعتهم في طلبه، كما قال جل ثناؤه: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١]، والله عز وجل لا يُذكَر بالأعين، وإنما يذكر بالألسن. وهذا دليل على أن القوم المجبرة إنما هلكوا في الدين من جهلهم بمعاني اللغة العربية، وإعراضهم عن الأئمة الذين استخلفهم الله عز وجل على عباده وبلاده، وجعلهم ورثة لنبيه صلى الله عليه وعليهم.

ومن الحجة على ما قلنا في معرفة اللغة العربية، قول الشاعر:

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيا ... ولكن لا حياة لمن تُنادي[2]

يعني بذلك: الأحياء الذين لا يريدون استماعه ولا القبول عنه. فقال: ولكن لا حياة لمن تنادي، وفيهم الحياة موجودة. فافهم معاني اللغة العربية كيف تتصرف.

ثم قال في صفة الميت الجائز عند العرب في لغتها، ما يروى عن قيس بن عاصم التميمي ثم المنقري، وهو الذي وفد على رسول الله صلى الله عليه، فقال فيه رسول الله صلى الله عليه: ((هذا سيّد أهل الوبر))، فلما حضرته الوفاة دعا بناته وحامّته فقال لهم: لا أسمعن من يندبني ويبكي عليّ بعد موتي[3]. فجاز هذا في لغة العرب، والميت لا يسمع بكاءً ولا غيره.

---

(١) سقط من (ب): عن.

(٢) البيت لبشار بن برد، انظر ديوانه.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ج١/ ص٣٣٠/ ح٩٥٣، و الحاكم في مستدركه ج٣/ ص٧٠٨/ ح٦٥٦٤، والطبراني في معجمه الكبير ج١٨/ ص٣٤١/ ح٨٧٠، والحارث / الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج١/ ص٥٣٠/ ح٤٧١.

وقال الشاعر في تصديق ذلك:

لا أسمعنَّكَ بعدَ الموتِ تندُبُني ... وفي حياتي ما زوَّتني زادا[١]

وقال عمارة بن عقيل التميمي يحضّ قومه على المواصلة وترك القطيعة:

فدُونكُما يا ابنَي نزارٍ تلافياً ... كما لُفِّقَ البُرْدُ اليَمانيُّ بالبُرد

ولا تُسمعاني الزور في الهام هامتي ... ترَاميكُما بالنَّبلِ وبَحكُمَا بَعدي[٢]

فقال: ولا تسمعاني تراميكما بالنبل وبحكما بعدي، وهو قد علم وعلمت العرب أنه لا يسمع بعد الموت، ولكن جاز ذلك في لغة العرب التي لا يقوم بمعرفتها إلا أهل العلم.

وإنما غلط هؤلاء المجبرة في دينهم، وكذبوا على ربهم، وألزموه ذنوبهم وخلق أفعالهم، لجهلهم بما ذكرنا من لغة العرب ومعاني القرآن، الذي خاطب به رسول الله صلوات الله عليه قومه الفصحاء البلغاء.

فافترَتْ المجبرة على الله عز وجل، وتأولوا كتابه على مبلغ عقولهم، وتعلّقوا بالمتشابه الذي لا علم لهم بتأويله، وزعموا أنهم أُتوا في ذنوبهم، ودخل عليهم البلاء من قِبَل ربهم، وكذبوا عليه سبحانه، وزعموا أنا نحن المفترون عليه عز وتعالى !!

ومن الحجة عليك في اعتلالك علينا بقول الله عز وجل: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١)﴾ [الكهف]، فنقول لك: ما تقول في قول الله عز وجل يخبر عن أهل النار، إذ قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾[الأنبياء]؟ أتقول: إن هذا القول على

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص، ورد في ديوانه هكذا: لا أعرفنك...

(٢) البيتان لأبي الأخيل العجلي لحق آخر أيام بني أمية. وردا في ديوانه هكذا:

فأوصيكما يا ابني نزار فتابعا ... وصية مفضي النصح والصدق والود

فلا تعلمن الحرب في الهام هامتي ... ولا ترميا بالنبل وبحكما بعدي

حقيقة لا مجاز له ولا تأويل فيه؟! وتقول: إنهم صمّ، لا يسمعون قليلاً ولا كثيرا؟!

فإن قلت: نعم، كذلك أقول، أكذبك الله حيث يقول: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨)﴾ [غافر]، وليس بدّ للمحتاجين أن يسمع بعضهم بعضاً. وكفى بهذه الحجة فاضحة لك !!

ومن الحجة لنا عليك أن نقول لك: أخبرنا عن قول الله جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، حين قال له يعاتبه على إذنه للقوم الذين أذن لهم، فقال له: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)﴾ [التوبة]. فنقول لك: هل كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله يستطيع ويقدر أن لا يأذن لهم؟!

فإن قلت: نعم، لزمك أنك قد رجعت عن قولك، وبطل احتجاجك، في أن الاستطاعة مع الفعل، وصرت إلى الحق وهو قولنا.

وإن قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله لم يكن يستطيع ولا يقدر أن لا يأذن لهم إلا مع الفعل، لزمك أن الله عز وجل قد عاب عليه وعنّفه. في أمر لم تكن له عليه استطاعة ولا مقدرة، وهذا أعظم الجور وردّ للقرآن، إذ يقول: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، و ﴿إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

ثم نقول لك: أخبرنا عن قول الله عز وجل لنبيه داود صلى الله عليه: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [ص: ٢٦]، أليس قد قال عز وجل هذا القول لداود صلى الله عليه؟

فإن قلت: نعم.

قلنا لك: فهل أمره الله من الحكم بالحق وترك الهوى، بما يقدر عليه ويملكه، وهو له مستطيع قبل فعله؟!

فإن قلت: نعم، تركت قولك وصرت إلى قولنا.

وإن قلت: لا، لم يكن داود يستطيع الحكم بالحق، ولا ترك اتباع الهوى، إلا مع الفعل لذلك، لزمك أن الله عز وجل قد كلّف داود ما لا يطيق ولا يملك ولا يقدر عليه، وليس هو موجوداً في بنيته، وأن قوله: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، و ﴿إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧]، باطل لا يصح، وليس له حقيقة. وهذا أعظم الكفر والخروج من الاسلام جملة.

وكذلك يلزمك في جميع ما أمرتْ به الأنبياء من هذا النحو، على الأمر لها بالفروض اللازمة لها وللأمم، ولو كان هؤلاء القوم الذين ذكرت أنهم لا يستطيعون سمعاً على ما توهّمت وذهبت إليه من الجبر والفرية على خالقك، جل الله عما قلت !! لَمَا لَزِمتُهم لله عز وجل حجة، ولا كانت عليهم له مطالبة، إلا أن تقول: إن الأصمّ تلزمه الفرائض التي هي من طريق السمع.

فإن قلت كذلك، أكذبك جميع أهل القبلة، لأن الأصمّ لا حجة عليه في الفرائض التي هي من قبل الأمر المسموع من القرآن وغيره، مما لا يُدرك في الدين إلا من جهة المسموع، وكفى عليك بهذا القضاء فضيحة في دينك، فقد بان خطأؤك وغلطك، فيما سألت عنه وذهبت فيه إلى الجبر، وفارقت العدل !!

ولو كانوا لا يستطيعون سمعاً على ما ذهبت إليه، لبطل قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾[الإسراء]، ولا يجوز بعثه الرسل إلى مَن لا يسمع قول الرسل، وهذا واضح لا يقدر له أحد على ردّ، وفيه الكفاية الكافية، والحمد لله رب العالمين.

ومن الحجة عليك في أن الاستطاعة قبل الفعل، قوله عز وجل: ﴿وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

ألا ترى أنهم لو أرادوا النكاح قبل بلوغ الكتاب أجله لأمكنهم ذلك، ولإمكانه لهم ومقدرتهم عليه، ووجود الاستطاعة فيهم قبل فعله، افترض الله عز وجل عليهم أن لا يعزموا على النكاح ولا يفعلوه حتى يبلغ الكتاب أجله، وهو وفاء العدة وبلوغ الأمد، وهذا أقطع ما يكون لكم في قولكم: إن الاستطاعة مع الفعل.

ومن الحجة لنا عليك في أن الاستطاعة قبل الفعل، قول الله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾ [المائدة]، فقال الله عز وجل: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)﴾ [المائدة].

أفلا ترى أيها المغرور في دينه كيف أخبر الله عز وجل أن نفسه هي التي طوّعت له قَتْلَ أخيه، وأن الله لم يرد ذلك ولم يخلقه ولم يقدّره، وأن الاستطاعة مع كليهما موجودة قبل فعلهما، مُقرين بذلك ومصدقين بها، فنزل هذا القرآن غير مكذّب بقول هذا لصاحبه: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، لعلمه أنه قادر على قتله قبل فعله، وقول الآخر: ﴿مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ﴾، لعلمه أنه قادر على قتله قبل فعله، فلذلك كفّ وتورّع.

ولو كان يعلم أنه لا يقدر على ذلك، لم يجز على الله جل ثناؤه أن يخبر عنه ويصوّبه في فعل ما لا يقدر عليه، والله بريء من فعل الذي قتله، ولذلك صار القاتل ظالماً متعدياً، إذ لم يكفّ استطاعته عن الظلم واستعمالها في الفساد، وأمسك الآخر ولم يعجل إلى القتل الذين له فيه استطاعة وهو له ممكن من قبل فعله، وهذا خبر الله عز وجل، وهذا كتابه ينطق بخلاف قولك: إن الاستطاعة مع الفعل.

وفي هذه الآية من الحجة عليك في إثبات العدل، وبراءة الله عز وجل من قتلِ

مَن قُتل مظلوما، قوله عز وجل: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)﴾ [المائدة]، ولم يقل: فقضيتُ عليه قتل أخيه، ولا أردته منه، ولا خلقت فعله، وكان من ندامته أنه لبث[1] يحمله فيما يقال على عاتقه مائة عام، لا يدري كي يصنع به، ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾ [المائدة][2].

ثم قال الله عز وجل على أثر هذا، مثبتاً للعدل، ومبرئاً لنفسه من الظلم: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

أفلا ترى كيف ندم ابن آدم ولام نفسه، على أنه لم يدفن أخاه، وقد كان الدفن يمكنه قبل فعله وهو مستطيع له، ولذلك قال: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾، لعلمه أنه قد كان قادراً مستطيعاً أن يدفن أخاه، ولو كان لا يستطيع دفنه ما قال: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ﴾، ولا يجوز أن يخبر الله عز وجل عنه بما لا يكون، وكيف يتلهّف على أمر لم يكن يستطيعه إلا مع فعله؟! وكيف يحكي الله عز وجل خبراً لا يصحّ ولا يجوز في المعقول، ولا يستطيعه الناس إلا مع فعلهم له؟!

فاعرف قدر هذه الحجج القاطعة لك، ففيها كفاية لمن عقل، والحمد لله رب العالمين.

ومن الحجة في أن الاستطاعة قبل الفعل، قول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ

---

(١) في (أ): أن لبث يحمله. وفي (ب): أنه يحمله. ولفقت النص منهما معاً.

(٢) انظر الدر المنثور ٣/ ٦٠ – ٦٣.

بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، ففي هذه الآية دليلان اثنان على أن الاستطاعة قبل الفعل.

ألا ترى أنه أمر النساء أن لا يضربن بأرجلهن، لمَّا علم أن معهن استطاعةَ الضرب بالأرجل من قبل أن يفعلن، فافترض عليهن أن لا يضربن بأرجلهن، ولو لم تكن معهنّ استطاعة الإمساك عن الضرب بأرجلهن، لم يفترض عليهن أمراً لا يقدرن عليه، وتكليف ما لا يُطاق، عزّ الحكيم العادل عن ذلك !!

وكذلك قوله: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾، فلم يكن ليأمرهم عز وجل ويفترض عليهم التوبة من قبل أن يجعل لهم السبيل إليها، ويمكّنهم منها، وأكبر الشاهد لنا على ذلك، قوله عز وجل: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤]، ويلومهم – كما تسمع[1] – على ترك التوبة التي هي ممكنة لهم إن أرادوها، فهذا أكبر دليل وأقوى حجة، ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١)﴾ [يونس]. أهذا ويحك قول من حال دون التوبة والايمان؟! فسبحان الله العظيم!!

ومن الحجة في أن الاستطاعة قبل الفعل، قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥)﴾ [الأنفال]، فهذا يوجب أنهم كانوا يستطيعون أن لا يولُّوا الأدبار من قبل الفعل، ولولا ذلك ما قال عز وجل: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ﴾ [الأنفال: ١٦]، فلم يكن الله ليغضب عليهم في أمر لا يستطيعون إليه حيلة.

ومن الحجة لنا في إثبات العدل، وأن الله عز وجل لا يعذب أحداً إلا بظلمه وجرمه وإثمه، وغشمه واختياره، قوله عز وجل: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾[النمل: ٥٢]، ولم يقل: بما قضيت عليهم وقدَّرت وأردت.

---

(١) سقط من (ب): كما تسمع.

وقد روي عن كعب الأحبار رحمه الله أنه قال: قرأت في الكتب السالفة الأولى: ومن يظلم نخرب بيته[1]، فكنت على ذلك فينة من دهري، حتى بُعث النبي محمد صلوات الله عليه وعلى آله، فلما سمعت به سرت إليه وأسلمت، وأقمت عنده وتصفحت ما نزل عليه من القرآن، وطلبت نظيراً لتلك الآية التي وجدتها في التوراة فلم أجد، فبينا أنا على ذلك، إذ نزل عليه صلوات الله عليه هذه الآية ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾.

فالله عز وجل لا يؤاخذ أحداً من جميع خلقه إلا بعد ظلم وذنب بدأ به هو، واكتسبه واختاره بعد النهي عنه، والدعاء إلى غيره من الطاعة، ولم يُرد منهم عز وجل أن يكفروا ولا أن يُدْبروا عن أمره. ألا تسمع إلى قول نوح صلى الله عليه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩)﴾ [نوح]، ثم قال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣)﴾ [نوح].

أفلا تسمع إلى هذا القول العجيب، والحكمة البالغة، وأين هذا من دعواك يا عبد الله بن يزيد البغدادي وإخوانك المجبرة، التي أسندتم فيها إلى خالقكم أنه أراد الكفر من الكفار، جرأة على الله جل ثناؤه، وتعامياً عن كتابه، ومكابرة للعقول، وميلاً إلى تقليد الرجال، بلا حجة ولا بصيرة، ولا شاهدٌ من كتاب الله عز وجل، إلا ما تعلقت به من المتشابه في القرآن، الذي جهلتَ تأويله، فقد علمت ما ورد عليك في كتابنا هذا، من الكسر لحجّتك، واستشهاد القرآن عليك، والحجة الواضحة التي لا مخرج لكم منها أيها المجبرة أبدا.

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ

(١) بحار الأنوار ٧٢/ ٣٢١.

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ (٧)﴾[آل عمران].

فقال قوم: إن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل الكتاب، جهلاً منهم وبلاءً.

لعمرُ الله إن الراسخين ليعلمون تأويل الكتاب، وما تحتاج إليه الأمة من أمر دينها الذي تعبَّدها الله عز وجل به، ولولا ذلك لم يجب لهم اسم الرسوخ في العلم، لأن من لم يعلم تأويل القرآن، لا يجب له اسم الرسوخ في العلم، وإلا ففيما رسخ إذا لم يعرف تأويل القرآن !!

فأولئك هم أئمة الهدى من أهل بيت النبوة عليهم السلام، والراسخون في العلم هم أهل التنزيل والتأويل، ولو لم يكن عندهم علم الكتاب، لما جاز أن يقول الله جل ثناؤه في كتابه: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]، والذكر فهو محمد صلى الله عليه وعلى آله، ودليل ذلك قول الله عز وجل: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ [الطلاق]. فصار الذكر هو الرسول، وهذا ما لم يُدفع. فصار أهل البيت عليهم السلام هم[١] المأمورُ الخلقِ بسؤالهم، ولم يكلَّفوا أن يسألوا عبد الله بن يزيد البغداذي، ولا عبد الرحمن بن خليل، ولا عبد الكريم بن نعيم، ولا مسلم بن [أبي] كريمة، ولا عبد الصمد، ولا المعلم، ولا نجدة بن عامر، ولا أبا مؤرج السدوسي[٢].

إلا أن يدّعي عبد الله بن يزيد البغداذي وهؤلاء النفر الذين سمينا أن جبريل صلوات الله عليه كان يهبط على جدهم وفي بيوتهم، فدرجوا بين التنزيل والتأويل،

(١) سقط من (أ): هم.

(٢) في (ب): مروح.

وغذاهم الرسول وناغاهم، وأظلّهم بجناحه الأمين، ونزل فيهم من الله عز وجل ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣][1]. فإن صح ذلك، فهم أولى وأحقّ أن يُسألوا. وإن لم يصحّ فغيرهم أولى بالمقام، وأحقّ بالذبّ عن الاسلام، والقيام بالأحكام منهم.

---

(١) نزلت في أهل البيت. أخرجه ابن جرير في تفسره ٢٥/ ١٦ عن سعيد بن جبير، وعن عمرو بن شعيب أيضا ٢٥/ ١٧.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن جابر ٣/ ٢٠١.

وأخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد، وابن مردويه، عن ابن عباس، وأبو نعيم، والديلمي عن مجاهد عن ابن عباس، وسعيد بن منصور، عن سعيد بن جبير. وابن جرير، عن علي بن الحسين زين العابدين. الدر المنثور ٧/ ٣٤٧ - ٣٤٨.

وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٧٢، والقندوزي في ينابيع المودة (الباب ٥٨/ ٣٢٣ ٣٢٤) وقال: أخرجه الطبراني في الكبير، والأوسط، وأخرجه البزار.

وأخرجه الطبراني في الكبير١/ ١٢٦، ٣/ ١٥٥ ١٥٦، ورواه الكنجي في كفاية الطالب عنه، الباب (١١/ ٩١).

وأخرجه ابن المغازلي الشافعي في المناقب/ ٣٠٧ ـ ٣٥٢.

والطبري في ذخائر العقبى/ ٢٥، ١٣٨، وقال: أخرجه الدولابي.

ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٤٦ عن أبي الطفيل. وقال أخرجه الطبراني، وأبو يعلى، والبزار، وأحمد.

ورواه ابن حجر في الصواعق المحرقة/ ١٠١، وقال أخرجه البزار والطبراني.

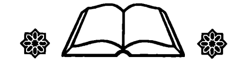
وأخرجه السيد أبو طالب في الأمالي/ ١٢٠، والمرشد بالله في الأمالي ١/ ١٤٨.

ورواه في أسد الغابة ٥/ ٣٦٧، والزمخشري في الكشاف عند تفسير الآية.

والشبلنجي في نور الأبصار/ ١٠١، والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ٢/ ١٣٠ ١٤٦ برقم (٨٢٢ ٨٤٤)، وأخرجه ابن عساكر ترجمة الإمام علي ٣/ ٤٣ (١٨١).

ورواه الطبرسي في مجمع البيان ٩/ ٢٩، ورواه في تاريخ اصبهان ٢/ ١٦٥، ورواه الطوسي في أماليه رقم (٤٠) من المجلس (١٠)، ورواه البلاذري في أنساب الأشراف ٢/ ٧٥٤.

فهذا جوابنا لعبد الله بن يزيد البغداذي على مسائله، ومن وصل إليه هذا الكتاب، ولم يوضحه للناس ويبينه للمسلمين، فهو في أعظم الحرج، حتى يكون الله جل ثناؤه هو المطالب له يوم القيامة بما كتم من الحق، قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)﴾ [البقرة]، والله عز وجل حسيب من ظلم، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ [الشعراء].



ولعل هذا
الكتاب أيضاً
هو كتاب
علوم القرآن
للإمام
الناصر (ع)
اهـ

الرد على الأباضية

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله وحده، وصلواته على محمد وآله.

قال الإمام الناصر لدين الله عليه السلام: فهمنا ما ذكرت يا أبا محمد - أكرمك الله - مما ذكر لك الأباضية في شأن مسائلهم التي سألوك وساءلتنا أنت - أعانك الله - أن نجيبهم عليها، وزدت أيضا فيها شرحا لم يدخل في سؤالهم، فقويت ذلك ليتسع لك الجواب، وتستفيد ما يصل بك من جوابنا في ذلك إن شاء الله، وذكرت أن الأباضية طلبوا أن يكون الاحتجاج والدليل في جواب مسائلهم من اللغة العربية، ومن أشعار العرب الأوائل الجياد المعروفة المستشهدة لا من غير ذلك، وزعمت أنهم أرادوا بذلك امتحان أهل الحق، ولأن يعرفوا ويخبروا ما عندنا من المعرفة بلغة العرب وأشعارهم، وتعنتوك في ذلك على ما ذكرت، ولم يحبوا زعموا أن يكون جوابنا من استشهاد القرآن، بعضه على بعض، وأنهم مكتفون بما عندهم من أسلافهم ومشايخهم، وأنهم لو أرادوا ما أعجزهم، وإنما أرادوا مخارج الجوابات ودلائلها من اللغة العربية وأشعار العرب المتقدمة، ولأنه قد بلغهم في الروايات أن عبد الله بن العباس رحمة الله عليه قال: إذا أشكل عليكم شيء من القرآن فاطلبوه في أشعار العرب، واحتجوا في طلبهم التفسير باللغة بقول الله عز وجل: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٥]. وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم:٤]. وبقوله سبحانه: وقالوا ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:١٠٣]. ونحن نريد أن نستفيده من حيث ذكره الله سبحانه، ولا نريد الجواب فيه إلا من اللغة والشعر القديم العربي.

واعلم يا أبا محمد - حاطك الله - أن هؤلاء القوم إنما أرادوا تعنيتنا، وأن يدروا

ما عندنا من المعرفة باللغة، والذي نذهب إليه ونحبه في التفسير في أن تكون الحجة منا في التفسير بشواهد من كتاب الله عز وجل على كتاب الله، ولا بد مع ذلك من الاستشهاد للغة والشعر، ونحن - بحول الله وقوته - نجيبك في ذلك بجواب ما سألوا من اللغة والشعر، نتوخى فيه صوابا، ونرجو من الله سدادا، ولا بد لنا أن ندخل في ذلك من شواهد الكتاب ما لا ربد منه، ولا يستغنى عنه مما يبين الله سبحانه به الحق ويزهق به الباطل، وترغم به أنف المخالفين بحوله وقوته، وإن كنت في وقتي هذا من الغم والهم بفراق الإمام صلوات الله عليه فيما أقل منه أذهل العقل وشغل القلب، غير أني أرجو من الله سبحانه العون والتسديد لما يحبه من الرشاد، وإرغام الظالمين من أهل العناد، والتمادي في الباطل والفساد، وقد أجبناك - أتم الله نعمك - في كل ما سألوا عنه من اللغة والشعر، فافهمه وقف عليه، ثم أنفذه إليهم بحول الله وقوته.

بسم الله الرحمن الرحيم

١) سألت - أكرمك الله - عن قول الله سبحانه: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝﴾ [الكهف:٧٩]. وقلت: فما عليهم والملك قد صار وراءهم ونجوا منه، وإنما كان الخوف يقع عليهم لو كان الملك قدامهم؟!

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: هذا من أضداد الكلام الجائز في لغة العرب، وذلك أن العرب تسمي القدام: وراء، ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝﴾ [إبراهيم:١٧]. يقول بين يديه، ولو كان العذاب وراءهم كما ظننت لكانوا قد سلموا منه، والعرب تكلم بهذا وتكثر، قال لبيد بن ربيعة الكلابي:

ألـيس ورائـي إن تراخـت منيتـي لزوم العصا تحنى عليهـا الأصـابع[1]

يريد: أليس بين يدي الهرم والضعف والكبر، فَصَيَّره وراءه وهو بين يديه.

٢) وسألت فقلت: وما يدخل على المساكين من عيب السفينة؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: إن الملك كان يأخذ كل سفينة جيدة لها قدر، فأراد العبد الصالح عليه السلام أن يعيبها حتى لا يرغب فيها الملك، فإذا جاوزه أصلحها.

٣) وسألت عن معنى قوله: ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ [الكهف: ٨٠]؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: ﴿فَخَشِينَآ﴾ هاهنا يخرج على فكرهنا، لأن الله عز وجل لا يخشى.

٤) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿ ٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ [طه: ٩٧]. فقلت: كيف جاز أن يسميه إلها وليس هو بإله؟!

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: المعنى في ذلك على التوقيف والتقريع والتوبيخ، يقول إنه إلاهك زعمت عند نفسك، مثل قوله في موضع آخر: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩]. يريد به التوقيف والتوبيخ.

قال قيس بن زهير العبسي:

---

(١) البيت للبيد العامري، لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري، من أهل عالية نجد، أدرك الإسلام، يعد من الصحابة ومن المؤلفة قلوبهم، وترك الشعر فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، هو قوله: الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى الكتسيت من الإسلام سربالا

سكن الكوفة، عاش عمرا طويلا، وهو أحد أصحاب المعلقات.

قـال البقيـل يـا قـيس فقلـت لـه اصبر حذيف فأنت السيد الصمد

فقال له هذا القول وهو يقتله ويسميه: صمدا، أي أنك السيد الصمد بزعمك، والصمد في اللغة فهو المقصود المعتمد.

٥) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء:٣٧]. فقلت: كيف خلق من عجل والعجل هو منه؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: إن أهل اللغة يقولون: إن مجاز ذلك مثل قولهم: عَرَضَ الدابةَ على الماء، يعني الماء على الدابة، ومثل قولهم: عرض المعلم على الصبي، أي استعرضه المعلم، وقولهم: إذا لقيك الجبل فخذ يمينك، يعني عن يمينك، وفي القرآن: ﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ ﴾ [القصص:٧٦]، والعصبة هي التي تنوء بالمفاتيح.

٦) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٢١، القارعة:٧]. فقلت: كيف يكون العيشة راضية، وينبغي أن تكون مرضية؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: هذا جائز في لغة العرب، مثل قولهم للناقة: راحلة وهي مرحولة، ومثل قولهم: رجال حالقة رؤوسها، قال الشاعر:

تفلـق عنـد هـادي الـورد منهم رؤوسـا بـين حالقـة ووفـر[1]

يريد محلوقة ووافرة.

وقالت أم ناشر تخطي رأيه في قتل رجل قتله من العرب بعد إحسانه إليها:

قتلت رئيس الناس بعد أخـي النـدى كليـب ولم تشـكر وإني لشـاكرة

---

(١) لم أقف عليه.

لقـد عيـل الأيتـام طعنـة نـاشر أنـاشر لا زالـت يمينـك آشرة[١]

يعني موشورة بالميشار، وهذا كثير موجود في كلام العرب، فاعلم ذلك إن شاء الله.

٧) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ [النحل:٩]. فقلت: كيف يكون من سبل الله شيء جائر؟!

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: قد كنت سألتني وأنا حدث في حياة الهادي إلى الحق عليه السلام، فأجبتك بما أنا مجيبك به الآن إن كنت قد نسيت الجواب الأول فافهمه إن شاء الله.

قال عليه السلام: إن سبل الله جل ثناؤه ليست بجائرة، ولا منها شيء جائر، وإنما عنى الله تبارك وتعالى أن من الخلق من يجور عنها بظلمهم واختيارهم، فالجور منهم هم عن سبيل الله عز وجل، ولم يجعل تبارك وتعالى شيئا من سبله جائرا ولا غامضا.

٨) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف:١٤٦]. فقلت: إذا صرف الناس عن آياته فما حيلتهم في ذلك؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: إن الأمر ليس على ما ذهبت إليه، وإنما المعنى في ذلك أنه عز وجل أنه يصرف عن آياته الأعداء والمعاندين والمفسدين، حتى لا يكيدوها بكيد، ولا يقدرون لها على فساد، بقوله عز وجل: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت:٤٢].

(١) لم أقف عليها.

٩) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام:٣٨]. وقلت: إن الطيران لا يكون إلا بجناحين، وإن العرب تستغني بذكر الطائر وتكتفي باسمه عن ذكر جناحين، فما معنى ذلك؟

قال عليه السلام: هذا تأكيد للكلام، وهذا موجود في لغة العرب، يقول الرجل لصاحبه: قد جئتك بنفسي، ومشيت إليك برجلي، وكلمتك بلساني، ونظرت إليك بعيني، وسمعتك بأذني، وأعطيتك بيدي، وكل هذا كان سيجزي فيه كلمة واحدة، لو قال: جئتك، أجزأ عن قوله: بنفسي، ولو قال: مشيت إليك، أجزأه عن قوله: برجلي، ولو قال: كلمتك، أجزأه عن قوله: بلساني، وكذلك سائر الكلام على هذا المثل، فافهمه إن شاء الله تعالى.

وقال الله عز وجل: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة:١٩٦]. فقد علموا أن ثلاثة وسبعة عشرة.

١٠) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة:١-٢]. فقلت: ما معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾. كأنه يشير إلى كتاب غائب لما قال ذلك الكتاب؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: إنما عنى تبارك وتعالى: هذا الكتاب ولم يشر إلى كتاب غائب، وذلك ومثله موجود في لغة العرب، ألم تسمع إلى قول الشاعر:

أقول له والرمح يأطر متنه ... تأمل خفافا إنني أنا ذلكا[1]

فقال: إنني، فأشار إلى نفسه، ثم قال: ذلك، يعني نفسه أيضا، فجاز ذلك إذ كان القول لا عيب فيه عند العرب المخاطبين.

---

(١) البيت لخفاف بن ندبة السلمي خفاق بن ندبة بن عمير الحارث بن عمرو الشديد بن قيس بن عيلان السلمي، أدرك الإسلام، فأسلم وشهد فتح مكة، وغزوة حنين، والطائف، هو ابن عم الخنساء الشاعرة.

١١) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾[الشعراء:١٠٦]. فقلت: كيف جاز أن يكون أخا لهم وهم كفار، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠]. وليس الكفار إخوة للمؤمنين؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: إنما تلك تخرج على أنه أخوهم في النسب، لا على أنه أخوهم في الديانة، فافهمه إن شاء الله.

١٢) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾[القصص:١٠]. فقلت: ما معنى ذلك؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: في هذه المسألة قولان: أما أحدهما فإنه يقول فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام. والقول الآخر فإنه قال: فارغا من كل شيء إلا من العهد الذي عَهِدَ الله عز وجل إليها، والوعد الذي وعدها إياه من قوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾[القصص:٧].

١٣) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝﴾ [التوبة:٥٥]. فقلت: فقد نراه يخرج من دار الدنيا وهو معاند لله عز وجل، ولم تنكبه نكبة، ولم يعذب بعذاب، وله المال الكثير والأولاد؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: هذا كلام يخرج على التقديم والتأخير فافهمه، كأنه قال: ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، فقدم وأخَّر، والتقديم والتأخير موجود في لغة العرب، قال أوس بن حجر:

أمَّا حِصَانٌ فلم عُجب بكلّتها ... قد طفت في كل هذا الناس أحوالي

علـى امـرئ سرقـة ولا ملـك أنـذى وأكمـل منـه أي إكـمال[1]

يريد: فلم يضرب بكليها على امرئ سوقة، فقطع بين الكلام بنصف بيت للتقديم والتأخير.

وقال الأخطل التغلبي:

إن الفـرزدق صـخرة عاديـة طالـت فلـيس ينالهـا الأوعـالا

يريد الصخرة طالت فليس الأوعالا تنالها.

وقال ذو الرمة:

كـان أصـوات مـن إيغـالهن بنـا أواخر الميس أنقاض الفـراريج[2]

وإنما أراد: كأنها أصوات الميس، فقدم وأخر، فافهم هذا الباب إن شاء الله.

١٤) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ ﴾ [يونس:٢٢]. فقلت: كيف جاز أن يقول: ﴿ كُنتُمۡ ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ بِهِم ﴾؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: ذلك جائز في لغة العرب، معروف في خطابها وأشعارها. قال أبو طنير الهذلي يرثي رجلا:

يا ويـح نفسـي صـار جـدة خالـد وبياض وجهك للـتراب الأعفـر[3]

---

(١) البيت لأوس بن حجر بن مالك التميمي أبو شريح، شاعر تميم في الجاهلية، أبوه حجر هو زوج أم زهير بن أبي سلمى.

(٢) البيت لذي الرمة غيلان بن عقبة ابن نهيس بن مسعود العدوي من حضر من تحول الطبقة التاليه في عصره، عشق (مية) المنقرية، واستهديها نوف بأصبهان، وقيل بالبادية.

(٣) الذي في الموسوعة يا لهف نفسي كان جدة خالد وبياض وجهك للتراب الأعفر.

البيت للشاهر: أبو كبد الهذلي عامر بن الحليس الهذلي، شاعر فحل من شعراء الحماسة، قيل أدرك الإسلام، وأسلم وله خبر مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ولم يقل: وبياض وجه خالد في أول الكلام كأنه يخاطب غيره، وفي آخره كأنه يخاطبه هو دون غيره، فاعلم ذلك إن شاء الله.

١٥) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾[يونس:٨٩]. وقلت: إنما كان الداعي موسى عليه السلام وحده فصار الخطاب لاثنين؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: قد بلغنا أن موسى صلى الله عليه كان يدعو وهارون عليه السلام كان يؤمن على دعا موسى، فلذلك صارت الدعوة لكليهما صلوات الله عليهما.

١٦) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۝﴾ [هود:٦٣]. فكيف يجوز هذا القول؟! أكانوا يزيدون النبي صلى الله عليه تخسيرا وهو غير خاسر؟!

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: إنما المعنى في ذلك أنه يقول: فيما تزيدونني غير تخسير لكم، وغير تضليل لكم، وسوء قول فيكم.

١٧) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [العنكبوت:٢٢] وبنوا آدم لا تكون في السماء؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: إنما يعني بقوله: ﴿ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾. أي: ولو كنتم في السماء ما أعجزتم.

١٨) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١]. فقلت: ما معنى ييئسوا هاهنا؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: يقول ألم توقنوا، وذلك جائز في لغة العرب، لأنها نقلت أشياء في كلامها، وتصرفها إلى ضدها من الكلام، قال الشاعر:

ألم يـــأيس الأقـــوام أني أنـــا ابنـــه   وإن كنت عن أرض العشـيرة نائيـا[(١)]

وقال حريث بن جابر وكان من رجال أمير المؤمنين صلوات الله عليه بصفين:

أقـول لهـم بالشـعب إذ يـأسرونني   ألم تأيسـوا أني حريـث بـن جـابر[(٢)]

يريد: ألم توقنوا.

١٩) وسألت عن الحجة أن الاستطاعة قبل الفعل لا معه، وطلبت فيه زعمت حجة واضحة تستغني بها، وتقطع الخصوم إن شاء الله؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: الدليل على أن الاستطاعة قبل الفعل قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة:٢٨٢]. فأخبرنا عز وجل أن وليه قد يستطيع الإملاء، والإملاء معدوم لم يوجد بعد، ولو كان الولي كما هذا الآخر لا يستطيع لم يكن للآية معنا، ولكان تأويله إن لم يستطع أن يمل هو فليملل وليه الذي لا يستطيع أيضا، والله عز وجل متعال متقدس عن قول هذا ومخرجه وسبيله.

ومن الدليل على ذلك أيضا أنه لو كان الأمر على ما ذكره القوم المخالفون لنا أن الاستطاعة مع الفعل تحدث في حال الفعل، لكان الكافر لا يؤمن به أبدا حتى تأتيه استطاعة الإيمان، وكانت الاستطاعة لا تأتيه أبدا وهو كافر، ولو كان هكذا ما جاز أن يؤمن كافر بوجه من الوجوه.

ألا ترى أن رجلا لو كان في جوف بئر فقيل له: إنك لا تخرج من هذه البئر أبدا حتى تؤتى بحبل، ولن تؤتى بحبل ما دمت في البئر، لما جاز أن يخرج هذا الرجل من

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

تلك البئر أبدا، على هذا الشرط بوجه من الوجوه كذلك، فإذاً الكافر لا يؤمن أبدا حتى يؤتى باستطاعة الإيمان وهو كافر، لأن الكافر لا يستوجب من الله عز وجل المادة ولا المعونة ولا لطائف الصنع، وإنما على الرسل والأئمة عليهم السلام الدعاء إلى الله عز وجل وعلى الخلق أن يجيبوهم، لأن معهم الاستطاعة على ذلك، والكلام في هذا كثير وفيما ذكرت لك كفاية بحول الله ومعونته.

٢٠) **وسألت** عن قول الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة:١٠٣]. فقلت: ما معنى قوله: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة:١٠٣]. فقلت: كيف يصلي النبي صلى الله عليه عليهم؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: الصلاة في هذا الموضع دعاء لهم بالخير والرحمة وما أشبه ذلك، والصلاة في لغة العرب فهي الدعاء، قال الأعشى البكري:

تقول بنتي وقد قربت مرتحلا ... يا رب جنب أبي الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتضمي ... يوما فإن لجنب المرء مضطجعا[1]

يقول: عليك مثل الذي دعوتِ لي به، وهذا غير منكر في لغة العرب، فافهم ذلك إن شاء الله.

٢١) **وسألت** عن قوله عز وجل: ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ [آل عمران:١٥٢]. فقلت: ما الحسن هاهنا وما معناه؟

---

(١) في الموسوعة بعد البيت الأول:

واستشفعت من سراة الحي ذا شرف ... فقد عصاها أبوها والذي شفعا
مهلا بني فإن المرء يبعثه ... هم إذا خالط الحيزوم والضلعا

عليك... إلخ.

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: إن الحس هو الضرب والقتل، وهو الحَس - بفتحة الحاء - والحِس - بخفضة الحاء - فذلك من طريق الحس مخفوظ، وهو الذي يحس الإنسان من الشيء الذي يؤنسه، تقول العرب: آنست صوتا في مكان كذا وكذا، يعني أحسست، وتقول العرب: أوجست كذ وكذا، وكل ذلك شيء واحد، إلا الحس الذي عنى الله عز وجل فإنه بفتح الحاء، وهو القتل والضرب الذي عنى الله عز وجل حين قال: ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ [آل عمران:١٥٢]. قال الشاعر:

نحسهم بالبيض حسا كأنه ... حريق لظى في غابة تتضرم[1]

والغابة أجمة القصب.

٢٢) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ [الأعراف:١٦١].

وقلت: كيف يجوز أن يكون الساجد داخلا، وكيف يدخل وهو ساجد؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: السجود هاهنا هو: الطاعة والخضوع، وذلك معروف في لغة العرب، يقول الرجل إذا رأى رجلا يطيع ملكا أو غيره: فلان اليوم يسجد لفلان، أي يطيعه وإن لم يسجد له بوجهه، قال الشاعر:

بجيش تضل البلق في حجراته ... ترى الأُكْمَ فيه سجدا للحوافر[2]

يقول: إن أكام الأرض مطيعة لحوافر الخيل.

٢٣) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ ﴾ [آل عمران:١٥٣].

فقلت: ما معنى هذا وكيف يثيبهم غما بغم؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: هذا القول يخرج على أن حروف الصفات

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في الموسوعة زيد الخيل الطائي.

يعقب بعضها بعضا، لأن الباء تقوم مقام على، يريد سبحانه: فأثابكم غما على غم، مثل قوله: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾[طه:٧١]. فقامت في مقام على، وذلك جائز في لغة العرب، قال الشاعر:

هُمُ صلبوا العبديَّ في جذع نخلة فلا عطست شيبان إلا بأجدعا[1]

ومثل ذلك قوله عز وجل: ومن أهل الكتاب ﴿ مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ ﴾ [آل عمران:٧٥][2]. أي على دينار، فقامت الباء مقام على، ومثل قوله عز وجل: ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ [الأنبياء:٧٧]. أي على القوم، فقامت مِن مقام على، وهذا يكثر عن أن نحيط به في كتابنا، وفيما أجبناك به كفاية إن شاء الله.

٢٤) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ [الإسراء:٦٤]. فقلت: كيف جاز أن يأمر الله عز جل بهذه الأشياء وكلها له معصية لا تجوز في العدل، وكيف يشارك الشيطان الناس في الأموال والأولاد؟

قال أحمد بن يحيى رضي الله عنه: إن ذلك جائز في اللغة العربية أن يخرج الكلام من المتكلم مخرج الأمر، ومعناه على خلاف ذلك الذي خرج عليه، وإنما هذا عندنا على الوعيد والتهدد، كنحو قول الرجل: اجهد جهدك واحمد جهدك، كل ذلك على الوعيد، وقد تقول العرب للرجل: اذهب اقتل فلانا واضربه بالسيف، على جهة الوعيد، وهم لا يحبون قتله ولا ضربه، ولا يريدون ذلك من الذي أمروه به، كقول أمير المؤمنين صلوات الله عليه لطلحة والزبير يوم عاتباه ثم أدبرا عنه: اذهبا

---

(١) في الموسوعة: قراد بن حنش الصاردي، شاعر جاهلي من شعراء غطفان، وكانت غطفان تأخذ شعره وتدعبه الزهير بن أبي سلمي.

(٢) في الأم: الآية هكذا: ﴿ ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بدينار ﴾، ولقد دمج بين أول الآية ووسطها.

فأخرجاها. يعني عائشة، وهو لا يريد أن يخرجاها من منزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا أن يخرجاها تحاربه، وهذا في اللغة كثير معروف.

وأما ما سألت عنه من مشاركته لهم في الأموال والأولاد، فإن ذلك ليس كشركة الآدميين، إنما ذلك كنحو قول السحرة لفرعون، ، ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه:٧٢] أي: اصنع ما أنت صانع، كل ذلك على الوعيد، وأما شركته في الأموال فهو أن تؤخذ بغير حقها، وأن يطاع الشيطان فيها، فإذا فعلوا ذلك فقد جعلوا شركاء في أموالهم.

وأما الأولاد فإذا نكحوا الحرام وولدهم من النكاح بمال الحرام، فقد أشركوا الشيطان في ذلك بطاعتهم، فصارت طاعته سببا للشركة في أولادهم.

٢٥) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢]. وقلت: فإن قال لنا قائل: وهل يجوز أن يكون بعضه غير شفاء؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله: إن القرآن شفاء، ومن في هذا الموضع قد تجوز على البعض وعلى الجميع، وذلك موجود في لغة العرب، تقول العرب، هل يجيء لنا من هذا الثوب قميص، أي من الثوب كله لا من بعضه، وكقول الله عز وجل: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة:١٢٥]. يريد مقام إبراهيم عليه السلام كله لا بعضه، وكقوله عز وجل[1]: يغفر بعضها ويعذب على بعضها. وكقوله عز وجل: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج:٣٠]. يريد: اجتنبوا كل الأوثان، وقوله عز وجل: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ [آل عمران:١٠٤]. يريد: كلهم. وقال:

(١) قال في الأم: الآية ساقطة في أصل النسخة. أقول: لعلها قوله تعالى: ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم... ﴾.

تَــــرَّاك أمكنـــــة إذا لم أرضـــــها   أو تعتلق بعض النفـوس حمامهـا[1]

فقال: بعض النفوس، وإنما أراد النفوس كلها.

وقال ذو الرمة:

تبسـمن عـن نـور الأقـاحي في [الثـرى] بالضـحى
وفتَّرن عـن أبصـار مضـروبة كحـل[2] [كحـل]

فقال: من أبصارهن، وإنما أراد كل أبصارهن، وقال الله عز وجل: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور:٣٠]. يريد: يغضوا أبصارهم كلها عن محارم الله جل ثناؤه.

٢٦) وسألت عن قول الله عز وجل:.﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]. وهو شيء قد كان وفرغ منه؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: من ذلك أن العرب تجعل بدل يكون كان جائز ذلك في لغاتها، ألم تسمع زياد الأعجم حيث يقول:

فانضـح جوانـب قـبره بـدمائها   فلقـد يكـون أخـا دم وذبـاح[3]

يريد: فلقد كان، لأنه قد مات.

---

(١) البيت: للبيد العامري، تقدمت ترجمته.

(٢) في ديوانه كحل، والبيت: لذي الرمة، تقدم ترجمته.

(٣) في ديوانه:

وأنضـج جوانـب قـبره بـدمائها   فلقـد يكـون أخـادم وذبـائح

لزياد بن سليمان أو سليم الأعجم أبو أمامة العبدي، مما شعراء الدولة الأموية كانت في لسانه عجمه فلقب بالأعجم.

٢٧) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء:١٤٤]. فقلت: ما هذا السلطان؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: السلطان هاهنا هو الحجة، والدليل على ذلك قول سليمان للهدهد: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٢١].

٢٨) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:١١٦]. فقلت: إذ تكون لأمر مستقبل، وإنما تكون لأمر قد مضى وفرغ منه؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: هذا جائز في لغة العرب أن يقول لأمر مستقبل، إذ من ذلك قول أبي النجم الشاعر:

فتـــى جـــزاه الله عنـــا إذ جـــزى   جنـات عـدن في العـلالي العـلا[1]

فقال: إذ جزى في الأخرى، وهو لم يجز أحدا بعدُ، فجاز هذا في اللغة، فافهم أعانك الله وأرشدك.

٢٩) وسألت عن قول الله عز وجل في ابن آدم الذي قتل أخاه قال: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٣١]. فقلت: الندم توبة فماله لم يتب عليه وقد ندم؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: إنه لم يندم على القتل، وإنما كان على ما بلغنا مكث يدور به مائة عام، يحمله لا يدري كيف يواريه، فبعث الله غرابا يبحث في الأرض، فلما رأى الغراب كيف وارى الغراب قال: ﴿ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ﴾ [المائدة:٣١]، فكان ندمه على ما حمله طول تلك المدة ولم يدفنه، وحمله مائة سنة.

---

(١) لم أقف عليه.

٣٠) وسألت عن قول الله عز وجل للنبي صلوات الله عليه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام:٣٣]. فقلت: وأي تكذيب أشد مما كذبوه صلوات الله عليه؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: إنما عنى تبارك وتعالى أنهم لا يقدرون على تكذيبه بحجة يقهرونه بها، فيلزمه التكذيب.

٣١) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ:٢٤]. فقلت: إن قال لنا قائل: هذا القول يوجب الشك فما الرد عليه؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: هذا على المداراة وحسن المعاملة، كما يقول الرجل لصاحبه: والله إن أحدنا لكاذب، وهذا من إنصاف الكلام، لأن أقبح منه إنا لعلى الهدى وأنتم على الضلال، لأنه قال عز وجل: ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ [الأحزاب:٤٨]. فكان هدى لحد الأنصاف وجميل القول.

٣٢) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾ [يس:٣٠]. فقلت: هل تكون الحسرة إلا من المخلوقين المتحسرين؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: إنه عز وجل لم يقل: يا حسرتا، وإنما قال: ﴿ يَٰحَسْرَةً ﴾ – بالتنوين – وإذا كانت بالتنوين فإنما تقع الحسرة على العباد في تفريطهم في أمره عز وجل، ومثل ذلك قول العرب للرجل: يا تبا لك، ويا ويلا لك، ويا حسرة لك.

٣٣) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣]. فقلت: ما معنى هذا القول؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: هذا من الكلام الذي يجوز فيه الإضمار، والمعنى فيه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[الزمر:٣]، فأضمر قول الكافرين وقطعه من وسطه، ومثل هذا كثير في القرآن، مثل قوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾[النور:١٠]. ومثله قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[الرعد:٣١]. ثم قال: ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾[الرعد:٣١]. ولم يذكر جواب ولو أن قرآءنا، والمعنى فيه: لكان هذا القرآن، وهذا كثير في القرآن، قال الشاعر:

وإذا مــا الظــلال كــن نعــالا   واجتلبن الحميم أي اجتلاب[١]

فقال: وإذا ما الظلال، ولم يذكر بعده خبرا يدل على ما أراد بالظلال، فأضمره وقطعه، وإنما المعنى فيه أنه قال: وإذا ما الظلال قلص ولصق كان الإبل في حرارة تلك الشمس نعالا لهم واستغنوا عن النعال، فافهم هذا الباب، ومن ذلك قول امرئ القيس بن حجر:

لعمــرك لــو شيء أتانــا رســوله   سواك ولكن لم يجد لك مدفعا[٢]

وكان يجب أن يكون لو أتانا رسوله لكان منا كذا وكذا، فأضمره وأجزاه ذلك، وعرفت العرب ما أراد من الإضمار.

٣٤) **وسألت** عن قول الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف:٨١]؟

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في ديوانه:

وجــدِّك لــو شيء أتانــا رســوله   سـواك ولكـن لم نجـد لـك مـدفعا

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: قد قيل في هذه الآية بوجوه من الكلام منها: أنهم قالوا: أنا أول العابدين لله على الإضمار، وغير ذلك من القول.

وأما أنا فأقول: إن العرب تقول: إن العابد هو المنكر الآنف.

قال الفرزدق يهجو جريرا:

أولئك أكفائي فجئني بمثلهم وأعبد أن يهجا كليب بدارم[1]

يريد: أي أنكر وآنف أن تهجا بنو كلب ببني دارم قومه.

٣٥) **وسألت** عن قول الله عز وجل: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف:٥٣] فقلت: كيف ظنوا وقد صح لهم الأمر؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: إن من الظن ما يكون في لغة العرب يخرج على اليقين.

قال ابن الصمة[2]:

فقلت لهم ظُنوا بألفي مقاتل سرابيلهم بالفارسي المسرد[3]

يقول: قلت لهم أيقنوا بألفي مقاتل، وهذا جائز في اللغة.

---

(١) في ديوانه:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ولم أجد هذا البيت أولئك أكفائي فجئني... إلخ في ديوان الفرزدق بهذا الشكل وإنما وجدت:

أطنت كلاب اللؤم أن لست شاتما قبائل إلا أبني دخان بدارم

(٢) دريد بن الصمة الجشمي البكري، من هوزان شجاع ن الأبطال الشعراء، كان سيد بني جشم، وفارسهم وقائدهم، أدرك الإسلام، ولم يسلم فقُتِل على دين الجاهلية يوم حنين.

(٣) في ديوانه:

علانية ظنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارسي المسرد

٣٦) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه:١٥]. فقلت: ما مخرج أكاد؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: ﴿ أَكَادُ ﴾ تخرج على معنى: أريد. قال الشاعر:

كـادت وكـدت وتلـك خـير إرادة   لـو لا الوشـاة بـأن يكـون جميعـا[1]

٣٧) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة:٢٥٧]. فقلت: يجوز أن يخرجوهم من النور وهم لم يكونوا فيه قط؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: هذا كثير في كلام العرب، موجود في لغاتهم، يقول القائل منهم: أخرج فلان ابنه من ميراثه، والرجل حي لم يمت ولم يورث بعد، ولم يكن قد دخل فيه كالدخول الذي يعرف، ونحو قول العرب: اللهم أدخلنا الجنة وأخرجنا من النار، وهم لم يدخلوها قط. وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢]. يعني: ثم صاروا إلى الله. وكقولهم: ثم ﴿ يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ [النحل:٧٠، الحج:٥]. وهو لم يكن فيه قط، حتى بلغ وقته من الكبر والمشيخ.

قال الشاعر:

حتى يعود بسـواد القـار كـاللبن[2]

ولم يكن القار البيض قط، فقال: عاده، لجوازه في اللغة.

وسألت عن قوله عز وجل: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ [الأعراف:٥١]. فقلت: ما معنى ننساهم والله تبارك وتعالى لا يجوز عليه النسيان؟

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: هذا يعني به الترك متعمدا، وذلك كقوله عز وجل: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾[التوبة:٦٧]. إنما هو تركوا أمر الله فتركهم، فلو كان ذلك منهم نسيانا على الحقيقة ما أخذهم بالنسيان.

٣٨) وسألت عن قوله تبارك وتعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النساء:١٧٦].

فقلت: ما معنى هذا القول؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: معناه: لا تضلوا، وهذا كثير في كلام العرب.

قال عمرو بن كلثوم:

نــزلتم منــزل الأضــياف منــا فعجلنــا القِــرى أن تشــتمونا[1]

يريد: أن لا تشتمونا.

وقال راعي الإبل النميري[2]:

أزمــان قــومي والجماعــة كالــذي لــزم الرحالــة أن تميــل ممــيلا

يريد: أن لا تميل.

وقال قيس بن زهير العبسي:

رأيتــك إن لاقــى بنــوك معــاشرا نزال يد في فضـل قعـب ومـزود[3]

يريد: أن لا يزال يدا، فافهم ذلك إن شاء الله.

---

(١) ورد في ديوانه بهذا اللفظ:

نــزلتم منــزل الأضــياف منــا فأعجلنــا القــرى أن تشــتمونا

(٢) عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النميري أبو جندل، عاصر جريراً والفرزدق، وكان يفضل الفرزدق.

(٣) لم أقف عليه.

٣٩) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد:١١]. وقلت: هل يكون من الله جل ثناؤه حافظ ودافع؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: المعنى في هذا أن يحفظونه بأمر الله، وهذا من حروف الصفات التي يعقب بعضها بعضا، قال الشاعر:

إذا رضيت علي بنو قشير ... لعمر الله أعجبني رضاها(١)

يريد: رضيت عني.

وقال النابغة الذيباني(٢):

فلا تتركني بالوعيد كأنني ... إلى الناس مطليٌّ به القار أجرب

يريد: لا تتركني في الناس، فقامت إلى مقام في، مثل قوله: ﴿ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ ﴾ [طه:٧١]، فافهم ذلك إن شاء الله.

٤٠) وسألت عن قول الله سبحانه: ؟﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ [الإسراء:١٦] فقلت: ما مخرج ذلك في العدل؟أ

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: هذا من الكلام الذي ذكرت لك أنه يضمر في لغة العرب، وإنما المعنى: إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها بأمر فتركوه وفسقوا فيها، وهذا كثير من لغة العرب، وفي كتاب الله عز وجل من هذا كثير أيضا.

ألا تسمع إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضرى أبو أمامة، شاعر جاهلي، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر في سوق عكاظ.

حَكِيمٌ ﴾ [النور:١٠]، فأضمر، والمعنى فيه: كان كذا وكذا، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ - ثم أضمر فقال -: بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد:٣١]. والمعنى فيه لكان هذا القرآن، وإنما نزل عليهم بلسانهم الذي يعرفون ولا ينكرون.

وقال النابغة الذيباني:

وكيف تواصل من أصبحت أمانته كأني مرحب[1]

يريد: كأمانة إني مرحب، فأضمر.

وقال آخر[2]:

فإن المنية من يخشها فسوف يصادفها أينما

فأضمر، وإنما أراد أينما كان من الدنيا أدركته المنية فأضمر، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى:٥]. ثم أضمر، وفي الأرض اليهود والنصارى وعبدة الأوثان والدهرية وأصحاب النور والظلمة والزنادقة وعباد الله ده وغير ذلك، وإنما المعنى فيه

---

(١) في ديوانه:

وكيف تواصل من أصبحت خلالته كأبي مرحب

البيت للنابغة الجعدي قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة الجعدي العامري أبو ليلى، شاعر مغلق، صحابي من المعمرين، اشتهر في الجاهلية وسمي النابغة، لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فقاله، وفد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأسلم، وأدرك صفين فشهدها مع علي عليه السلام ثم سكن الكوفة.

(٢) البيت للنمر بن تولب بن زهير راقيش، شاعر جاهلي، أدرك الإسلام وهو كبير فأسلم، وعُدَّ من الصحابة، وروى حديثا عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، توفي في آخر خلافة أبي بكر.

ويستغفرون لمن في الأرض من المؤمنين خاصة دون غيرهم، وتقول العرب: أما والله يا فلان لولا لعلمت كيف يكون، فيجزي ذلك، ويعلمون أنه من طريق الوعيد، فإنه لولا كذا لعلمت كيف يكون حالك، فافهم هذا الباب إن شاء الله.

٤١) وسألت عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء:٣٥]. فقلت: ما معنى هذا في العدل؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: نبلوكم بالشر نهيا عنه، وبالخير أمرا به، والبلوى امتحان، والفتنة تخرج في كتاب الله جل ثناؤه على عشرة وجوه في القرآن:

الوجه الأول: من الفتنة يعني به الشرك، وذلك قوله: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال:٣٩]، نظيرها في الأنفال حيث يقول:.﴿ قَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾. يقول حتى لا يكون شرك ويكون الدين كله لله، وقال سبحانه في البقرة: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة:٢١٧]. يعني الشرك بالله أعظم جرما عند الله من القتل في الشهر الحرام، ونحوه كثير.

والوجه الثاني: فتنة يعني بها الكفر، وذلك قوله عز وجل في آل عمران: ﴿ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ ﴾ [آل عمران:٧]. يعني الكفر، وكقوله سبحانه: ﴿ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ﴾ [التوبة:٤٩]. يعني: الكفر، وكقوله تبارك اسمه في سورة النور: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [النور:٦٣]. يعني: كفرا، وكقوله عز وجل في سورة الحديد: ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [الحديد:١٤]. يقول: كفرتم وشبهتم على أنفسكم، وكذلك كل فتنة في المنافقين واليهود.

الوجه الثالث: يعني به بلاء، وهو المحنة، فذلك قوله تبارك وتعالى في العنكبوت: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ

فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ ﴾ [العنكبوت:١ - ٣]. يعني ولقد ابتلينا الذين من قبلهم.

وقال لموسى صلى الله عليه: ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ ﴾ [طه:٤٠]. يعني ابتليناك، لأن الله عز وجل لا يفتن نبيه، وإنها يريد بالفتنة للنبي صلى الله عليه: المحنة.

وفي حم الدخان ﴿ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ ﴾ [الدخان:١٧][1]. يعني ولقد امتحنا الذين من قبلهم، يعني قوم فرعون.

والوجه الرابع: يعني به: العذاب، وذلك قوله عز وجل: ﴿ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت:١٠] في الآخرة. نزلت في عباس بن ربيعة أخي أبي جهل لعنه الله، الآية نظيرها في النحل حيث يقول: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ [النحل:١١٠]. يعني من بعد ما عذبوا في الدنيا.

والوجه الخامس: يعني به: الإحراق بالنار في الدنيا، فذلك قوله في السماء ذات البروج: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ [البروج:١٠]. يعني: الذين حرقوا المؤمنين والمؤمنات في الدنيا.

وقال في سورة الذاريات: ﴿ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣ ﴾ [الذاريات:١٣]. يعني: يعذبون ويحرقون بالنار في الآخرة، ﴿ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ ﴾ [الذاريات:١٤. يعني: حريقكم بالنار، والآخرة ليس فيها فتن مثل فتن الدنيا، وهذا دليل لمن عقل.

والوجه السادس من الفتنة: يعني به القتل، وذلك قوله سبحانه في سورة النساء: ﴿ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ ﴾ [النساء:١٠١]. يقول: إن خفتم أن يقتلكم الذين كفروا، وكقوله في سورة يونس صلى الله عليه: ﴿ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ ﴾ [يونس:٨٣]. أي: يقتلهم.

---

(١) في الأم: الآية هكذا: ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾.

والوجه السابع من الفتنة: الصد، وذلك قوله في سورة المائدة: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ﴾ [المائدة:٤٩]. يقول أن يصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك.

وقال في سورة بني إسرائيل: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الإسراء:٧٣]. يعني: ليصدونك.

والوجه الثامن من الفتنة: يعني به: الضلالة، فذلك قوله عز وجل في سورة الصافات: ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ۝ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ۝﴾ [الصافات:١٦١-١٦٢]. يعني: ما أنتم عليه بمضلين من أحد ﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ۝﴾ [الصافات:١٦٣]. يعني إلا من عمل عملا يصلى به الجحيم.

وقال في سورة المائدة: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [المائدة:٤١]. والله عز وجل لا يضل به إلا من استحق الضلالة، وذلك قوله عز وجل" ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝﴾ [البقرة:٢٦]. وقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم:٢٧]. ويخرج الضلال على الحكم والتسمية، لا على الجبر والقسر.

والوجه التاسع من الفتنة: يعني به: المعذرة، وذلك قوله عز وجل في سورة الإنعام: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ﴾ [الأنعام:٢٣]. يعني: ثم لم تكن معذرتهم، إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين.

والوجه العاشر من الفتنة: قوله عز وجل في الأعراف: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ [الأعراف:١٥٥]. يقول: إن هي إلا محنتك.

٤٢) **وسألت** عن قول الله سبحانه: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾ [البقرة:١٩٣]. يقول: لا سبيل إلا على الظالمين، وقلت: ما العدوان؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: العدوان على وجهين في القرآن:

فالوجه الأول: قوله سبحانه:.﴿ لَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يقول: لا سبيل إلا على الظالمين.

والوجه الآخر: كقول موسى صلوات الله عليه في سورة القصص: ﴿ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَىَّ ﴾[القصص:٢٨]. يقول: فلا حجة عليَّ.

وسألت ما الرد على من زعم أن القاتل لو لم يقتل المقتول لمات في تلك الساعة بعينها؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: لهذه المسألة جوابات كثيرة يجزي منها ما سنذكره إن شاء الله تعالى، فنقول: لو كان كل مقتول يقتل لو لم يقتل لمات في ذلك الوقت ولم يعش طرفة عين، لكان على قَوَد قولكم أن من قصد إلى أنعام قوم من بقر وإبل وغنم فذبحها عن آخرها، أنه على نحو قولكم لا يجب عليه لوم ولا ذم ولا غرامة، بل يجب أن يُشكر ويُحمد ويُحسن مكافأته والثناء عليه، لأنه لو لم يذبحها لماتت كلها على زعمكم، وكان أهلها لا ينتفعون بشيء منها لا بلحم ولا بجلد، وهذا القول خارج عن حكم الإسلام، ومفارق لما جاء به محمد عليه السلام.

ومن الحجة على من قال: إنه لو لم يقتل لمات، وإن من قتل إنما قتل بأجله، وأنه لم يكن ليجوز ذلك الذي قتل فيه، لأن قتله موته الذي حكم الله به عليه.

فيقال لمن قال هذا القول: ما تقول فيمن يقتل رجلا هل يقتل به أم لا؟

فإن قال: يقتل به، فقد جوَّر الله سبحانه في فعله، لأنه حكم عليه بالقتل وجعله له موتا، فلم يكن هذا القاتل ليقدر أن يخرج مما جعل الله وحكم به عليه، فإذا حكم عليه بأمر وعذبه فيه فقد ظلمه، وعز الله سبحانه عن ذلك وجل عن ظلم العباد، أو أن يأمر بأمر ويعاقب عليه، وأن يرضى ما يسخط أو يسخط ما يرضى، والقائل بهذا لا يرضى لنفسه لو كان له عبد فأمره بأمر فلما أنفذه عاقبه عليه، لكان ذلك ظلما وعدوانا ولنفاه عن نفسه، ولما أذن أنطق لسانه أن ينسب الظلم إلى من هو فوقه ممن

يخافه، كيف يقول بذلك قائل، أو يتكلم به متكلم؟ والله عز جل ينفي ذلك عنه ويقول: ﴿ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ... وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [المائدة:٤٥][1]، ويقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الإسراء:٣٣]، ويقول عز وجل: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٣]، وقوله: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء:٣٣]. وإنما السلطان الذي جعله الله للولي أن يقتل قاتله، وكيف يقتل رجل من قتل أخاه والله حكم بذلك عليه، وجعله له موتا، هذا قول فاسد مدخول، لا يقول به مؤمن، ولا يتكلم به عاقل ولا عالم، لأنه يلزم من قال هذا، الظلم لله سبحانه والتجوير والتكذيب لكتابه، وعز الله وجل عن ذلك.

ومن الحجة في ذلك قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران:٢١]. فأوجب عليهم العذاب في فعلهم، ولو كان فعلهم هو الموت الذي أراد أن يجعله بأيديهم، لما عذبهم فيما حكم به عليهم، لأنه يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس:٤٤]. فنفى الظلم من نفسه، وأعلمنا أن الظلم من العباد لأنفسهم، بارتكابهم لما نهاهم عنه وحذرهم إياه، ومَن جَوَّرَ الله سبحانه في فعله، وقال عليه بما هو نفاه عن نفسه، فقد كفر واستوجب بكذبه النار وساء مصيرا، وهذه الحجج من كتاب الله سبحانه، وعن رسوله صو، وعلى ما يطول شرحه ويكثر ذكره، وفي أقل مما ذكرنا كفاية، ولله الحمد كثيرا كما هو أهله ومستحقه.

---

(١) كمال الآية: ﴿... وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ... ﴾.

٤٣) **وسألت** فقلت: ما معنى خلق الحية والعقرب وفيها الضرر على الناس، وكان أولى في الحكمة وأقرب إلى الرحمة أن لا يخلق من هذه الضارة لبني آدم ما يضرهم؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: إن من عدل الله سبحانه ورحمته وحكمته خلق الحيات والعقارب، لأن فيها من التذكرة والتخويف لما هو أشد منها من عذاب جهنم المقيم، ما جعل فيه حذرا وزجرا عن الاقتحام على المعاصي، ولولا ذلك أيضا ما درى الناس فضل العافية على البلاء، ولا السلامة على الشقاء، ولا عرفوا الفرق بين النعمة والنقمة، وفي أَلَمِ ذلك السم وشدة حريقه من التحذير للعباد ما يورث المنفعة والتوبة، والكف عن الإقدام على ما يسخط الله عز وجل، وإنما هو حريق ساعة ثم يموت أو يسلم، فكيف بالعذاب الدائم الذي أعد الله عز وجل لمن عاداه وعَنَدَ من أمره؟! فالمصاب بالسم يعتبر، والناظر إليه يعتبر، كل ذلك حكمة ورحمة، فافهم ذلك إن شاء الله.

وقولك: لِمَ خلق الله الحية والعقارب وفيها من الأذى ما قد سميت؟! والله عز وجل يخلق ما يشاء، وليس لأحد أن يقول: لِمَ خلق الله ما يضر، والله عز وجل ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣]، وخلقه كله حكمة، وفي خلقه دلائل وعبرة، نسأل الله لنا ولك الهداية بمنِّه ورحمته.

٤٤) **وسألت** عن قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ [الأعراف:١٧٩] [1] الآية؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: الجواب في ذلك أنهم كانوا عميا عن

---

(١) كمال الآية: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾.

الحق، صما عن استماعه، من غير عمى ولا صمم كان بهم، والعرب تكلم بهذا في قولها، من ذلك أن الرجل إذا كلم رجلا فلم يرفع لكلامه رأسا، قال: أنت أصم عن قولي، وأعمى عما أريد منك.

قال الشاعر في نحو ذلك:

أعمى إذا ما جارتي خرجت ... حتى يواري جارتي الستر
وأصم عما كان بينهما ... وسمعي وليس يحويه وقر[1]

وفي هذا البيت الآخر إضمار أيضا فافهم.

ألا ترى كيف قال: واصم عما كان بينهما، ولم يذكر اثنين، وإنما ذكر جارة واحدة ثم قال: بينهما، فصارا اثنين، وذلك أنه أرادها وزوجها فأضمر الزوج، وهذا ليس من مسألتك، ولكن زدناك حجة في الإضمار، فاعلم ذلك إن شاء الله.

٤٥) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة:٢٣٥]؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: السر في لغة العرب هو: النكاح، معروف عندهم غير منكر، قال أعشى بني قيس:

فلا تَدنُوَنْ من حرة إن سرها ... عليك حرام فانكحن أو تأبدا[2]

والتأبيد: ترك النكاح، مشتق من التوحش.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) البيت للأعشى ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس، من شعراء الطبقة الأولى، ومن أصحاب المعلقات، عاش عمرا طويلا وأدرك الإسلام ولم يسلم، ولقب بالأعشى لضعف بصره، وعمي في أواخر عمره. ورد في الديوان هكذا:

ولا تقربن جارة إن سرها ... عليك حرام فانكحن وتأبدا

والدليل على ذلك قول لبيد بن ربيعة الكلابي حيث يقول:

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

والتأبد عنهم معروف غير منكر، وجماعة الوحش الأوابد.

وقال امرؤ القيس الكندي:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كدت وأن لا يحسن السر أمثالي[1]

٤٦) **وسألت** عن الطاغوت ومعانيه فقلت: نحن نجد الطاغوت في القرآن مرة مذكرا، ومرة مؤنثا، ومرة جماعة، فما معنى ذلك - أعْلَى الله ذكرك -؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: تفسير الطاغوت على ثلاثة أوجه في القرآن:

الوجه الأول من الطاغوت: يعني به الشيطان، فذلك قوله في سورة البقرة: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥٦]. يعني به الشيطان، نظيرها في سورة النساء حيث يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٧٦]. يعني: في طاعة الشيطان، فهذا مذكر.

والوجه الثاني من الطاغوت: يعني به الأوثان، فذلك قوله في سورة الزمر يقول: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر:١٧]. يعني: والذين اجتنبوا عبادة الأوثان، فجماعة الأصنام مؤنثه.

والوجه الثالث من الطاغوت: فقد جاء في الرواية أنه يعني به كعب بن الأشرف اليهودي الذي قتله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذلك قوله في سورة البقرة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى

---

(١) ورد في الديوان هكذا:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي

ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾[البقرة:٢٥٧]. فهذا جماعة، فافهم ذلك إن شاء الله.

٤٧) **وسألت** عن قوله عز وجل: و ﴿ أَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه:٦٧]. فقلت: كيف خاف صلوات الله عليه في ذلك المقام العظيم، وقد علم أن الله عز وجل لا يخذله فيه، وهو ولي الله ورسوله صلى الله عليه؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: إنما تَخَوَّف موسى صلى الله عليه على قومه أن يفتنوا لما عاينوا من فعل السحرة، أو أن يسبق إلى قلوبهم أن حركة الحبال والعصي على حقيقته، إذ ليس لهم مثل بصيرة موسى صلى الله عليه.

فأما هو صلوات الله عليه فقد كان واثقا عالما أن الله جل ثناؤه لا يخذله ولا يشمت به، وأن أعداءه لا يظهرون عليه في ذلك المقام الشريف.

٤٨) **وسألت** عن قول الله سبحانه: ﴿ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [سبأ:٣٣]. فقلت: كيف مكر الليل والنهار، وهل لهما مكر؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: إنما عنى تبارك وتعالى: مكرهم بالليل والنهار الذي حاق بهم، ولو كان مكر الليل والنهار الذي حاق بهم بأنفسهما، لم يجز في العدل أن يؤاخذهم بفعل غيرهم، وهذا جائز في لغة العرب، يقول الرجل: أكلُ الليل يضر بي، وشرب الليل يتعبني، وسهر الليل يُعْني.

وإنما المعنى في ذلك كله أنه يقول: أكلي بالليل وشربي وسهري، لا أن لليل فعلا يطالب به الآدمي. قالت خنساء الأسلمية تذكر ناقة فقدت ولدها، وأن جزعها على أخيها صخر كجزع الناقة على ولدها:

ترعا إذا نسيت حتى إذا ذكرت ... فإنما هي إقبال وإدبار[1]

---

(١) ورد في الديوان هكذا:

ترتع ما رتعت حتى إذا ذكرت ... فإنما هي إقبال وإدبار

تقول: إنها الناقة مقبلة ومدبرة، فصيَّرتها إقبالا وإدبارا.

ومثله قول أعشى بكر:

حيــــاك في الصـــيف في نعمـــة تصان الجـلال وتعطـي الشـعيرا[1]

يريد: تصان بالجلال فأضمره.

٤٩) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [آل عمران:٧٧]. فقلت: ما معنى النظر في هذا الموضع؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: النظر على ثلاثة أوجه:

نظر البصر، وذلك لا يجوز على الله تبارك وتعالى.

ونظر العلم والذكر.

ونظر العطف، كقول الرجل للرجل: انظر إلي نظر الله إليك، أي: أحسن إليَّ أحسن الله إليك.

ونظر العلم فهو ما يكون من العلوم، مثل نظر العين والذكر، فيقول: ذكرني فلان بخير، أي: أحسن بي النظر، وانظر إلي نظر الله إليك، أي: بخير مثله، ويقول الرجل لصاحبه: لا يسمع الله لك، والله عز وجل يسمع، وإنها يعني به الداعي لا استجاب له دعاه، وكذلك قوله: سمع الله لمن حمده، والله عز وجل يسمع مَن حمده، ومَن لم يحمده، قال الشاعر:

دعـــوت الله حتـــى خفـــت أن لا يكـــون الله يســـمع مـــا أقـــول[2]

---

(١) ورد في الديوان هكذا:

جيـــادك في الصـــيف في نعمـــة تصـــان الجـــلال وتعطـــي الشـــعيرا

(٢) لم أقف عليه.

يعني: أن لا يستجيب لي دعائي.

٥٠) وسألت عن الكبائر التي توجب النار؟

قال أحمد بن يحيى رضي الله عنه: في كتاب الله تبارك وتعالى أربع عشرة كبيرة، من أتى واحدة منها ثم مات غير تائب دخل النار، فأولهن الشرك بالله عز وجل، وذلك قوله عز وجل في سورة الحج: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝ ﴾ [الحج:٣١].

والثانية: أكل أموال اليتامى ظلما، وذلك قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝ ﴾ [النساء:١٠].

والثالثة: أكل الربا، قال الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة:٢٧٥].

والرابعة: قذف المحصنات، وذلك قوله عز وجل في سورة النور: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾ [النور:٢٣].

والخامسة: الفرار من الزحف، وذلك قوله عز وجل في سورة الأنفال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝ ﴾ [الأنفال:١٥] إلى آخر الآية.

والسادسة: التغرب بعد الهجرة، وذلك قوله سبحانه في سورة محمد صلى الله عليه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝ ﴾ [محمد:٢٥].

والسابعة: قتل المؤمن، وذلك قوله عز وجل في سورة النساء: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء:٩٣].

والثامنة: عقوق الوالدين، وذلك قوله سبحانه في سورة بني إسرائيل: و﴿ لَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء:٢٣]. ثم ذكر بعد ذلك في سورة الأنعام، وذلك قوله عز وجل: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ ﴾ [الأنعام:١٥١].

والتاسعة: استغناء الرجال بالرجال، وذلك قوله تبارك وتعالى في الثناء على نبيه لوط صلى الله عليه، وذكر قومه في سورة الشعراء حيث يقول: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦]. ثم ذكر ما نزل بهم في سورة هود صلى الله عليه، وذلك قوله عز وجل: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود:٨٢].

والعاشرة: الزنا، وذلك قوله في سورة بني إسرائيل: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء:٣٢].

والحادية عشرة: شهادة الزور، وذلك قوله سبحانه في سورة الفرقان: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان:٧٢].

والثانية عشر: كتمان الشهادة، وذلك قوله عز وجل في سورة البقرة: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [البقرة:١٤٠].

والثالثة عشرة: الفساد في الأرض، وذلك قوله تبارك وتعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة:٣٣].

والرابعة عشرة: أذى المؤمنين، وذلك قوله سبحانه في سورة الأحزاب: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب:٥٨].

٥١) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا﴾ [البقرة:٦٩]. فقلت: ما الفاقع في الكلام؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: الفاقع في لغة العرب: الشديد الصفرة، تقول العرب: أصفر فاقع، وأبيض يقق، ولهق أيضا، وأخضر ضر ونضر، وأحمر قانٍ وناص، وأسود حالك وحابك، معروف كل ذلك في اللغة غير مستنكر، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة:٦٩].

وسألت ما الدليل على أن الله تبارك وتعالى لم يخلق أفعال العباد، وأن فعل العباد غير مخلوق من رب العالمين؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: الدليل على ذلك من كتاب الله سبحانه، ومن الاحتجاج بالحق الواضح الثابت في العقول، من ذلك قوله عز جل: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل:٨٨]. فلما كان ظلم العباد ليس بمتقن علمنا أنه ليس من صنعه، وقوله عز وجل: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

[المائدة:١٠٣]. ونحن نعلم أن الله عز وجل خلق الأنعام، وإنما نفى عن نفسه جَعْلَ ما جعلوه، والشق الذي جعلوه في آذان الأنعام، فعلمنا أن الذي نفاه الله عن نفسه هو كفر العباد.

وقال عز وجل: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣]. فلما كان الكفر متفاوتا متناقضا، علمنا أن الكفر ليس من خلقه، وقال عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ۝﴾ [الأحزاب:٤]. وقال عز وجل: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:٣]. فهو عز وجل لم يتبرأ من خلقهم، ولا من موتهم ولا من حياتهم، وإنما برئ من فعلهم، وفي هذا الباب أدلة كثيرة يطول بها الشرح، وفيما ذكرنا لك كفاية إن شاء الله.

٥٢) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨]. وقلت: إنما النفس تكون للمخلوقين؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: معنى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ يعني: إياه، وذلك موجود في لغة العرب، يقول الرجل: نزلت في نفس الجبل، أي: في الجبل، وفي نفس الوادي، وليس للوادي نفس ولا للجبل، وتقول أيضا: هذا نفس الخبر وليس للخبر نفس، وكذلك ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦]، يقول: تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما عندك، وقال الأعشى البكري في نحو ذلك:

يومـــا بأجودنـــا بـــلا منـــة إذا   نفس البخـل تجهجمـت بسؤالها[1]

(١) ورد في الديوان هكذا:

يومـــا بـــأجود نـــائلا منـــه إذ   نفـس البخيـل تجهجمـت سـؤالها

والنفس لا تجهم السؤال، وإنما المتجهم الرجل، لأنه يدعي أن البخيل يتجهم بسؤاله.

٥٣) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٨].

وقلت: كيف مخرج هذا القول حيث قال: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾. وهم لا إيمان لهم من الأصل وقد صيَّره قليلا؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: يجوز ذلك، على نحو قولك للرجل الذي تخاطبه وهو لا خير عنده البتة: ما أقل خيرك!! جائز في اللغة، وكقولك: ما أقل راحة أهل النار، يريد: لا راحة لهم البتة، وكقولك: ما أقل الناس في بلد كذا وكذا، وهي بلد ليس بها إنسان واحد.

وقال عمرو بن معدي كرب في نحو ذلك:

وكم من غائط من دون سلمى ... قليل الإنس ليس به كتيع[1]

فقال: قليل الإنس، فنسبه إلى القلة، ثم قال: ليس به كتيع، يعني: ليس به إنسان واحد.

ومن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث ابن مسعود ليلة وفد الجن: ((لو أطاعوا عليا لدخلوا الجنة أجمعين أكتعين))[2]. وقالوا: يعني بأكتعين: أنه لا يتغادر منهم صغير ولا كبير، ذكر ولا أنثى.

---

(١) ورد في الديوان هكذا:

فكم من غائط من دون سلمى ... قليل الإنس ليس به كتيع

(٢) أخرجه الكوفي في مناقبه ٢/ ٥٨٢ (١٠٩٤)، وابن عساكر في ترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق، برقم (٣٤٣).

٥٤) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف:١٤٦]. والآيات فدلالة وهدى ونور، فكيف جاز أن يصرف الله تبارك وتعالى عن آياته الخلق وهو الذي دعاهم إليها وإلى قبولها؟!

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: ليس المعنى حيث ذهبت، ولا كما توهمت من أنه عز وجل يصرف عن آياته عباده، من طريق الصد والصرف عن اتباعها، وإنما المعنيك أنه جل ثناؤه يصرف أعداءه والمفسدين في أرضه عن إبطال آياته وإفسادها، وإدخال العيب فيها، بما أظهر من دلائلها وعجائبها وحججها ونورها وبراهينها العظيمة، كنحو قولك للرجل: سأمنعك من فلانن أي: أمنعك من أذاه وإدخال المكروه عليه، وذلك جائز في اللغة.

٥٥) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النمل:٤]. وقلت: كيف مخرج التزيين هاهنا؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: هذه المسألة تخرج على وجهين، وكلاهما حسن.

أما أحدهما فإنه يقول: زينا لهم أعمالهم من الطاعات، فتركوها فهم يعمهون.

وأما الوجه الآخر فإنه يجوز على الإمهال كنحو ما تقول العرب: أنا الذي زينت لك عملك، وأنا الذي أفسدتك، وهو لم يزين له عمله ولم يفسده، ولكنه أمهله ولم يغير عليه ولم يمنعه، فكان تركه له وإمهاله إياه مزينا له فعلهن إذ لم يَحُل بينهُ وبينهِ ولم يمنعه، ولو منعه لم يكن من ذلك شيء، فإنه عز وجل لم يقسر العباد على الطاعة قسرا، ولم يمنعهم من المعصية جبرا، ولو فعل ذلك سبحانه ما جاز أحد أمْرَه، ولكنه أمر تخييرا، ونهى تحذيرا، فلم يطع مكرها ولم يعص مغلوبا﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾

[الأنفال:٤٢]. وإنما مخرج ﴿زَيَّنَّا﴾ على مجاز الكلام، وقال جل ثناؤه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات:٧]. يعني بالتحبيب والتكريه: الأمر والنهي، وما وعد وأعد من الجنة والنار، لا جبرا على طاعته ولا على معصيته، عز الله عن ذلك وتعالى علوا كبيرا.

٥٦) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠﴾ [يوسف:٧٠] وقلت: كيف جاز ليوسف صلى الله عليه أن يرمي بالسرقة من قد علم أنه لم يسرق صواعه؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: قد قيل في هذه المسألة بجوابات كلها تجوز في لغة العرب، وتثبت العدل والبراءة ليوسف صلى الله عليه من الظلم والإثم، من ذك ما أنا ذاكره فافهمه إن شاء الله.

أما الوجه الأول فقالوا: إنه يجوز أن يكون المنادي نادى بغير أمر يوسف صلى الله عليه، فحكى الله عز وجل عن المنادي.

وإما أن يكون أمر بوضع الصواع في الرحل بغير علم المنادي الذي ناداهم بالسرقة، فلا يكون المنادي تعمد كذبا، وذكر عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أن يوسف صلوات الله عليه أمر المنادي بذلك، وأضمر في نفسه إنكم لسارقون لي سرقتموني من أبي وطرحتموني في الجب[1]. وهذا حسن.

وقول آخر قال: إن يوسف صلى الله عليه قال هذا على الاستفهام ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠﴾ [يوسف:٧٠] على معنى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن

(١) رواه الطبرسي في مجمع البيان٤/ ٩٥.

نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧] على طريق الاستفهام، لأن نبي الله صلى الله عليه لا يظن أن الله عز وجل لا يقدر عليه، والعرب تستفهم بغير ألف في كلامها. قال الشاعر:

لعمـرك مـا أدري وإن كنـت داريـا ... شعيب بن سهم أم شعيب ابن منقر[1]

يريد: أشعيب بن سهم أم شعيب بن منقر، فكل هذا قد قيل في تفسير هذه الآية، وقول أمير المؤمنين أحسنها عندي وكلها حسن جائز، وقد أعلمتك بما قال أهل العلم فيها، فافهم ذلك موفقا إن شاء الله.

وإنما أراد يوسف صلى الله عيه بوضع الصواع في رحل أخيه ليأخذه به من أخوته، لأنه لم يكن يمكنه في دين الملك أن يأخذه، والأنبياء صلوات الله عليهم فلا تفعل فعلا إلا بأمر الله عز وجل، وذلك قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف:٧٦]. فكل فعل من ذلك بإذن الله، لأن إذن الله عز وجل هو أمره، فهذا هو الحجة البينة في هذا الباب، وما أمر الله به فلا عيب فيه ولا إثم، ولا كلام لمتكلم، قوله الحق وأمره الصدق، لا إله إلا هو العلي العظيم.

٥٧) وسألت عن الجواب للمجبرة في قولهم: إنه لم يكن بد لقريش من الخروج إلى بدر في حرب رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم، فإن قال لهم أهل العدل: بلى، قد كان لقريش بد من الخروج لو أرادوا ذلك. قالت المجبرة لأهل العدل: فإذن يلزمكم أن الله يخلف قوله في قولكم، وأنتم تقولون إن الوعد والوعيد شيء لا ينتقض ولا يخلف، فنحن نلزمكم أنه يخلف وعده في قوله للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأصحابه: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى

(١) لم أقف عليه.

ٱلطَّآبِفَتَيْنِ﴾ [الأنفال:٧]. وهذه يلزمكم لنا أنه لم يكن بد لقريش من الخروج إلى بدر في حرب رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: إن الله تبارك وتعالى إنما أخبر عنهم أنهم يختارون الخروج إلى بدر، وعلم أنهم يفعلون ذلك، وليس علمه بذلك يدخلهم في معصية ولا يخرجهم من طاعة، فأخبر بما يختارون.

والجواب لهم في ذلك أن يقال لهم: أليس قد رويتم في كتبكم وأخباركم أن هذه الآية نزلت في أبي طالب بن عبد المطلب[1]، حيث قال الله عز وجل: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا...﴾ [الأنعام:٢٦ - ٢٧][2] إلى آخر الآية. فقد أخبر الله عز وجل عن أبي طالب، وعن وقوفه على النار كيف يكون، كما رويتم أنتم وغيركم، ثم رويتم أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له عند الموت: ((يا عم قل لا إله إلا الله وأقر أني رسول الله صلى الله عليه وأضمن لك على الله الجنة))[3].

---

(١) أخرجه الغريابي، وعبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم، والبيهقي في الدلائل، وابن أبي شيبة. الدر المنثور ٣/ ٢٦٠.

(٢) كمال الآية: ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ج١/ ص٤٥٧/ ح١٢٩، ومسلم في صحيحه ج١/ ص٥٤/ ح٢٤، والنسائي في سننه ج٤/ ص٩١/ ح٢٠٣٥، والترمذي في سننه ج٥/ ص٣٤١/ ح٣١٨٨، وابن ماجه في سننه ج١/ ص٦٧٨/ ح٢٠٩٧، وابن حنبل في مسنده ج١/ ص١٨٣/ ح١٥٩٠، وابن حبان في صحيحه ج٣/ ص٢٦٣/ ح٩٨٢، والحاكم في مستدركه ج٢/ ص٣٦٦/ ح٣٢٩١، والطبراني في معجمه الكبير ج٢٠/ ص٣٤٩/ ح٨٢٠.

فيقال للمجبرة: فما تقولون لو أسلم أبو طالب في ذلك الوقت، وأجاب النبي صلى الله عليه إلى ما أراد، هل كان ينفعه إسلامه كما قال له رسول الله صلى الله عليه، أو لم يكن ينفعه؟!

فإن قالوا: لم يكن ينفعه إسلامه، جَهَّلوا رسول الله صلى الله عليه، وخَطَّوا فعله، وأفسدوا ضمانه، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [النجم:٣]، وقال: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الأنعام:٥٠].

وإن قالوا: بلى، قد كان ينفعه إسلامه لو أسلم، وجب عليهم أن وعد الله تعالى منتقض، وأن وعده يخلف، لا بد لهم أن يقولوا أحد القولين، وفي ذلك فساد قولهم، وبطلان دعواهم، لأنهم إن زعموا أن قول النبي صلوات الله عليه وضمانه لأبي طالب أمر فاسد لا يصح، خَطَّوا النبي وكفروا، وإن قالوا: إنه ضمان صحيح بطلت دعواهم في قولهم إن وعد الله يخلف في قول أهل العدل، لقول الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ [الأنفال:٧]. فهذا هو الجواب، فافهمه وقف عليه إن شاء الله.

٥٨) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد:٢٢ - ٢٣].
فقلت: فيقول القائل: وأي مصيبة أعظم من المصيبة في الدين، وإن المصيبة مكتوبة على العباد؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: لعمرو الله إن المصيبة في الدين لأعظم المصائب، ولكن الله عز وجل لم يعن بذلك الضلالة ولا الهدى، فقوله: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ فلو كانت هذه الآية في الأعمال

لم ينبغ للعبد إذا أطاع الله عز وجل وأحسن العمل أن يفرح، ولا إذا عصا أن يحزن، ولكان ذلك منه خطأ وعصيان لله أن يفرح بما أوتي من خير في دينه، وأن يحزن على ما ضَيَّع وفَاتَه من دينه، لأن الله في قولهم قد نهى عن ذلك، وإذن لانتقض قوله، واختلف كتابه، وقد قال: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٨٢]. ولخالفت هذه الآية التي ذكرتم هذه الآية التي أنا ذاكرها، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس:٥٨]. وقال عز وجل: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [التوبة:٨٢]. وليس وجه هذه الآية التي ذكرت على ما وضعوه عليه هم، إنما عنى الله عز وجل في هذه الآية المصيبات التي يصيب بها عباده في الأنفس والأولاد والأموال والثمرات، وما سخر لهم من الأشياء التي سخرها لهم به أعمالهم قبل نزول المصيبة لهم أن سوف يبتليهم، وعلَّمهم كيف يقولون عند المصيبة إذا نزلت بهم، وما لهم فيها من الأجر إذا صبروا وقالوا القول الذي علمهم، وقال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥ - ١٥٧]. يقول سبحانه: إنما علَّمناكم ما تقولون وبيَّنا لكم في ذلك من الأجر والثواب، لكيلا تأسوا عند البلاء على ما فاتكم ولا عند المصيبة تجزعوا، تسليما لأمر الله تبارك وتعالى، ولو كان الأمر على ما توهموا ما كان ينبغي لمن صلى وصام وحج وجاهد وفعل الخيرات يفرح، ولا لمن زنا وسرق وشرب الخمر وقتل النفس الحرام وعصى الله عز وجل أن يحزن على معصيته، ولكن الناس تركوا الحق وأهله واتبعوا أهواءهم، وقلدوا أمر

دينهم من أضلهم وأغواهم، وقد أُمروا فأعرضوا، وزُجروا فلم ينتهوا ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء:٢٢٧].

وأما الكتاب الذي ذكرت هاهنا فهو العلم، لأن الله عز وجل لا يحتاج إلى الكتاب.

٥٩) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة:١٥٠]. فقلت: ما معنى هذا الكلام؟ فإني لا أدري ما معنى الصلاة إلى شطره دون كله، وأي الشطرين أقصد إذا صليت؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: ليس الأمر على ما توهمت ولا على ما ظننت، وإنما المعنى في الشطر: الكل، وذلك جائز في لغة العرب، تعني العرب بالشطر: النحو، فنحو الشيء عندها شطره.

ألا تسمع قول زهير بن أبي سلمى حيث يقول:

وعـــارض عمـــه بوارقـــه شـــطراه ريـــح وشـــطره بَـــرَدُ[1]

يريد: نحوه ريح ونحوه بَرَد، ولو لم يكن على ما ذكرنا لك، لوجب أن أثبت له ثلاثة شطور، وهذا ما لا يجوز ولا يعقل في عجمية ولا عربية أن يكون للشيء ثلاثة شطور.

وقال خفاف بن بديه في مثل ذلك:

ألا مَـــن مبلـــغ عمـــروا رســـولا ومـا تغنـي الرسـالة شـطر عمـر[2]

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

يريد: نحو عمر.

وقال لقيط الأيادي(1):

وقد أظلكم من شطر ثغركم هول له ظلم تغشاكم قطعا

يريد: من نحو ثغركم، وهذا معروف في لغة العرب غير منكر ولا مجهول، وإنما عنى بذلك: البيت الحرام، فأي جوانبه استقبلت فهو قبلة، وليس من جوانبه جانب إلا وبصرك يحيط بجميعه ولله الحمد، وإن كان بعضه بين عينيك ليس منه شيء داخلا ولا ذاهبا من موضعه، ولو ستر بعضه بعضا فكله قبله ونور وهداية لمن اهتدى به، نسأل الله الهداية بمنه وفضله.

٦٠) وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة:١٠٦] قلت: فإن قال القائل: أهو بعض القرآن خير من بعض ما تقول له؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: المعنى في ذلك أنه يقول عز وجل خير لكم فيها تخفيف لكم به خصه، وليس بعضه خير من بعض، بل كله في الفضل والشرف والقدر عند الله عز وجل سواء.

٦١) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦]. فقلت: ما معنى هذا، والأنبياء صلوات الله عليهم والأئمة عليهم السلام والصالحون يفرحون؟!

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: إنما عنى بالفرح في هذا الموضع البطر والأشر، وأن يفرحوا ولا يشكروا.

---

(١) البت لقيط بن يعمر بن خارجه الإيادي، شاعر جاهلي فحل من أهل الحيرة، كان يحسن الفارسية.

٦٢) وسألت عن قوله عز وجل في قصة قارون: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧]. فقلت: كيف جاز أن يوصوه بالدنيا وهم يعظونه، وكان هو أشد في طلب الدنيا، وأحرص عليها منهم، وأشد رغبة فيها؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: إن قومه لم يأمروه بطلب الدنيا والحرص عليها، وإنما ذكروه أنها طريق إلى الآخرة، فأمروه أن لا يذهب عمره في معصية الله عز وجل، لأن الدنيا فيها تكتسب الجنة، وقد سمعت قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه حيث سمع الرجل الذي ذم عنده الدنيا، فصرخ به ثم قال: «الدنيا موضع صدق لمن صدقها»[١]، مع كلام اختصرناه قد سمعته.

٦٣) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]. فقلت: كيف مجاز الاستواء في التوحيد، وما معناه؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: الاستواء هاهنا هو الاستيلاء، والعرش فهو: الملك، معروف ذلك في لغة العرب وأشعارها، من ذلك قول زهير بن أبي سلمى حيث يقول:

تدار كتما عبسا وقد ثل عرشها　　　وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل[٢]

وفيه شواهد كثيرة، وكلام يطول، ولجدي القاسم بن إبراهيم عليه السلام في العرش والكرسي كتاب بليغ اجتزينا [به] عن التطويل في جوابك هذا، فانظر فيه إن شاء الله.

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم/ ١٣١. باختلاف يسير.

(٢) ورد في الديوان هكذا:

تدار كتما الأحلاف قد ثل عرشها　　　وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

٦٤) **وسألت** عن قوله عز وجل: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة:٦٤]. فقلت: ما معنى ذلك؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: معنى قوله: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾. يعني: نعمتاه نعمته في الدين ونعمته في الدنيا، وكذلك قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، وقوله: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس:٧١]. يقول: ما توليته بنفسي، والعرب تقول لمن تخاطبه: في عنقك يا فلان لي يد، يعني: نعمة، لا أن في عقنه له يدا لازمة بكف وأصابع، وقد قال الله سبحانه: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس:٢]. فهل يجوز في العقول أن للمؤمنين عند الله عز وجل قدما مطروحة بعقب وأصابع، هذا ما لا يجوز في العقول، ولا يتوهمه مسلم!! وقد قال الشاعر في نحو ذلك:

تحملت من اسما ما ليس لي به ولا للجبال الراسيات يدان[1]

والجبال ليس لها أيدي، فجاز هذا في لغة العرب، وإنما خاطبهم الله عز وجل بلغتهم التي يعرفون، وإنما جاء الهلاك في الدين والترك للتوحيد من جهل الخلق باللغة العربية.

ألا ترى أن العرب تقول ما زلنا نطأ السماء حتى وصلنا إليكم من مسيرة أيام كثيرة، وهذا الكلام عند من لا يفهمه غير جائز، أن يكون أحد يطأ السماء، وهو عند العرب وأهل المعرفة صحيح جائز، لأنهم يعنون بالسماء هاهنا: الغيث، أي: لم يزالوا يطئونه حتى بلغوا إلى أصحابهم، وقال الشاعر في نحو ذلك:

---

(١) لم أقف عليه.

وكــأن نفحتبــه وطيــب نســيمه غــب الســماء صريمــة مقفــار[١]

قال: غب السماء، يعني به: ثانية الغيث، أي اليوم الثاني من الغيث.

وقال الكميت بن زيد الأسدي:

تصـــل الســـماء إلى الســـماء بصــوت أســحم ذي زمــاجر[٢]

يعني: الغيث، فصيَّره سماء إلى سماء.

٦٥) وسألت فقلت: كيف الجواب لمن قال: إن الله جل ثناؤه على عرش مثل السرير؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: نقول لهم: قال الله عز وجل: لقد كفر ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:١٨١]. من احتاج إلى شيء من جميع الأشياء كلها صغيرها وكبيرها، فهو فقير غير غني، فيثبت على من قال إن له عرشا مثل السرير أنه محتاج، ومن زعم أنه محتاج إلى قليل أو كثير فقد أوجب أنه فقير، ولزمه الكفر بقول الله عز وجل: لقد كفر: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾. لأن من زعم أن الله عز وجل يشبه خلقه في مجيء أو ذهاب، أو صعود أو نزول، أو حركة أو سكون، أو عرش يستوي عليه كاستواء الملوك على أسرتها، أو ملائكة تحمله كما يفعل الناس بحمل بعضهم لبعض، أو أمر من جميع الأمور التي تلزم التشبيه، فقد أوجب أنه فقير، ومن قال بذلك فقد كفر بالله العظيم، والله تبارك وتعالى هو الغني على الحقيقة لا على المجاز، فكل غني وإن عظم غناؤه لم يكن بغني على الحقيقة، وإنما هو غني المجاز، وذلك لو أن رجلا مَلِكَ

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

الأرض ومن عليها لم يكن بغني، لأن الحاجة والفاقة والعجز والفقر لازم له، وإن مَلِكَ جميع الأرض ومن فيها، لأنه يحتاج إلى الطعام والشراب، والجيئة والذهاب، والغليظ والثياب، فالفقر له مقارب في جميع الأسباب، والله تبارك وتعالى هو الغني لا يحتاج إلى شيء من جميع الأشياء كلها، وذلك قوله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ [لقمان:٢٦]. لأنه لا غني إلا هو تبارك اسمه.

٦٦) **وسألت** عن قول الله عز وجل: ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ:١٧]. فقلت: أرى الجزاء ليس هو إلا للكفور وحده؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: هذا من الإضمار الذي ذكرت لك في القرآن، والمعنى فيه وهل يجازي بالعقوبة إلا الكفور، ومثله من الإضمار ما ذكرت في قوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [النور:١٠]. يذكر بعده شيئا، والإضمار مشهور في لغة العرب، قد قدمنا ذكره في هذه المسائل بما فيه الكفاية إن شاء الله، ومن ذلك قول الأعشى البكري:

أقول لما جاءني قوله ... سبحانه من علقمة الفاخر[1]

يريد: سبحان الله، فأضمره ولم يذكره.

٦٧) **وسألت** عن قوله عز وجل: ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفتح:١]. فقلت: إن قال قائل: كيف يجوز التسبيح للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والتسبيح لا يكون إلا لله جل ثناؤه؟!

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: هذا مستعمل في لغة العرب من قصة

---

(١) ورد في الديوان هكذا:

أقول لما جاءني فجره ... سبحانه من علقمة الفاجر

تدخل بين قصتين، قال: ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [الفتح:٩]. ثم ندب إلى نصرة النبي صلى الله عليه فقال:.﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾. أي: تنصروه، ، ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ والتوقير لا يخفى على أحد، ثم رجع إلى نفسه تبارك وتعالى فقال:.﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ ﴾. لأنه قال: ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ ثم عطف الكلام حتى عاد إلى تسبيحه هو عز وجل.

٦٨) وسألت عن قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ [الأعراف:١٤٣]. فقلت: ما معنى التجلي من الله عز وجل؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: قد قيل فيه بأقاويل لا أشك أنك قد عرفتها، وأحسنها عندي ما أنا ذاكره لك، وهو أولى بلغة العرب، وله نظائر من القرآن، فأفهمه ذهَّنك إن شاء الله.

قال: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ يعني: فلما تجلى ربه بالجبل، أي تجلى لخلقه الذين كانوا مع موسى صلوات الله عليه بالجبل، يعني أن تجليه بالجبل هو دلالة لهم عليه، فلما أوقع من الآية التي نظروا إليها، فقامت اللام الزائدة مقام الباء، لأن حروف الصفات يعقب بعضها بعضا، والله تبارك وتعالى لا يتجلى للجبل، والله عز وجل لم يغب عن الجبل منذ خلق الجبل، والتجلي يلزم من كان عليه حجاب وستر ثم تجلى عنه ذلك الحجاب، والله عز وجل متقدس متعال عن ذلك!! لأنه شاهد كل نجوى، وحاضر كل ملأ، لا يخلو منه مكان ولا يخفى عليه، والتجلي فقد تعرفه العرب في لغاتها وأشعارها، وأنه يجوز عندها على غير تجلي الرؤية، من ذلك قول الشاعر يصف بعض الملوك، لأنه تجلى لقوم خالفوا أمره، فوجه إليهم عسكرا ولم يبرح هو، قال الشاعر:

تجـــلى لهـــم بالمشـــــرفية والقنـــا   وإن كان عمن طعن الأسنة نائيـا[1]

فترى كيف خرج التجلي عند العرب، وكيف جوازه في لغاتهم ومخاطباتهم، وقد قال عز وجل: ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون:٦١]. فكيف يستوفون الخيرات لو سبقوا الخيرات، لم يكن ذلك لهم بفخر، ولا لهم فيه مديح، وإنما المعنى فيه: يسارعون في الخيرات وهم بها سابقون، فقامت اللام مقام الباء. قال الشاعر:

لقــد نلــت أمــرا لم تكــن لتنالــه   ولكن لفضل الله مـا نلـت ذلـك[2]

يريد: بفضل الله، فأقام اللام مقام الباء، فهذا حجة في حروف الصفات التي يعقب بعضها بعضا، وقد جرى في ما سألت عنه نظائر لهذا في جواباتنا هذه، وفيه لك الكفاية بحول الله وقوته.

وبهذا الجواب في هذه الآية: ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون:٦١]، أجاب أبي الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين.

٦٩) **وسألت** هل يجري على الله عز وجل شيء مما يجري على المخلوقين في بعض المعاني من قليل أو كثير؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: هذا قول لا يجوز ولا يصح في صفة الله تبارك وتعالى، لأنه يقول في كتابه: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ [الشورى:١١]. وفي هذه الآية كفاية، لأن من صفة الخلق أن الله عز وجل جعل منه ساكنا ومتحركا، وحيا وميتا،

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

وجمادا وحيوانا، وناطقا وصامتا، وداخلا وخارجا ومنقطعا، وليس يذهب منه شيء إلا فقد ونقص معناه، وليس يجوز على الله جل ثناؤه معنى شيء، وذلك أن جميع ما عددت لك مخلوق، والله عز وجل خلاف ذلك.

ومن الحجة أن الموصوف بتلك الصفة لا يكون فردا أبدا، لأنك تعلم أن الساكن وسكونه، والمتحرك وحركته، والحي وحياته، والميت وموته، والخارج وخروجه، والداخل ودخوله، وعلى مثل ذلك يجري ما ذكرنا لك، والله تبارك وتعالى بريء من شبه ذلك، عز وكرم وتقدس ذو السلطان العظيم.

واعلم أن الله جل ثناؤه خلق الحواس الخمس، وهي السمع والبصر والشم والذوق، واللمس للحار والبارد، واللين والخشن، وما أشبه ذلك مما تدركه الحواس الخمس، ولا يجوز أن يطلق إلى الله عز وجل منهن، لأن السمع إنما سمع صوتا فحدث له منه علم بالأصوات، وكذلك البصر إنما رأى شخصا فحصل له علم الأشخاص، وكذلك الأنف إنما شم ريحا فحدث له علم الأرواح، وكذلك الفم إنما ذاق فحدث له علم بما ذاق من حلو أو مُر، وكذلك اليد إنما لمست فحدث له علم بالمحسوسات، والله عز وجل الخالق لذلك كله، والمصور له، والمستغني عنه، والله تبارك وتعالى خلق الإنسان لا يعلم شيئا، حتى إذا استفاد المعارف والعلوم وكل ما وصفنا، وذلك قوله في كتابه: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [النحل:٧٨]. فإذا كان الله عز وجل لا يشبه شيئا من جميع خلقه، فهو من أن يشبه أفعال خلقه أبعد وأجلُّ، فتعالى الله أن يشبه المخلوقين في شيء من جميع المعاني كلها علوا كبيرا.

واعلم أن حجة الله عز وجل قائمة بالتوحيد عن الله سبحانه قبل مجيء الأنبياء وبعد مجيئهم، لأن أنبياء الله صلوات الله عليهم إنما بلغوا التوحيد عن الله على ما

يجوز من الكلام بين الناس، وقد ذكر الله تبارك يدا وسمعا، وبصرا وعلما، وعينا ووجها، ونفسا وجنبا، وقبضاً وبسطة، ومجيئا واستواء على عرش، وإتيانا في ظلل من الغمام، وغير ذلك مما يجوز في اللغة العربية، التي غلط من أهل التشبيه المقصرين في توحيد الله عز وجل، فانظر أنت ذلك إلى مجاز الكلام وكيف مخرجه في اللغة، فاحمل عليه دون التشبيه الذي لا يليق بالآدميين، تُصِبْ رشدك إن شاء الله، ولولا الاجتزاء بما قد ذكره الهادي إلى الحق صلوات الله عليه في هذا المعنى في كتاب المسترشد لشرحناه وبيناه، ولكن لم يترك الهادي صلوات الله عليه لأحد كلاما، مع ما بيَّن في كتاب المسترشد ولله الحمد والمنة.

٧٠) وسألت عن قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦] ؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: إن من زعم أن الله تبارك وتعالى دعا العباد إلى أمر قد حال بنيهم وبينه، ونهاهم عما قضاه وقدر عليهم أن يعملوا به، وأراد بذلك المجبر السائل جهله، وأن يزين لنفسه خَطَاه، ويكابر الحق الذي جاء من عند الله عز وجل صراحا بدعواه، في قول الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. كأنه يرى عند نفسه أن الله تقدس وتعالى قال لنبيه محمد صلوات الله عليه: إن دعائك للعباد وما أرسلناك من البرهان والنور والهدى والبينات والآيات الواضحات لا ينفع الناس شيئا، ولكن أنا أقسر عليه من شئتُ منهم، وليس ذلك كما تأولوه ولا كذلك فعل الله عز وجل، وإنما كان ذلك أن رجلا كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكان ومنزلة، فحرص عليه أن يسلم فأخبر الله سبحانه نبيه صلوات الله عليه وعلى آله أن حرصك لا يغلب إرادة العبد أن يسلم، فإن أحدا لا يستطيع أن يغلب أحدا على إرادته وهواه إلا الله القوي

القادر الذي يملك تصريف القلوب في الهوى، وبيده النواصي والأقدام، وقال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا ﴾ [يونس:٩٩]. أي قسرا وجبرا، وكذلك قوله: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ [الأنعام:٣٥]. وليس من صفته جل ثناؤه أن يجبر أحدا من خلقه على طاعة ولا معصية، حتى يختار كل منهم ما أراد من ذلك لنفسه، وبذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

٧١) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿ فَمِنۡهُمۡ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [هود:١٠٥]. وقلت: ما معنى ذلك؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: قوله: ﴿ فَمِنۡهُمۡ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾. يقول: منهم ناج بعلمه سعيد في الجنة، ومنهم شقي بعلمه هالك في النار. وقال عز وجل: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٢، الأنفال:٥١]. فكيف تكون يداه قدمتا له، وإنما هو أمر قُسِرَ عليه زعمت المجبرة؟! وبطل قوله عندهم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت:٣٩]. نعوذ بالله لنا ولك من الجهل في دينه، والمعاندة لكتابه، إنه منان كريم.

٧٢) وسألت عن قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِىٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ ﴾ [هود:٣٤] ؟

كأنهم يرون أن القول على الله عز وجل يريد أن يمنعكم من الإيمان، ومما أمرني أن أدعوكم إليه من الحق، وليس وجه الآية كما ظنت المجبرة، إنما عنى نوح صلوات الله عليه إن كان الله يريد عذابكم فلن ينفعكم نصحي، والعذب فهو الغي.

ألا ترى أن الله سبحانه يقول: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ [مريم:٥٩]. يقول: فسوف يلقون عذابا، وقول إبليس اللعين ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ [الأعراف:١٦]. يقول: فبما جعلتني وحكمت عليَّ أني من المعذبين، فالغي عقوبة كما ذكرنا، والغي على وجهين:

عقوبة عاجلة.

وعقوبة آجلة.

العاجلة ما أصاب إبليس من اللعنة، وإخراجه مما كان فيه من الكرامة.

والآجل قول الله عز وجل: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم:٥٩]. يقول: فسوف يلقون عذابا.

وجواب آخر يقول: إن كان الله يريد أن يغويكم، ولم يقل قد أراد إغواءكم، وإنما قال إن كان على مجاز الكلام، ولم يقل إنه قد فعل، وبهذا أجاب القاسم بن إبراهيم صلوات الله عليه.

٧٣) وسألت فقلت: ما الدليل على أن الله تبارك وتعالى عدل لا يجور؟

الدليل على أن الله تبارك وتعالى عدل لا يجور: إقرارك أنه غني، لأنا وجدنا الجائز لا يحمله على الجور إلا استجلاب منفعة يجرها إلى نفسه، أو دفع مضرة يخشاها على نفسه، فلما كان الله جل ثناؤه لا يستجر إلى نفسه منفعة، ولا يدفع عنها مضرة، ثبت بالحقيقة أنه غني، وأن الغني عدل لا يجور، وهذه المسألة جواب الهادي إلى الحق صلوات الله عليه. وقولي فيها على قوله.

٧٤) وسألت عن قوله: ﴿أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات:٣٢] في مواضع من القرآن، فقلت: ما معنى ذلك؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: أرساها على وجهين في القرآن، كل واحد منهما غير صاحبه.

فالوجه الأول: ﴿أَرْسَىٰهَا﴾ يعني: أثبتها، فقال في سورة النازعات: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٢]. يقول أثبتها في الأرض لأن لا تزول بمن عليها، وكقوله: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣]. يعني ثابتات في الأرض.

والوجه الثاني: من ﴿أَرْسَىٰهَا﴾ يعني به: حينا، والحين هو الوقت، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف:١٨٧، النازعات:٤٢]. يقول مجيئها وقيامها وحينها.

٧٥) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون:٩٩]. فقلت: كيف جاز أن يجعل الله هاهنا جماعة؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: إنما يجوز هذا القول في التعظيم للمخاطب.

٧٦) وسألت عن قوله عز وجل: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥]. فقلت: ما معنى هذه النجوم؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: قد جاء في التفسير أن القرآن نزل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم آيات بعد آيات، فذلك في لغة العرب يجوز، تقول العرب اجعلوا لنا الدية على آل فلان نجوما، أن يدفعوها، إليهم شيئا بعد شيء، فيسمون ذلك نجوما. قال زهير بن أبي سلمى:

ينجمهـا قومـا لقـوم غرامـة ... ولما يريقـوا بينـهم مـلء محجـم[1]

وإنما أقسم بها كما أقسم بالطور، وإنما أراد بهذا القسم أن هذا القرآن لقرآن كريم، فهذا موضع القسم وهو عندي الجواب في هذه المسألة.

---

(١) ورد في الديوان هكذا:

ينجمهـا قـومٌ لقـوم غرامـة ... ولما يهريقـوا بينـهم مـلء محجـم

والجواب الأول قول بعض أهل العلم.

وسألت عن تفسير الجهاد كيف معانيه في القرآن؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: تفسير القرآن على ثلاثة وجوه:

فالوجه الأول من الجهاد يعني به: القول، فذلك قوله عز وجل: ﴿ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾ [الفرقان:٥٢]. وهذا بمكة قبل أن يؤمر بالسيف، وقال في سورة النبي صلى الله عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ [التوبة:٧٣، التحريم:٩]. يعني: بالقول الغليظ.

والوجه الثاني من الجهاد يعني به: القتال بالسلاح، فذلك قوله: ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ – يعني: الذين يقاتلون في سبيل الله – بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء:٩٥]، وقال في براءة: ﴿ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾ [التوبة:٧٣]. يعني: بالسيف، ومثلها في ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ [التحريم:١][1].

والوجه الثالث من الجهاد يعني به: العمل، فذلك قوله في سورة العنكبوت: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ ﴾ [العنكبوت:٦]، من يعمل الخير فإنما يعمل لنفسه. وقال فيها أيضا: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت:٦٩]. يقول: عملوا لنا، وقال في سورة الحج: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ﴾ [الحج:٧٨]. يقول: اعملوا لله حق عمله.

---

(١) يشير إلى الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [التحريم:٩].

٧٧) **وسألت** عن قوله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال:٣٥]. وقلت: ما المكاء وما مخرجه في اللغة؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: المكاء في لغة العرب هو الصفير، موجود ذلك في كلامها وأشعارها، من ذلك قول عنترة العبسي:

وحليـــل غانيـــة تركـــت مجـــدلا تمكـــوا ترابيـــد كشـــدق الأعلـــم[1]

يقول: يصفر ويخور عند خروج نفسه حين قتله، وإن ترابيه - زعم الشاعر - مفتحة كشدق الأعلم، والأعلم فهو مشقوق الشفة.

٧٨) **وسألت** عن قول الله عز وجل: ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا ﴾ [النساء:٤]. فقلت: كيف جاز أن يقول نفسا واحدة وهن جماعة أنفس؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: ذلك جائز في لغة العرب، قال الربيع بن زياد العبسي في نحو ذلك لقومه:

فـإن طبـتمُ نفســا بمقتــل مالــك فنفسي لعمري لا تطيـب لـذالكا[2]

فصيَّرهم نفسا واحدة وهم جماعة رجال كثير.

٧٩) **وسألت** عن قوله عز وجل: ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[المائدة:٤٨]. فقلت: ما معناه؟

قال أحمد بن يحيى رضي الله عنه: المهيمن هو الشاهد، قال عبد الله بن العباس يمدح ابن عمه أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

---

(١) ورد في الديوان هكذا:

وخليـــل غانيـــة تركـــت مجـــدلا تمكـــوا فريصـــته كشـــدق الأعلـــم

(٢) لم أقف عليه.

ألا إن خـير النـاس بعـد محمـد مهيمنه التاليه في العـرف والنكـر(١)

وفي أمير المؤمنين عليه السلام ما يقول عز وجل لنبيه صلوات الله عليه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود:١٧]. يعني بذلك: النبي صلى الله عليه وآله، والتالي علي رضي الله عنه.

٨٠) **وسألت** عن قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء:٨٥]. فقلت: ما معنى مقيتا؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: المُقيت في لغة العرب - برُفعة الميم - القادر على الشيء، والمَقيت - بفتح الميم - فهو البغيض، قال قيس بن الأسلت الأنصاري يذكر الاقتدار على الشيء ومعناه، قال في ذلك:

وذي ضـغن كففـت الـنفس عنـه وكنـت عـلى إسـاءته مقيتـا(٢)

يعني: قديرا.

٨١) **وسألت** عن قوله عز وجل: وكان ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود:١٢]. فقلت: إن قال لنا قائل: كيف يجوز أن يكون الله عز وجل وكيلا، ويقول العبد الله وكيلي، وكيف الجواب في هذا المعنى؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: قد بلغني أن القرامطة الكفار عليهم لعنة الله يحتجون بهذه الآية على جهال الناس، ويغالطون الغباه وأهل الغفلة، ويقولون: كيف يجوز أن يكون الله وكيلا، وإنما له الوكالة، يريدون بذلك الإلحاد، وإن كون

---

(١) البيت للشاعر: الأخضر اللهبي. ورد في الديوان هكذا:

ألا إن خـير النـاس بعـد محمـدٍ وصي النبي المصطفى عند ذي ذكـر

(٢) لم أقف عليه.

وقدر خالقان، وذلك من جهل من يلقون من الناس بالدين، وبلغة العرب التي خاطب الله بها عز وجل رسوله صلى الله عليه، وخاطب رسول الله صلى الله عليه القوم أهل اللسان العربي، الذي بعث صلوات الله عليه به.

فالجواب لهم عليهم لعنة الله أن يقال لهم: إن اللغة العربية واسعة، جهلتها القرامطة وغيرهم، ولذلك مَوَّهوا على الخلق الذين لا يعقلون، ومن ذلك أن العرب تسمي أسماء كثيرة بأضدادها من الكلام، من ذلك أنك تقول: مولاي فلان الذي أعتقته، وفلان مولاي الذي أعتقني، فجاز الاسم لهما جميعا وهما ضدان، وتسمي العرب المكري الذي يكري الإبل كريا، وتسمي المكتري الذي اكترى من الجمال أيضا كريا. قال الشاعر:

كريــــة لا يطعـــــم الكريـــــا ومثلهـــا لا يصـــحب المطيـــا[1]

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((البيعان بالخيار ما لم يفترقا))، يعني: البائع والمشتري، فسماهما: بيعان، وإنما أحدهما: بَيِّعٌ، والآخر: مشتري، والوكيل يجوز في لغة العرب المالك للشيء كله يسمى وكيلَ شَيِّه، أي: مالكه، والوكيل لغيره يسمى: وكيلا، وكل ذلك جائز في اللغة معروف غير منكر والحمد لله، لا ما ذهبوا إليه من الكفر، وإن كون وقدر يخلقان من دون الله عز وجل وتقدس عما قالوا علوا كبيرا.

٨٢) **وسألت** عن قوله عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [الأنبياء:٧٣]. وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [القصص:٤١]. فقلت: ما معنى هذا في العدل؟

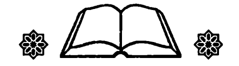
---

(١) لم أقف عليه.

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: اعلم - أرشدك الله - أن الجعل في كتاب الله عز وجل يخرج على وجهين:

فمنه جعلُ حَتْمٍ وهو قوله عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء:٢٥]. وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾ [الإسراء:١٢]. وما أشبه لك من جعل الحتم.

والجعل الآخر فهو قوله عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [القصص:٤١]. فذلك جعلُ حكمٍ وتسمية، أي: جعلناهم وسميناهم بفعلهم، وكذلك أئمة الهدى استحقوا الإمامة بالهدى والتقوى، فحكمَ لهم بالهدى والتقوى، وجعلهم أئمة لعباده وكهفا ونجاة.



تفسير
سورة بني إسرائيل

تفسير سورة بني إسرائيل

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عز وجل: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾.

قال الناصر لدين الله أحمد بن يحيى بن الحسين صلوات الله عليهم: قوله: ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ يريد بذلك التنزيه لنفسه والتقديس، جل ثناؤه، إذ لا يجوز التسبيح لأحد غيره، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتسبيح فهو من لغة العرب المعروفة، وهو التنزيه.

أقول لما جاءني قوله سبحان من علقمة الفاجر

يريد بذلك: التنزيه لله عز وجل والتعظيم، وأضمر الله في هذا الموضع لمعرفته بجواز ذلك عند العرب.

وأما قوله: ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ فإنه يريد: محمدا عليه السلام، الإسراء هو: المسير بالليل، ولا يجوز أن يكون الإسراء بالنهار.

قال ذو الرمة:

فإن كنت إبراهيم تنوين فالحقى وإلا فارجعي بسلام
فلم تستطع ميٌّ مهاوتنا السري ولا خوض ليل في البرين تمام[1]

---

(١) البيتان لذي الرمة، ووردا هكذا:

ولم تستطع مي مهاوتنا السرى ولا ليل عيس في البرين سوام
فإن كنت إبراهيم تنوين فالحقي نزره وإلا فارجعي بسلام

وأما قوله: ﴿ لَيْلًا ﴾. فإنه يعني به: قدرته، وتعجيل بلوغه إلى الشام، من مكة في ليلة واحدة، والمسجد الحرام: مسجد مكة، والمسجد الأقصى: مسجد بيت المقدس المبارك الذي بارك الله عز وجل فيه وفيما حوله، وأعظمَ النعمة على خلقه والإحسان إلى بريته، ويعني بقوله: ليلة واحدة، لأن قريشا لم تفقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا ليلة واحدة.

قوله: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ ﴾. يعني: ما أراه من عظمة سلطانه، ونيِّرات برهانه، السميع بلا آلة، والبصير بلا جاسة.

قوله: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ ﴾. يعني: التوراة، ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾. يعني: ما بيَّن لهم من الحق، ودلهم عليه من الرشد، ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝ ﴾. يقول: ألا تتخذوا من دونه جل ثناؤه إلهاً يعبد، ولا رباً يُوحَّد.

قوله: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ ﴾. يعني: نسل الذين كانوا مع نوح عليه السلام في سفينته، والوارثين للأرض من ذريته، والشكور فهو: الحامد المطيع.

قوله: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ... ﴾ الآية. يعني به: أعلمناهم بما سيفعلون بعد نزول التوراة، لا قضاء حتم ولا جبر، لأن القضاء في القرءان يتصرف على ثلاثة وجوه:

فمنه قضاء خبر، وهو: الإعلام.

وقضاء حتم، وهو: الذي لا مخرج منه ولا حيلة.

وقضاء أمر، وهو قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾. ولو كان هذا محتوما ما قدر أحد أن يخرج من الطاعة إلى المعصية، ولا قدروا أن يعبدوا الأصنام من دون الله جل ثناؤه.

وأما قضاء الحتم فقوله: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت:١٢]. وأشباه ذلك في القرءان من القضاء الحتم.

وأما قوله: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾. فهذا قضاء إعلام، أخبرهم به، لا قضاء حتم.

قوله: ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾. يعني: باتباع أهوائهم، ومخالفة ما جاء به موسى عليه السلام، من أحكام التوراة.

قوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا ﴾. يعني: فسادهم الأول.

قوله: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾. فذلك يخرج على التخلية من الله عز وجل، وقد ينتقم من الظالمين بعضهم ببعض على معنى الترك. وذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٩]. يعني: أنه يخلي بينهم ويتبرأ منهم.

قوله: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾. وقد جاء في الرواية من خبر يحيى بن زكريا صلى الله عليه، بخبر بخت نصر الملك الذي كان في ذلك الزمان، فاستغنينا عن إعادته لشهرته، ﴿ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾. يعني: ما خلق في دار الدنيا من البنين والأموال، فلو لا ما خلق من ذلك عز وجل وأوجده، لما قدروا عليه باحتيالهم ومقدرتهم.

وأما النفير فهو: الرجال الكثير، معروف ذلك في لغة العرب وأشعارها.

قال رجا بن هارون الربعي، من بني قيس بن ثعلبة:

فإذا دعوت بآل بكر صارخاً كثر النفير وعزت الأنصار[(١)]

يريد: كثير الرجال عز ناصره.

﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾. يقول: إن طاعتكم لله عز وجل هو إحسان منكم إلى أنفسكم، وإن عصيتم الله عز وجل حاق ذلك بكم، وكانت السواية[(٢)] منكم إلى أنفسكم، تعقبكم النار في الآخرة.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾. يعني: أنه يقبح وجوههم بمعصيتهم له ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، بما استحلوا من محارمه، وانتهكوا من حرماته. . ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ۝﴾ [الإسراء:٧]. يعني: بيت المقدس. وأما التتبير فمعروف في لغة العرب، وهو ضرب من الدمار والتبار.

قال الشاعر:

إن العهود التي لم توف مدتها قد أورثتك تباراً آخر الأبد[(٣)]

يعني: أنها أورثت دماراً آخر عمره.

قوله: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝﴾. يقول سبحانه لأعداء الله عز وجل: لا يخرجون منه أبداً. تقول العرب: فلان محصورا، إذا حصر عن الشيء، فهو حصير وحبيس، وحبس إذا كان محبوساً عن شيء لا يناله ولا يقدر فيه على حيلة، وهو المسجون أيضا.

---

(١) لم أقف عليه

(٢) يعني: الإساءة.

(٣) لم أقف عليه.

قال الشاعر:

فقولوا تركنا الهاشمي ابن صالح ببغداد حبسا بين راج وخائف[1]

قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾. يعني: أنه الدين المرتضى رب العالمين. ﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾. يعني: الذين يؤدون الفرائض على وجهها، ويجتنبون المحارم وقربها، والأجر الكبير، فهو: الثواب العظيم الذي على لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولم يخطر على قلب بشر، يصدق ذلك قوله عز وجل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة:١٧].

﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾. يقول: إنه عز وجل أعد لأعدائه المخالفين لأمره، والعادلين عن طاعته، عذاباً أليما، والأليم فهو: الغاية القصوى من العقاب، والأشد من العذاب، نعوذ بجلال الله - لنا ولكم - من أليم عذابه، والمحذور من عقابه، إنه منان كريم.

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ﴾. فالذي جاء في الرواية أن ذلك الإنسان عنى به: النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار، وكان الذي دعا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الذي ذكره الله عز وجل، حيث يقول: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال:٣٢].

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾. يعني بذلك عز وجل: ما خلق من الشمس والقمر، وما جعل بينهما من

(١) لم أقف عليه.

الفرق الواضح، وما فضَّل به ضوء النهار على ظلمة الليل، وما أتقن فيه من الصنع والتدبير، لمعازة الدنيا، ومصالح الخليقة، وذلك قوله: ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾. يعني: تصرفهم في طلب المعاش وقوام الدنيا.

﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾. فهذا ما لا يخفى على أحد من عدة الأيام والشهور والسنين، نعمة منه عز وجل ورحمة، ليعرفوا الأوقات، والمدد والحساب، والعدد والصيام في وقته، والحج في وقته، والآجال المضروبة بينهم في معاملاتهم، وأحكامهم، وأعيادهم، ونكاحهم، وديونهم، وأسفارهم، ومزروعهم، والأسباب التي لا غنى لهم عنها، ولا قوام لهم إلا بها.

قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾. يعني بذلك: عمله الذي عمل في أيام حياته من الخير والشر، فيجده مُحصىً محكما مثبتا، لم يسقط منه صغيرة فتخفى، ولا كبيرة فتنسى، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩]. والمغادرة في لغة العرب فهو الأمر الذي لا يترك منه شيء قلّ ولا كثر.

قال الشاعر:

قتلنا بالرجال فلم نغادر ... لهم بالدار من يحمي السواما[1]

يقول: لم نترك من رجالهم من يمنع عن نعمهم وأموالهم أحداً إلا قتلناه.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾، يقول: كفى لنفسه محاسباً، وعليه شاهداً، ولها محاجاً.

---

(١) لم أقف عليه.

وقد قال غيرنا: إنه عنى بذلك: الأسود بن عبد الأسود القرشي.

ونحن نقول: إن كل الناس داخل في هذه الصفة، غير معتزل عن هذه الشريطة، لقوله عز وجل: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾. ولم يعن واحدا بعينه، وكذلك قوله: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾. فنقول: إن هذه الصفة يدخل فيها كل أحد من الناس.

وقد قال غيرنا: إنه يعني: الوليد بن المغيرة أنه الذي ضل، وإن الذي اهتدى أبو سلمة بن عبد الأسد.

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾. يعني بذلك: أن أحدا لا يدفع عن أحد، وأن أحداً لا يحمل ذنب أحد أبداً، ويصدق ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النجم:٣٩-٤١]، والأوزار في لغة العرب: فهي الأحمال والأعباء والأوقار.

قال الشاعر:

حامـــل الأعبـــاء حـــين يُـــؤد ب القـــوم لا زُمَّـــلٌ ولا نُـــوَّاحُ[١]

وقال آخر يصف الأوزار:

يحمـــل أوزارنـــا إذا حجـــر الغيـــث ولم تنـــد بـــالبلال الرفـــود[٢]

والرفود فهي: الناقة ذات اللبن الكثير ترفد أهلها.

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾. يقول جل ثناؤه: إنه لم يكن ليعذب خلقه قبل إيجاب الحجة، والإبلاغ في المعذرة، وإرسال الرسل، وإنزال

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

الكتب، والإعذار والإنذار، تفضلا منه ورحمة وامتنانا، وكرما وإحسانا، فإذا بلغت الرسل وجاءت بالمعجزات، والدلالات الباهرات، والآيات الشافيات، وجبت الحجة، وقام العذر، وثبت الحق، واستحق النكال والثواب.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾. يعني جل ثناؤه، وقهر سلطانه: أن أمره هذا الذي عنى في هذا الموضع، أي: أَمَرنا مترفيها بأمرنا فتركوه وفسقوا فيها، وهذا الكلام هو المضمر في لغة العرب، الذي لا يجهله ذو لب، ولا ينكره من كان له في العربية أدنى حب.

قال الشاعر يذكر الإضمار في الكلام، ويستغني عن وضعه لعلم العرب به وصحته عندها:

وإن المنيـــــة مـــــن يخشـــــها   فســـوف يصـــادفها أيـــن مـــا[1]

يريد: أين ما كان من جميع الدنيا أدركته المنية، فأضمر ذلك لعلمه أن العرب قد علمت ما أراد.

قال أمرؤ القيس بن حجر الكندي، وكان من أهل نجد:

لعمــرك لــو شيء أتانــا رســوله   سواك ولكن لم نجد بـك مـدفعا[2]

فأضمر ولم يأت بجواب لعمرك لو شيء أتانا سواك، وكان ينبغي أن يقول: لفعلنا كذا وكذا فأضمره.

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور:١٠]. ثم وقف الكلام، وقد علمت العرب أن تحته لكان كذا وكذا من

---

(١) البيت لامرىء القيس، وقد سبق.

(٢) لم أقف عليه.

العقاب، فأضمره ولم يذكره، وقال في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۝ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ [يوسف:٤٥ - ٤٦]. فأضمر والذي تعرف العرب أنه أراد به أنه عنى: أرسلون إلى يوسف الذي في الحبس، فأضمر إلى يوسف، وأضمر الإرسال، وأضمر المصير إليه، فلم يذكر ذلك، لاستغناء العرب عنه، بقوله: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾.

ومثل هذا في القرءان كثير، في سورة يوسف وغيرها من السور، يطول بشرحه الكتاب، ولو لا كثرته لفسرناه على جهته بمعانيه وشواهده من أشعار العرب ولغاتها، وفيها قلنا كفاية وشفاء، إن شاء الله.

والله عز وجل لا يأمر أحداً من جميع خلقه بفسق ولا فساد، ولا معصية ولا إلحاد، ولا يصدهم عن خير ولا رشاد، جل عن ذلك وعلا علواً كبيرا، فقال عز وجل: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ۝ ﴾. يقول جل ثناؤه: أمرناها بأمرنا فتركت، فحق عليها القول، فوقع بها الهلاك والنقم بالدنيا والآخرة.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝ ﴾. يقول: كفى به عز وجل عالما بجميع الأشياء، إذ لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه غائبة، لا يحجب عليه مستور.

وكيف يكون ذلك وهو القائل جل ثناؤه: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝ ﴾ [الطلاق:١٢]؟! فقد علم بذنوبهم من قبل خلقه للسماوات والأرضين، وإلى ما هم عليه باختيارهم صائرون.

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ ﴾. هو أنا قد رأينا الكل يريد أشياء كثيرة فلا توانيه، ولا تسعفه ولا تدانيه، فالله عز وجل يعجل لمن يشاء في

الدنيا ما أراد، ثم يُصيِّره إلى جهنم يصلاها مذموما مدحوراً. والمذموم فهو: القبيح الفعل، والمدحور فهو في لغة أهل النجد: الملعون، ويقولون للرجل إذا غضبوا عليه: دحر الله فلانا، أي: لعنه الله.

قال الشاعر:

إن عـوف بـن عـامر رَامَ ظلمـي ولمَّــا زال فــاجراً مــدحوراً[1]

وهو أيضا في اللغة: المبعد.

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾. يعني: الجنة، والسعي لها الأداء لجميع الفرائض، والاجتناب لجميع المحارم، فهذا السعي لها. ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾. أي: مؤمن بالله، قائم بفرائضه، مؤدي لما أمر به من طاعته. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝﴾. فالله عز وجل إنما يعطي المشركين ومن يعصيه من زخرف الدنيا وغضارتها، ما يكون له به عليهم الحجة، ويعطي المؤمنين الفضل فيما أنعم به عليهم من الهداية والدين، واتباع المرسلين.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ۝ ﴾. لأن درجات المؤمنين في الآخرة ما لا يبلغه وَهْمُ متوهِّم، ولا يصفه لسان متكلم، لجليل خطره، وعظيم شأنه، وشرف قدره، وكذلك ما يحل بأعداء الله عز وجل، أهل النار من النكال العظيم، وظل اليحموم، وأكل الزقوم، وشراب الحميم.

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝ ﴾. فأمره الله جل ثناؤه، ومن اتبعه أن لا يجعلوا معه إلها، ولا يشركوا بعبادته أحداً، وأن من فعل ذلك فقد استوجب الذم والخذلان في الدنيا والآخرة.

---

(١) لم أقف عليه.

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾. أمرا لا جبراً، وتخييراً لا قسراً، فلمن أطاع الجنة، ولمن عصى النار.

﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾. هذه وصية من الله سبحانه في الوالدين، أن لا يُقطعا ولا يُجفا بهما، وأن يُحسن إليهما جزاء بما أحسنا، وأن يُحفظا كما حفظا، ويُكرَما كما أكرما، ويُربيا كما رَبيا، رحمة منه عز وجل وتأديبا لخلقه، وتنبيهاً على الصواب، ليجزيهم على ذلك الجنة، ويوجب لهم الكرامة، ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا ﴾. والأُف: هو التأفف في لغة العرب المعروفة، وهو التأذي والاستثقال.

قال الشاعر:

حللنا بكم حتى إذا طال مكثنا   بدا لي تأذي منكم وتأفف

وطال ثوانا عندكم فمللتم   وإنا يقيناً فاعلموا سنخفف[1]

﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾. فالانتهار هو: الصياح بالغضب والكلام الغليظ.

قال الشاعر:

بدا لي من أبي زيد شفار   في رسائله انتهار[2]

والقول الكريم الذي أمر الله به عز وجل فهو: الليِّن الجميل الحسن من القول، كما قال لموسى وهارون عليهما السلام، ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه:٤٣ - ٤٤]. أراد بذلك استعطافه إلى الحق، والرجوع إلى التوبة،

---

(١) لم أقف عليهما.

(٢) لم أقف عليه.

لكرمه الله عز وجل ورأفته بخلقه، لأن الكلام الغليظ يباعد ولا يقرب، وينفر ولا يؤلف.

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ يوصيه بلين الجانب لهما، والتذلل لعظيم قدرهما، والرأفة بهما، والرقة عليهما.

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾. فالله عز وجل المطلع على ضمائر النفوس، وسرائر الصدور، فمن كان صالحاً أُثيب، ومن كان عاصيا عوقب، والأوابون فهم التائبون المفلحون، الذين يستوجبون من الله جل ثناؤه الغفران، وينجون من النيران، تقول العرب: قد آب فلان إلى ربه، أي: قد تاب عن ذنبه ورجع عنه، كما تقول: قد آب فلان من سفره، أي: رجع من سفره.

قال الشاعر:

وآب إلينا مالك بعد ما غدا ... على حد صرم لا يريد رجوعا[1]

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾. فأمره بصلة القرابة لما عظَّم من فرض ذوي الأرحام، وهذا الذي ذكر الله سبحانه في قوله: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾. فهذه للناس كلهم عامة، وعليهم واجبة، أن يؤتوا القريب والمسكين وابن السبيل، وأن يأتوا فيهم ما فسرناه وبيناه، لأن الله عز وجل فرض على الناس فروضاً، وجعل الدَّني والشريف فيهما سواء.

وأما ابن السبيل فهو: مارُّ الطريق المنقطع.

---

(١) لم أقف عليه.

والمسكين فهو: الذي لا مال له، وهما اللذان تجب مواساتهما، والإحسان إليهما.

والتبذير فهو: ضرب من الفساد، وكثرة الإنفاق، فأمره عليه السلام بالاقتصاد، لأن من أنفق في غير طاعة الله عز وجل صار مواليا للشيطان.

﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾. أي: عاصيا.

وقد قال غيرنا: إنه عنى بكفور، أي: جاحد، وليس عندنا كذلك، بل كَفَرَ إبليس اللعين وهو يعلم أن الله عز وجل ربه وخالقه، الدليل على ذلك قوله عز وجل يخبر عنه: ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص:٧٦]. فأقرّ أن الله جل ثناؤه خالقه، ولم يجحد ذلك.

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾. يريد بذلك: المشركين من قومه.

يقول: تُعرض عنهم اعراضاً، يريد: صبراً وثواباً فافعل.

و ﴿ قُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾، يعني: سداد من القول في اللين والحلم، وما يشبهه عليه السلام من الفضل والكرم.

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾. يعني بذلك: البخل، فكرهه وأدَّبه عليه، وأمره بالجميل من الإصلاح.

ثم قال له: ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾. يعني: أنه يلام ويقال فيه القول، و ﴿ مَّحْسُورًا ﴾ لا يبقى معه شيء.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾. يعني: أنه لو أراد لبسط عليه الرزق، وأن يجعل الجبال كلها له ذهباً وفضة، لهان ذلك عليه.

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾. يقول: لكرامتك عندي، وعظيم قدرك لدي، حَمَيْتُك عن تافه الدنيا، وجعلت لك كرامة الآخرة.

وقد جاء في الأخبار ((أن الله عز وجل يحمي عبده المؤمن الكريم عليه عن الدنيا، كما يحمي الطبيب الرجل العليل من الأشياء التي تتوق إليها نفسه))، لما يريد له من دائم الكرامة في الجنة.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾. وذلك أن العرب كانت تقتل أولادها من البنات خاصة، على ضربين:

أما أحدهما فكان من خشية الفقر.

وأما الآخر فكان من الغيرة والحمية.

والإملاق في لغة العرب، فهو: الفقر، وقلة ذات اليد، والضيق في المعاش.

تقول العرب: فلان رجل مملق، أي: فقير.

قال الشاعر:

إننا معشر نجود على الضيف ... على حالنا من الإملاق[1]

يعني: على حالهم من الفقر فيجودون، ويطعمون وهم في غير سعة، لكرمهم وسعة أخلاقهم.

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾. يعني: إثماً عظيماً.

وقوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾. يعني: سوء السبيل إلى النار.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: ((في الزنا ست خصال، ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة، فأما اللواتي في الدنيا، فإنه يذهب البهاء، ويورث الفقر، ويقطع العمر، وأما اللواتي في الآخرة، فيوجب سخط الرحمن، وسوء الحساب، والخلود في النار)).

---

(١) لم أقف عليه.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾. يعني: إلا من قُتل بحق في جميع الأسباب التي يحل بها القتل، بين قَوَدٍ أو حد من حدود الله عز وجل، ممن أوجب الله عز وجل قتله، ممن عاند المسلمين من المشركين، وغيرهم من الباغين، والظالمين، والمرتدين، وأهل الكتاب، ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[التوبة:٢٩]. ومن تعدى في شيء من القتل، فقد عاند الله عز وجل وخرج من حكمه.

وقوله جل ثناؤه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾. يعني: ألا يقرب ماله إلا بما فيه له الصلاح، وإدخال المرافق، إزاحة الضرر عنه، فقد قال عز وجل في سورة البقرة: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ ﴾[البقرة:٢٢٠]. يعني: في البيع والشراء والتزويج والعارية، وما أشبه ذلك: ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة:٢٢٠]. يعني: في مال اليتيم، ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾، يعني: مبالغ الرجال.

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾. يعني: أوفوا بعهد الله عز وجل وبذمتكم، لأن الوفاء بالعهد أجمل بالمؤمنين، وأحسن بالصالحين.

وقد بلغك كيف كان قصة هلال بن عويمر، وما ذكر الله عز وجل من خبره في سورة براءة، حيث قال: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[التوبة:٧٥]. ثم لم يف بعهده، ولا بما أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من نفسه بذلك، فأعقبه نفاقا في قلبه إلى أن يلقى ربه.

وقد فسره الهادي إلى الحق صلوات الله عليه في كتاب الأحكام، فأغنانا ذلك عن إعادته.

﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾. يحضهم عز وجل

على الوفاء في كيلهم، ووزنهم ومعاملاتهم، إذ كان ذلك أجل وأزكى عند الله عز وجل، وأقرب إلى الجنة وأنجا من النار.

والقسطاس فهو: الميزان الوافي الذي لا زيادة فيه ولا نقصان، وهو الحق المستقيم.

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾. يأمره كما تسمع أن لا يقول إلا ما يعلم، ولا يشهد إلا بما أيقن، ولا يعمل إلا بما أتقن، إذا كان الله عز وجل لا بد أن يسأل البصر عن فعله، والفؤاد عن فعله، وجميع الجوارح عن أفعالها، فلا يجوز عنده عز وجل إلا الحق، ولا يقوم لديه إلا الصدق، ولا ينجو إلا المحق.

وقد ينبغي لكل مسلم أن يحافظ على حواسه، ويحول بينها وبين الهوى بجهده وطاقته، فلا يقفو من الأمور كلها إلا صحيحها، ولا يتغاطى منها محرماً قبيحاً، ولا يقول إلا حقا مشروحاً.

والقفاوة في لغة العرب فهو: التتبع لكل شيء من خلفه، فما تبعتَه من خلفه فقد قفوتَه وقفرته.

لأن العرب تقول: تقف الأثر وتعقر الأثر.

وتقول العرب: نحن نقفوا آثار الخيل، وآثار الإبل، وآثار الناس، ونحن نفقر سيرة فلان وفعله، ونحن نقفوا آباءنا وأجدادنا، يريدون بذلك: أنا نتبع آثارهم، ونقفوا مكارمهم.

قال الشاعر:

لمــــن ظعـــنٌ عَـــدَونَ مقفيـــات   عـــلى أثـــر الخلـــيط متبعـــات

قفـوت حـدوجهن وقـد تولـت   وحـال الآل دون البـاكرات[1]

ويجب مع ذلك غض البصر، وكف جميع الجوارح عن كل مأثم، ديانة وتكرماً، وقد كانت الجاهلية على كفرها تأنف عن كل مأثم، وتكره الأمور القبيحة، فكيف بأهل الإسلام الذي عظمه الله عز وجل وطهره، وطهر أهله؟!

ألم تسمع إلى قول عنترة بن شداد العبسي حيث يقول وهو مشرك جاهلي:

قال عنترة:

وأغض طـرفي مـا بـدت لي جـارتي   حتـى يـواري جـارتي مأواهـا[2]

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝ ﴾. والمرح هو الخيلاء والكبر والتيه، في لغة العرب.

وقد ذكر الله عز وجل ذلك في خلقه، وأمرهم أن لا يفعلوه لأنهم عبيد أذلة، لجبار متكبر قدوس متعظم، حي لا يموت، ولا يزول ملكه، فأما من يموت ويأكل الطعام فهو عاجز بَيِّن العجز، فكيف يتكبر مَن هذه صفته، وهو الذليل الضعيف المقهور؟!

والسيئة المكروهة لا تخفى على أحد.

وقوله عز وجل: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ﴾. يريد بهذا القول: المشركين الذين زعموا أن الملائكة إناث، افتراء منهم على الله عز وجل وعتيا.

---

(١) لم أقف عليهما.

(٢) انظر ديوان عنترة.

وقد ذكر بعض أهل العلم أنه قال ذلك من العرب قوم يقال لهم: خزاعة، وهم كانوا حول مكة، فذكروا عنهم أنهم قالوا الملائكة بنات الله عز وجل، وتنزه عما قالوا، وتقدس وعلا علواً كبيراً.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾. يقول: ولقد بينا لهم من كل شيء فيه منفعة وهدى، ولهم فيه نجاة ورحمة، فأعلمناهم بما كان قبلهم، وما هو كائن بعدهم، فأبوا إلا نفوراً.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾. يقول لو كان لله عز وجل شركاء كما قلتم، أو نظراء كما كذبتم، أو مشآقون كما زعمتم، لطلبوا سبيلاً إلى إزالته، واحتالوا بكيدهم في إزاحته، قدوس قدوس، رب الملائكة والروح، الذي لا شريك له، ولا مضاد ولا مضار، ولا مساوي ولا مضاهي، ولا مؤازر ولا مظاهر ولا مظافر، ولا مساهم ولا مقاسم ولا مخاصم، ولا ند ولا مقاوم، ولا منافر ولا مكابر، ولا مزاحم، عز فبذَّ عزُّه كلَّ عز، وقهر سلطانه كل قاهر، ودام فأفنى دوامُه كلَّ دائم، سبحانه وتعالى لا إله غيره، ولا معبود سواه، ولا خالق ولا رازق إلا إياه. وهو رب العرش العظيم، يسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾. يقول: ﴿ إِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾، أي: هو مطيع له خاضع لعظمته، فيه آية الفطرة، ودلالة البراية، فهو شاهد لخالقه، مسبح ببينته لبيانه، ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾، يقول: لا تنزلونه منازله، ولا تعرفون كيفيته، والحليم فهو الذي لا يعجز، والغفور فهو العافي عن الذنوب ممن أناب.

وفيه وجه آخر، وهو أحب إلي في معنى قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

بِحَمْدِهِۦ﴾. يعني بذلك سبحانه: أنه إذا رأى خلقُه بدائعَ صنعه، وعجائبَ تدبيره، سبحوا لما رأوا من خلقه، فلما سبح المسبحون لما عاينوا من عظيم قدرته، جاز أن يقول: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾، لما كان من تسبيح المسبِّح لما رأى من خلقه، نسب تسبيح المسبح إلى الخلق، لما رأى المسبح من قدرة الله عز وجل فيه.

ومثل ذلك ما يشهد لنا من كتاب الله عز وجل حيث يقول في قصة هارون: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦]. وإنما المعنى فيه الصحيح عند أهل العلم، وجميع أهل التفسير: أن العصبة أولي القوة هم الذين ينوءون بمفاتحه، كان العصبة تحمل المفاتيح، والمفاتيح لا تحمل العصبة ولا غيرها، فهذا أبين شاهد وأحسن دليل.

ومن ذلك قول الله عز وجل أيضا: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝﴾ [التكوير:٨-٩]. وإنما المعنى فيه عند أهل العلم: وإذا المؤودة سئلت عنها مَن قتلها، بأي ذنب قتلها؟! لأنها هي لا تُسأل وهي المقتولة، إذ كان ليس عليها في العدل سؤال، لأن الله عز وجل يقول: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝﴾ [الحجر:٩٢-٩٣]. والمسؤول إنما هو القاتل لا المقتول.

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝﴾ [التكوير:٨]. يقول: سُئل قاتلها، وهذا فغير منكَر في لغات العرب، ولا مجهول في كلامها وخطابها، وقلبها لمعاني الأشياء، من ذلك أنها تقول لِلَّديغ: السليم، وتقول للشمس: جونة، لشدة بياضها، والجون عندها: الأسمر، فقلبت الاسم.

وتقول للظبا: الأدم، تعني به: الظبا البيض.

قال الشاعر:

حتــى لحقنــاهم تعــدو فوارســنا كأننــا رُعْــنَ قــفٍ يرفــع الآلا[1]

والآل هو الذي يرفع القف. والآل ما رفع الأشياء في البرية وبينها حتى يراها الناظر من الأمد البعيد، وليس للآل شيء يرفعه غيره.

وقوله عز وجل يعني: النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾. يريد بذلك: الذين لا يصدقونك بما تذكر من البعث، والحساب، والجنة والنار، يقول: لا يَصِلُون إليك بسوء ولا بمكيدة ولا مكروه، مع حجابنا المحصَّن من الأسواء، والحافظ من الأعداء.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾.

واعلم - أرشدك الله - أن الجعل في كتاب الله عز وجل، يخرج على وجهين ليس لهما ثالث:

فأحدهما: جعل حتم. فهو الخلق وذلك قول عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢] [2]. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسراء:١٢]. ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾[نوح:١٦]. وما أشبه ذلك في القرءان فهو جعل خلق وحتم.

وأما الجعل الآخر: فهو جعل حُكم وتسمية. مثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الإسراء:٤٦]. ومثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة:٢٤]. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص:٤١]. فهذا وما كان مثله في القرءان جعل حكم وتسمية، لا جعل خلق.

والوقر فهو: الصمم المعروف، ذلك في لغة العرب غير منكر.

---

(١) البيت للنابغة الجعدي. ورد هكذا: حتى لحقناهم تعدي...

وقال في موضع آخر: ﴿ كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [لقمان:٧]. يعني بذلك: كأن في أذنيه صمماً.

قال الشاعر:

وقفنا بدار الحي نسأل عنهم فردت علينا أن في سمعها وقراً[1]

والأكنة: ما يستر الشيء، وحال دونه، وهو مثل قوله: ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ ﴾ [البقرة:٧]. وذلك كله حكم وتسمية، لا أن الله غطى على قلب أحد، ولا غشا على بصره، ولا حال بينه وبين هداه.

﴿ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴾. يعني: أنهم ينفرون من توحيد الله عز وجل، ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ ﴾. يعني: يتناجون به من تكذيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والاستهزاء به، والمناجاة في لغة العرب فهي: المساواة والمخافتة بالشيء من الكلام.

قال الشاعر:

يناجون حتى لا يبين كلامهم سراراً لئلا يعلم الناس ذلك[2]

﴿ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾. يقول هذا بعضهم لبعض، والمسحور عند العرب يخرج في لغتهم على وجهين:

أحدهما: أنهم فيما يقولون هم: إن الرجل يُرقى له الرُّقى، ويعقد له العقد، حتى يزول عقله، ويختلط عليه أمره.

والوجه الآخر: من السحر عندهم فهو السحر بالكلام، الذي يتعمل فيه الناس

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

من الكذب والحيل والمكائد، والمكر حتى يزيغوا عقل الإنسان، ويصدوه عن طريقه، ويتعملون عليه في قطع قريبه، ومفارقة خليله، وطلاق زوجته، والرجوع عن رأيه، الصد عن هواه، وهذا فقد يكون كثيرا في الناس اليوم وقبل اليوم، وهو السحر عند العرب.

يقول الرجل لصاحبه إذا أخذ عنه: سحرني فلان.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «إن من البيان لسحراً ..» في حديث طويل، وقد كانوا أيضا يقولون في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إنه مجنون، وإنه كاهن، وإنه محتال، وكان الله عز وجل المتولي لتصديقه، والمطهر لبراهينه، والدال على معجزاته، والمكذب لهم ببيان الحجة، عند وضوح الطريقة، حتى قامت الحجة، وغلب الحق، وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

ثم قال عز وجل: ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد، ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾. يقول: إنهم لا يريدون الهدى، ولا الرجوع إلى الحق.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾. والرفات في لغة العرب فهو: ما تكسر من الأشياء، وصار حطاماً متهشماً، سَمَّتْهُ العرب: رفاتاً، إذا كانت لا تطمع له بجبر، ولأجزائه باتصال، لشدة تحطمه وتكسره، ولأنها قد أيست من كل رفات أن يعود سوياً.

قال الشاعر:

تركناهم غداة الخيل تردى هشيماً بالأسنة أو رفاتاً[1]

فعظم عند المشركين أن يكون الله جل ثناؤه يعيد الخلق بعد أن صاروا رفاتاً

---

(١) لم أقف عليه.

خلقاً جديداً، منشوراً من القبور، فقال عز وجل: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾. فإن الله عز وجل قادر على ما أراد، لا يعجزه شيء، ولا يكبر عليه شيء، ولا يغلبه شيء، ولا يمتنع عليه شيء، وهو على كل شيء قدير.

قال الله عز وجل: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾. لك يا محمد ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾؟ أي: مَن الذي ينشئ خلقنا بعد الموت؟ قال الله جل ثناؤه: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. يعني: الذي خلقكم أول مرة، والفاطر هو الخالق. قال الله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١][1].

ثم قال عز وجل: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝﴾. وعسى من الله واجبة، والإنغاض في لغة العرب فهو: تحريك الرؤوس على طريقة المستهزئ، الذي يؤيس من الشيء، ويباعد كونه، ويكذب به.

قال الشاعر:

أنغضك رأسك مؤيسا من نصرنا فأتاك مثل الأسد للميعاد[2]

قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾. مثل قوله: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝﴾ [المؤمنون:١١٣]. لأنهم لا يعلمون كم لبثوا تحت أطباق الثرى.

وقوله عز وجل لنبيه عليه السلام: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾. يعني بذلك: أولياءه ﴿يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾. وهي قول: لا إله إلا الله.

---

(١) في المخطوط: ﴿الحمد لله الذي فطر السموات والأرض﴾. ولا يوجد في القرآن بهذا اللفظ.

(٢) لم أقف عليه.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ۝﴾. يعني: أن الشيطان يوسوس بينهم، ويغري بعضهم ببعض في تكذيب الرسل عليهم السلام، والجحود لله جل ثناؤه، وجميع المعاصي التي كرهها الله عز وجل، ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ۝﴾. فالله عز وجل هو العالم كما قال: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾[الشورى:١٢]، لا تخفى عليه خافية، لا ظاهرة ولا باطنة، ولا سراً ولا علانية، ولا في ضمير ولا في فكرة، ولا في همامة ولا في رؤية.

ومعنى قوله: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾. فهو: إن يُرد يرحمكم ويتفضل عليكم، فهو الولي لذلك والقادر عليه، لا مانع لذلك، ولا حائل دونه، ولا صاد له عنه، لأنه رب الأرباب، وسيد العباد، والمنفذ لما يشاء في جميع الأسباب.

ومعنى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ۝﴾. والوكيل في لغة العرب أيضا فهو الذي يُوَكَّل لأخذ الشيء وقبضه، وتوكله العرب أيضا على حقوقها وأموالها في الحق يقبضه، فأعلمنا الله عز وجل أنه لم يجعل محمداً عليه السلام وكيلا في عقوبة عباده التي جعلها في الآخرة، وأنه إنما أرسل محمداً عليه السلام بشيراً ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، ومعذرا منذرا، وقائما بأحكام الدنيا بالحق فيما بين العباد لا غير ذلك.

فبين الله لنا سبحانه أنه لم يجعل محمداً ولا أحداً من الأنبياء عليهم السلام وكيلا في عفوه ولا عقابه، وأنه المتولي لما أراد من أمره، سبحانه لا إله إلا هو ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝﴾[الشورى:١١].

وذلك قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ۝﴾[الرعد:٤٠]. وقوله عز وجل لنبيه عليه السلام: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾. يريد: أنه خلقهم وأنه لا يخفى عليه شيء من أمروهم.

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾. فالله عز وجل قد فضل بعض رسله على بعض، منهم من جعله من أصحاب الشرائع والكتب، ومنهم من كلمه، ومنهم من اتخذه خليلا، وغير ذلك من التفضيل.

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾. وكلُ زعم في كتاب الله عز وجل فهو كذب من قائله، مثل قوله: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن:٧]، ومثل قوله: ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الكهف:٤٨].

﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الإسراء:٥٦]. يعني بذلك: إن الذين تدعونهم من دونه لا يقدرون أن يكشفوا عنهم الضر من السقم، ولا الضر من الفقر، ولا الضر من غير ذلك، ولا يحولونهم إلى الغنى والصحة، لعجزهم عن ذلك، وأنهم لا يقدرون لهم ولا لأنفسهم على نفع ولا ضر.

ثم ذكر عز وجل أولياءه، وأهل طاعته، فقال: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾. يقول عز وجل: يتضرعون إلى الله جل ثناؤه في طلب الجنة والدرجة العليا، ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾. أي: يتقربون إليه بالأفضل الزكي من الأعمال، ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾. قال: يخافون أن يعذبهم الله جل ثناؤه على لفظهم، وعلى الردي من فعلهم، وعلى الغضب والمنع.

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا ﴾. يعني: أنه يهلك أهل القرى الظالمين منهم بالنقم، والمؤمنين بالموت، لأنه ليس من أهل قرية إلا وهم فانون ذاهبون، وإلى الله جل ثناؤه صائرون، ولم يعن عز وجل بهلاك القرى الجُدُرَ ولا الخشب، وإنما عنى الناس خاصة، لأن القرى لا عذاب عليها، وإنما القرى في لغة العرب أهل القرى، قال الله عز وجل: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ [يوسف:٨٢]. يريد: أهل القرية وأهل العير، إذ كانت القرية والعير لا يتكلمان، فقال:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾. فالإهلاك هو الموت، والعذاب فهو ما نزل بالأولين من النقم والجوع، وما هو نازل بالآخرين، مثل ما أصاب أهل مكة من الجوع في أيام النبي عليه السلام، ومثل قوله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾ [الدخان:١٠ - ١١]، فهو الذي أصابهم من شدة الجوع، كانوا يرون الدخان بينهم وبين السماء.

ثم قال: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝﴾ [الدخان:١٦]. يعني: يوم بدر، وما حل بهم فيه من القتل والأسر.

وقوله عز وجل: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝﴾. يقول: مكتوبا في اللوح المحفوظ، وهو علم الله تبارك وتعالى الذي لا يحتاج إلى شيء.

ومعنى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾. يعني بذلك: الآيات التي كانت مع موسى عليه السلام، وهي تسع آيات منها:

العصا، والحجر، واليد، وفَرْقُ البحر، وتلك العجائب التي لا تخفى على أحد، ﴿إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾، مثل فرعون وقومه، واسمه الوليد بن مرة بن مصعب بن عيان بن أهيب بن الوليد بن الريان العلقمي فيما يقال.

﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾. أي: آية من آيات الله عز وجل، فكانت لهم عونا على دهرهم، ورحمة من فاقتهم، ومنفعة لعيالاتهم، يشربون منها لبنا خالصا، بلا تعب ولا نصب ولا غم، في خفض ودَعَة وعظيم نعمة، ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾. أي: كذبوا نبي الله تبارك وتعالى، فهو صالح صلى الله عليه، وعقروا الناقة المباركة الكافية وعصوا ربهم، فحل بهم البلاء والدمار، وقوله: ﴿مُبْصِرَةً﴾ يعني: أنها إحدى البصائر الدالة.

﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾. يعني: ليزدجر الخلق ويكفوا عن معاصي الذي خلقهم، وليخافوا عذابه ولم يزدادوا إلا طغيانا كبيرا.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ﴾. يعني: أهل مكة، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾. فالفتنة تخرج في كتاب الله عز وجل على وجوه، منها: محنة، وغير ذلك، قد مضى من قِبَلِي إليكم كتاب فيه تفسير المحنة على عشرة وجوه، وفي ذلك كفاية لك إنشاء الله.

وقد اختلف الناس في الرؤيا، وقالوا فيها بأقاويل، غير أن إجماعنا وإجماعهم، في الرواية على أنه عليه السلام رأى رَجْلاً من قريش ترقى منبره، يتداولونه بالظلم، كما يتداول الصبيان الكرة.

وهذا الخبر فقد رواه الجميع، وله تفسير يطول به الكتاب، ونحن نفسره في وقت فراغه إن شاء الله.

والشجرة الملعونة في القرءان فهم بنو أمية.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾: أمرٌ من الله سبحانه للملائكة بالسجود، فسجدوا لآدم طاعة لله جل ثناؤه، وإنفاذا لأمره بالسجود لله عز وجل، فهو تعظيم لآدم عليهم السلام جميعاً.

وقوله: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾. وهي السفن سخرها الله عز وجل، وجعل لها سائقاً بالرياح، فسخرها وأجراها بقدرته، وهو السميع العليم، والتسخير في اللغة فهو: التذليل.

وقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾. فقد قال قوم: إنه عنى بهذا: المشركين من أهل مكة خاصة، وهو عندي يدخل في جميع مَن ركب البحر، ودعا الله عز وجل إذا خاف، فإذا نجا وسلم أعرض عن أمر الله عز وجل، وصد عن طاعته.

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ ﴾. يعني: الأمان والسلامة، وطلب النفس من الغرق.

والخسف فهو انخساف الأرض وانخراقها إلى أسفل.

﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾. والحاصب الرياح الشديدة العاصفة، التي تغرق السفن في البحر وتقلبها، ويكون فيها التراب.

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾. يعني: مرة أُخرى، والعرب تعرف التارة في لغتها، وهي مشهورة عندها، أنها مرة أُخرى.

تقول العرب: كرة أُخرى، وطرفة أُخرى، ووقوعة أُخرى، وتارة أُخرى، وفينة أُخرى، كل ذلك في معنى واحد.

قال الشاعر:

فتارة نحن في خفض وفي دعة وتارة تحت أطراف القنا الذبل[1]

﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ ﴾. يعني به: الريح الشديدة التي تقصف الشجر، وما أشبهه.

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾. يقول: نصيرا.

والعرب تسمي طالب الثأر: تبيعاً، لأنه يتبع بطلب الدم، وينصر من ظُلِم من قومه، ويتبع بثأره.

قال الشاعر:

ونحن المدركون لكل وتر إذا طل القتيل عن التبيع[2]

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

يقول: نحن ندرك بدمائنا، إذا لم يدرك التبيع بثأره، وطل دمه.

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾. يعني: في البحر، على ما لطف لهم به من الفلك الجاري بقدرته، في الأمواج التي كأنها الجبال في البر، على ما سخر لهم من أنعامه المطيعة لهم بقدرته، من الإبل والخيل والبغال والحمير.

﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾. يعني: ما تفضل به عز وجل من نفيس الثمار، وجميع الحبوب، ولحوم الأنعام، وصيد البر والبحر، والعسل، واللبن، والماء، والنعم التي لا تحصى، وذلك قوله عز وجل: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨].

﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾. صدق الله جل ثناؤه، لقد فضل بني آدم على سائر الحيوان، وأعظَمَ عليهم المنة، وأجزل لهم العطية، فله الحمد على نعمه كثيراً، كما هو أهله ومستحقه.

﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾. يريد بهذا: جميع الخلق، فليس من أحد إلا وله إمام، إما إمام هدى، وإما إمام ضلالة.

﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾. فقد نجا وأفلح، و ﴿ مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾ [الحاقة:٢٥]. فقد هوى، وصار في سجن لظي، حيث لا راحة ترجا ولا أسير يفدى.

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾. والفتيل في لغة العرب والمعروف عندها في كلامها وخطابها، والنقير والقطمير، فكل ذلك في النواة موجود، والنواة فهي العجمة التي تكون في جوف التمر، فالشق الطويل الذي يكون في بطن النواة، اسمه عند العرب: الفتيل. والنقير فهو ذلك النقير الذي يكون في وسط ظهر النواة، مثل الخردلة، ومنه يكون انتشار نباتها إذ نبتت. وأما القطمير

فهو الذي يكون على النواة غلافاً لها، وهو قشرة بيضاء رقيقة شديدة الرقة، فذلك القطمير، وكل ذلك تعرفه العرب، وتخاطب به وتذكره في لغاتها وأشعارها.

قال الشاعر يذكر الفتيل:

لسنا نسيغكم فتيلاً بعد ما ... جرت الحكومة بيننا في المقسم[(١)]

قال آخر يذكر النقير:

ما تركنا على الكلاب لقيس ... يوم رمنا القضاء حقاً نقيراً[(٢)]

قال آخر يذكر القطمير:

لسنا نخلف قطميراً لظالمنا ... ولا تطل دمانا عند أعدانا[(٣)]

فذكر الله عز وجل ذلك كله فقال: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾. وقال عز وجل: و ﴿ إِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ [النساء:٥٣]. وقال: ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر:١٣]. أي: أنه لا يضيع عنده شيء، وإن صغر ذلك الشيء، فكان قياسَ الفتيل والنقير والقطمير.

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾. يعني: أن من كان أعمى عن الحق في الدنيا، فهو في الآخرة أعمى، أي: حاله في النار حابط العمل، بائر السعي.

وقوله لنبيه عليه السلام: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾. فقد قالوا: إنهم وفد ثقيف،

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

وقالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان حاصر ثقيفاً بعد فتح مكة، وهو ذا قُرّ في ذي القعدة بضعاً وعشرين يوماً، ثم انصرف عنهم، وقال عليه السلام: «نهيت عن قتال ثقيف»، وقد كانوا قتلوا من أصحابه أربعة عشرا رجلاً منهم ابن أبي بكر بن أبي قحافة، وعبد الله بن أمية، زاد الركب وهو ابن عمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأمه عاتكة ابنة عبد المطلب، وهو أخو [أم] سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وعبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي بن عطية، وسعد بن سعيد بن العاص بن أمية، فلما انصرف وسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتاه وفد ثقيف بنو عمير بن عبد ياليل، وقد كانوا أفدوا إليه من كل بطن جلاً لشدة شوكتهم وجرأتهم على الله عز وجل، وكان فيهم عثمان بن أبي العاص، فأتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمجيئهم، فسألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أن يمتعهم باللات سنة، وسألوه أشياء كثيرة، منها:

أن لا تحنى نساؤهم في الصلاة، وأن يُحَرِّم واديهم كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها. فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ما يصلح ويجوز من مسائلهم، إلا التمتع باللات، وتحريم الوادي. فجعلوا يردون عليه ويقولون فسنة واحدة، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم، فأمسك عنهم في الثانية، ولم يَردُدِ عليهم جواباً، فداخلهم الطمع فيما طلبوا، فأنزل الله: ﴿ لَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾. وقوله عز وجل: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾. يعني بذلك: كيدهم له، وما أرادوا به من الغوائل، فحماه الله عز وجل عن ذلك كله، وأيده بنصره، وحفظه من كيد الظالمين.

وقد جاء في الرواية: أن قريظة والنظير وبني قينقاع، اجتمعوا إلى النبي عليه السلام، حيث هاجر، فقالوا له: يا أبا القاسم إن الأنبياء بعثوا بالشام، وهي بلاد

مقدسة، وأنت قد عرفت مهاجر إبراهيم كان إليها، وكان بها إسحاق ويعقوب، والأسباط، وعمران يعنون: أبا مريم ابنة عمران، وزكريا، وموسى، وهارون، وعيسى، ويحيى، وجميع الأنبياء، إلا قليلاً منهم، فلو أنك خرجت إلى الشام صدقناك، وآمنا بك واتبعناك.

قال فوقع في قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك لما يحب من إسلام الناس.

قال: فأنزل الله عز وجل عليه: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. يقول: حتى يحل بهم الهلاك.

وقوله عز وجل: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾. يقول: إن هذه سنته فيمن كذب رسله، وعصى أمره، فافترى عليه الباطل.

وقوله عز وجل: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾. يقول: لزوال الشمس وهو الدلوك، وفيه تجب صلاة الظهر والعصر، وغسق الليل فهو: غشيانه وظلمته.

﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾. يعني به: صلاة الفجر.

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾. يقول: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار.

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾. يعني: القرءان، والتهجد فهو الصلاة، أي فَصَلِّ به.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾. يقول: فضيلة لك.

وقد قال غيرنا: إن ذلك فريضة، وليس ذلك عندنا إلا نافلة، فضله بها، ودله على الرشد فيها.

﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾. وعسى من أن الله عز وجل واجبة، وهو المقام الذي يغبطه الأولون والآخرون، فزاده الله شرفاً، وعَرَّف بيننا وبينه في ذلك المقام المحمود العظيم، حيث يشاء عليه السلام، فيُعطى ويشفع فيُشفَّع.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾. يعني: النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وقد جاء في الرواية: أنه عنى بالمدخل الصدق: مكة، يدخلها بالعز والفتح، والقوة والقدرة، والسلطان، والحجة البالغة على جميع من عانده عليه السلام.

﴿ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾. من مكة إلى المدينة، يقول: لا ألقى إلا مؤمناً ومحباً، ولا ألقى مشركاً ولا كافراً.

﴿ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾. يعني: حجة ظاهرة، وتنصرني بها على جميع من خالف أمري.

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ﴾. قال: أَمَرَهُ إذا وقف على الأصنام بمكة تُعبد من دون الله، أن يقول: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾. قالوا: إن ذلك كما يزهق السهم عن نفس الغرض.

فذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فعل ذلك بالأصنام، فخرت ساقطة على وجوهها.

وذكروا أن رجلاً من أصحابه كان بعد حين واجه الأصنام، فقال الرجل للأصنام: يا معشر الأصنام، هذا أحمد إن كان حقا للإله فاسجدوا. قال: فخرت الأصنام على وجوهها ساقطة، وأمر بها رسول الله عليه السلام فكسرت.

وذكر أنه كان حول الكعبة ستون وثلاثمائة صنم يوم فتح مكة، فأزاحها عليه السلام كلها، فذلك قوله: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ﴾. فكان الله هو الحق خالق

كل شيء وباريه، يُعبد وحده، ويُكفر بما سواه من الأصنام وغيرها، فأذهب الله عز وجل بمحمد عليه السلام الأصنام، وجميع ما عُبد من دون الله، وعُبِدَ الله وحده، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١].

وقوله عز وجل: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾، هذه خاصة للمؤمنين، دون غيرهم من أعدائه عز وجل، شفاء لكل عمى، وبرؤ لكل داء، وهدى من كل ضلال، ونور من كل ظلمة، ونجاة من هلكة.

﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾. يقول: لا يزيدهم إلا بلاءً في الدنيا والآخرة، كما أعرضوا عنه وهم قادرون على اتباعه والعمل به.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾. فالمعرض في لغة العرب هو الصآد، والنائي: المتباعد بجانبه، وكل من تباعد فقد نأ.

قال الشاعر:

نــأت دارهــا عنــا فيــا رُب ليلــة لهونــا بســلمى والمــزار قريــب[1]

وجاء في الرواية أنه عنى بهذا النائي بجانبه: الوليد بن المغيرة.

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾. يقول: إذا مسه مرض أو فقر يئس من رحمة الله، ولعمري إن الكفار ليَئِسُون من رحمة الله عز وجل.

﴿ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾. يقول: كلٌ يعمل على طريقته وما يشتهيه، ومثل قوله: ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [ص:٥٨]. فقال: من مثله، والشاكلة: المثل والشبه.

وقد قالوا: إنه ناحية، والقول الأول أحب إلينا، وهو الصواب عندنا.

(١) لم أقف عليه.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾. يقول: إنه أعلم بمن هو أهدى دينا.

وقوله عز وجل لنبيه عليه السلام: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾. والروح عندنا على معنيين:

أحدهما: جبريل عليه السلام، وقد قال غيرنا: إنه مَلَكٌ أعظم من جبريل، ونحن نقول: إنه جبريل صلى الله عليه، لقول الله عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]. والذي كان ينزل عليه الوحي، فهو جبريل عليه السلام لا غير، ولذلك قلنا: إنه جبريل دون غيره.

والروح الآخر: فهو الذي به تقوى الأبدان، وهو قوله سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾. فستر الله عز وجل الروح عن خلقه فلا يعلمه أحد، لقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾. ولم يفسره.

وقوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾. يقول عز وجل: لو شئنا لأنسيناك ما أوحينا إليك ولأذهبناه منك، حتى لا تجد منه قليلاً ولا كثيرا، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾، والوكيل فهو المطالب، يقول: لا تجد بذلك علينا تابعاً ولا راد سوانا، يريد: ليس لك حافظ يحفظك غيري.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾. يقول إن رحمته سبقت لمحمد عليه السلام، وأنه جعله سيد ولد آدم.

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾. يقول: إن اجتمع من خلق الله من خلقه لو اجتمعوا على أن يأتوا بقرآن مثل هذا القرءان، لا

يقدرون على ذلك أبدا، ولو أعان بعضهم بعضا، وتظاهروا على ذلك وتوازروا.

والظهير في لغة العرب فهو: المعين، والممد، والنصير، والمكاتف.

تقول العرب: ظاهَرَنا آل فلان على نبي فلان، أي: أعانوهم ونصروهم وأمدوهم وكاتفوهم، كل ذلك معنى واحد.

قال الشاعر:

تُظاهرنا بنو أسدٍ لأنا وهم من خندف لب اللباب[1]

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾. يعني: ما ضرب لهم من الأمثال النيرة، والدلائل الشافية، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً، يقول: إلا جحوداً.

وقوله عز وجل: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾. أي: لن نصدقك يا محمد، ﴿ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾. يريد: أنهاراً في جبال مكة وأوديتها.

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾. يقول: خلالها أي: بينها.

﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾. يريد: العذاب.

والكسف في لغة العرب فهو: القطع.

﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾، يقول: من ذهب، ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾. قالوا: يكون الكتاب من الله إلى فلان بن فلان.

---

(١) لم أقف عليه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ﴾. يا محمد ﴿سُبْحَانَ رَبِّى﴾. أي: عَظُم وتنـزه، ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝﴾.

وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾. يعني: أهل مكة، ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾. وهو محمد عليه السلام، جاء بالبينات والحق من عند الله عز وجل.

﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝﴾. ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝﴾. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝﴾. يقول: كفى بشهادة ربك الذي أرسلك بالصدق والرشاد، على من خالف أمرك وكذبك شهيداً!!

يقول: كفى به شاهداً عدلاً!!

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ﴾. يقول: فهو السعيد ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾، يريد: من سماه وحكم عليه بالضلالة بفعله، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝﴾. فالأعمى الذي لا يبصر، والأصم الذي لا يسمع، والبكم الذي لا يتكلم، فكذلك أهل النار لا يسمعون ولا يبصرون ولا يفقهون شيئا من الراحة ولا الفرح، ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝﴾ أي: كلما صاروا فحما أعيدوا خلقاً جديداً.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾. يقول: كفروا بمحمد عليه السلام، وما جاء به من الأحكام، والفرائض الراشدة، والحلال والحرام.

وقوله عز وجل: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾. يريد: عبيداً آخرين، يعبدونه ويوحدونه، ولا يعصونه ولا يعدلون به شيئا.

﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾. يريد: لا شك فيه، يعني: أجل الموت، وأجل القيامة.

﴿ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾. بالظالمين هاهنا المشركين، أي: أنهم أبوا إلا جحوداً.

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾. يعني: خزائن الرزق، الذي لا يملكه أحد، ولا يقدر عليه ملك من الملوك، ولا يطيقه منفق من المنفقين، غير الله ذي القوة تبارك وتعالى.

﴿ قَتُورًا ﴾ يعني: بخيلاً.

وذلك معروف في العرب، تقول القاتر، والمقتر، والقتور، ذلك كله تعرفه العرب، تقول: فلان قتور، أي: ممسك شديد، أي: بخيل، ومقتر مقل.

قال الشاعر:

وقد علمت هند بأني ماجد ... وإن حل أضيافي فلست بمقتر[1]

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾. يريد بذلك: المعجزات التي جاء بها موسى عليه السلام، مما قد قدمنا ذكره في أول كتابنا هذا.

مثل العصا، والبحر، والحجر، واليد، والضفادع، والجراد، والقمل، والدم، ونتق الجبل الذي نتقه على بني إسرائيل.

(١) لم أقف عليه.

﴿فَسْـَٔلْ﴾. يا محمد، ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. يعني: بني قريظة والنظير، وبنو قريظة والنظير كانوا قريبا منه، مثل عبد الله بن سلام، ومن كان معه من قومه: ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾. موسى ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾. مثل ما قالوا لمحمد عليه السلام، إنه مسحور وساحر، وقد مضى تفسيرها.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾. يعني بالبصائر: الآيات التي ذكرها عز وجل في قصة موسى عليه السلام، من التوراة والأحكام والبصائر الواضحة.

وقوله: ﴿مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾. عنى بالثبور: أنه ملعون مخذول.

وقد قال غيرنا غير ذلك، من الكلام الذي لا يحسن ذكره ولا إعادته، لنزاهة موسى عليه السلام عن مثل ذلك القول، الذي قاله من لا فهم له ولا معرفة.

والمثبور في بعض اللغة: المشكور أيضاً.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾. يعني: فرعون أراد أن يخرجهم من أرض مصر، أو يقتلهم.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾. يعني: بيت المقدس وما حوله.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾. يقول: من كل موضع.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾. يقول: أنزلناه حقا من عندنا، وبالصدق والحق الذي أراده الله من خلقه من طاعته، يقول: بالحق أنزلناه، أي: بحق أنزلناه من عندنا، وبالحق الذي أردناه نزل، من الفرائض والأحكام، التي جاء بها محمد عليه السلام، كما قال سبحانه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤٢].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾. يعني: مبشراً لأوليائي وأهل طاعتي، ونذيراً لأعدائي وأهل معصيتي.

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾. يقول: قرأناه شيئا بعد شيء، يريد بالناس أي: جميع الخلق كلهم.

وقوله: ﴿ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾. يعني به: مدة تكون من بعد لأمتك يتعاطفون به ويتواصفون لحكمه وشرفه، ويحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويتدبرون عجائبه المحكمة، ودلائله المتقنة، ويقفون عند متشابهه، إذا لم يَعلمه منهم من يعلمه، ويؤمنون بكله، وينتهون عما نهاهم عنه، ويقولون كله من حكمة ربنا وتنزيله.

﴿ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴾. يقول: شيئا بعد شيء، يقول: نجوما بعد نجوم، مثل قوله: ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الواقعة:٧٥]. يقول: بنزول القرءان، مثل قول جبريل عليه السلام: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم:٥٢].

﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾. يعني بذلك: قوم محمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أنهم إن لم يؤمنوا به وجهلوا، فقد عرفه وآمن به من أهل الكتاب من قد سمى، ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وصدَّق بما نزل من عند الله جل ثناؤه، ممن عنده علم الكتاب، لما رأوا من الحق، ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾، حتى تقع جباههم وأذقانهم على الأرض خشعاً لله، خائفين باكين من عذابه، راجين رحمته، متذللين له سبحانه، خاضعين له.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ﴾. يا معشر المؤمنين، ﴿أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾. فقد ذكر في بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال وهو ساجد: ((يا الله يا

رحمن». فسمعه أبو جهل اللعين، وكان لا يعرف الرحمن، فقال: محمد ينهانا أن لا نعبد إلهين، وهو يدعوا إلهاً آخر مع الله يقال له: الرحمن. فأنزل الله عز وجل ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾. يريد: أن أسماءه كثيرة وهو الواحد وحده، الفرد لا نظير له، ولا عديل ولا مثيل ولا شريك، عز وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾. يقول: في نفسك، ﴿ وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾. والسبيل فهو: الوسط من الأمر الذي لا يعلي صوته ولا يُسِرُّه، يكون بين ذلك وسطاً حسنا، لا رفعاً شديداً ولا خفضا غامضاً.

مثل قوله في سورة الأعراف: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، فأمره عز وجل في سورة الأعراف بالذكر الخفي، وأمره في سورة بني إسرائيل بأن يتوسط بالصلاة بين الأمرين، كما وصفنا.

وقوله عز وجل: ﴿ بِٱلْغُدُوِّ ﴾. فهو: أول النهار.

والآصال فهو: المساء عند الغروب.

﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٥]. والغافلون فهم: التاركون لأمر الله عز وجل، لأن الغفلة هي الترك.

والترك على وجهين:

عمد، ونسيان.

فالنسيان: مغفور، وصاحبه مُضِيِّع.

والعمد فصاحبه يعذب عليه.

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾. قوله: ﴿ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾، فهو: تنزيه لنفسه سبحانه وتعالى.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾. يقول: لم يكن له شريك في ملكه.

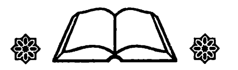
﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾. فينصره من ذل حَلَّ به، ولا من عدو ثار عليه، جل عن ذلك وتقدس.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾. يقول: عَظِّمه تعظيما، لأنه العظيم الذي لا عظيم بعده.

والكبير: الذي لا شيء أكبر منه.

والعزيز: الذي لا عزيز أعز منه.

فليس يقاس به أحد، ولا يناظره أحد، ولا يقوم له أحد، وهو الأول الذي لا يسبقه شيء، والآخر الذي لا غاية له، ولا منتهى يُوقف عليه، وهو مالك يوم الدين، ومصدق المرسلين، ومجازي المؤمنين، ومعاقب الظالمين، وهو ديان الدين، وولي المتقين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيين، وآله وسلم تسليما.



تفسير سورة النور
للحسن بن أحمد بن يحيى الهادي

تفسير سورة النور
للحسن بن أحمد بن يحيى الهادي

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عز وجل: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا﴾. قال المنتخب[١] عليه السلام: معنى ﴿سُورَةٌ﴾ هو: ما انضمت عليه وجمعت معانيه، واتسق تأليفه، وتتابعت حروفه.

﴿وَفَرَضْنَـٰهَا﴾ هو: الفرض الذي فيها من الأحكام، والحلال والحرام، والسنن والحدود، وما أوجب من أكيد الفرض...

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾. والآيات من القرآن، ما يقف عليه القارئ في فصول الخطاب.

و ﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾. فيقول: واضحات منيرات، لطالب الحق والدلالات.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. يقول: لتذكروا ما يجب عليكم من الأمر، وتخافوا الغفلة عن الذكر، و ﴿لَعَلَّ﴾ كلمة للعرب تقيمها في بعض كلامها مقام الشك، وفي بعضه مقام الإيجاب.

قال الشاعر:

أريني جواداً مات هزلاً لعلني   أرى ما تُريني أو بخيلاً مخلداً[١]

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾. ﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾ فهي: للفجور بغير تزويج، ولا عقد نكاح، على ما وقعت به شرائط الحلال.

---

(١) البيت: للأسود بن يعفر النهشلي، شاعر جاهلي من سادات تميم من أهل العراق، كان مفضجا جوادا، ولما أسن كف بصره، ويقال له أعشى بن نهشل.

[١] يعني الحسن بن الإمام الناصر بالمنتخب كما ذكره أصحاب كتب الأنساب انظر التحف (ط٤/ص) ١ص

﴿ وَٱلزَّانِي ﴾ فهو: خِدنها، والفاعل كفعلها، وهذه الآية التي في جلد الزاني، محكمة غير منسوخة.

قوله: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾. يقول: لا تأخذكم بهما رحمة في أمر الله، وفيها حث على إقامته عليهما.

قوله: ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾. يقول: إن كنتم تصدقون.

﴿ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾. يريد: يوم البعث والحساب، وما أعد فيه من الثواب الدائم، والعقاب اللازم.

اسمع أيها الطاعن في آيات الله، والمضيف المنكرات إلى الله، كيف نهى وأمر وحذر وزجر، وأعذر وأنذر، ولم يأخذ أحداً بغير ما عمل واجترح، ولا بسوءِ ما قدم وكدح، إذ كان لا يسمى الزاني: زانيا حيث يوجد في الأرض، حتى يأتي من الفع، ما يغير به مرسوم الفرض، وكم من آية تشهد مبرهنة للدليل، وموضحة للتنزيل، على أن الله لم يظلم ولم يغشم، ولم يُعِن عاصيا فيما ارتكب، وإنه لا يحمل على فعل ثم يعذب عليه، ولا على أمر ثم يؤاخذ فيه، تنزه الله وتقدس وعلا عما ينسب إليه المبطلون.

قوله: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾. يقول: ليشهدوا إقامة العذاب عليهما، والعذاب هاهنا فهو الحد، والطائفة فهي: الجماعة الملمة بالموضع، المقيمة على المكان الواحد.

وقد قيل: إن أقل الطائفة في هذا الموضع ستة وأكثر، على قدر إمكان الجماعة.

قوله: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾. يقول: لا يطاوعه على الزنا إلا زانية أو مشركة، تفعل مثل فعله، وتستخف بالحكم مثل استخفافه، وكان أهل الشرك على غير ديانة ثابتة، ولا طريقة مستقيمة، ولا حفظ كتاب ولا سنة.

قوله: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾. يقول: لا يطاوعها على الزنا إلا زان أو مشرك، كمثل حالها في الفسق والكفر والشرك.

وقد يقال: إن هذا أنزل في قوم استأذنوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ينكحون نساء مشهورات بالفجور، من الإماء ومن اليهود.

وكان هؤلاء من أصحاب الفقر، فهم فقراء، فنهاهم الله فانتهوا، وإنما أرادوا ن يتبلّغوا بأموالهن، وظنوا أن ذلك يحل، فمنعهم الله عنه فامتنعوا.

قوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾. فمعنى ﴿حُرِّمَ﴾: حظر، ولم يُطلَق لهم فعله.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾، فإنما هو من الكلام الذي يخرج مخرج الخصوص في اللفظ، ويجري مجرى العموم في الحكم، ولو كان هذا لم يحرم إلا على المؤمنين، لكان قد أطلق للكافرين، ومحال أن يحرم الله على متعبدين أمرا في ساعة واحدة، ويحله في ساعة واحدة، ولكنه ما مدح به المؤمنين، وهو محرم على جميع من خصه الأمر والنهي من البالغين، بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾. و ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾: العفائف المؤمنات، والمحصنات أيضا: ذوات الأزواج.

قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ على قذفهم، ومعنى ﴿يَرْمُونَ﴾ هو: يقذفون. قال الشاعر:

رموني بحد ثم زكوا شهادتي وكيف يرد الدر في الضرع حالبه[1]

---

(١) لم أعثر عليه.

﴿ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾.
يقول: إذا تابوا وأصلحوا، وندموا على بهتانهم، وما كان من خطاياهم، كفَّر ذنوبهم وعطف عليهم برحمته، يقول: فاقبلوا شهادتهم، وقد زعم قوم أن الشهادة لا تقبل أبداً، وإذا زاحت الشهادة للجرحة البينة والكذب الواضح، وجب القبول للتوبة والصدق الصحيح.

وقد يروى أنه قيل: «توشكون أن تعرفوا خياركم شراركم، بالثناء القبيح، من الثناء الحسن».

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ ﴾. يقول: يقذفون أزواجهم بالزنا.

يقال: «إن هذه الآية نزلت في عاصم بن عدي وامرأته، يقال: أنه وجد شريك بن عبده عليها، وكان ضيفه، فقص على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القصة. فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: بينتك وإلا فالجلد. فقال: رأت عيناي، وسمعت أُذناي، ما كان الله ليجلد ظهري. فقال الأنصار: يجلد العشية، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أبشر قد أنزل الله فيك وفي صاحبتك، ثم تلا عليه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ ﴾... » إلى آخر القصة، ثم لاعن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بينهما، بعد أن ردده على شهادته، ورددها على شهادتها.

ولو نكل عن شهادته وقوله لَحَدَّه في قذفه، ولم يكن عليها حد، ولو نكلت عن شهادتها لَحَدَّها ولم يكن عليه حد، وهذه الملاعنة لا تكون إلا بين يدي الحاكم، لأنها فرقة لا يرجعان بعدها، والولد إن كان ولدٌ، ولدُ الملاعنة ينسب إلا أمه، ولا ينسب

إلا أبيه، وعصبته عصبة أمه، يرثهم ويرثونه على مجرى السهام.

فإن كان اللعان وقد دخل بها، فعليه المهر كاملا، وإن لم يكن دخل بها فلها نصف المهر، وإن قذف هذه الملاعنة قاذف، ولم يأت على قوله بأربعة شهداء جُلد بها الحد، وكذلك إن عاد الزوج بعد الملاعنة والفرقة لها بالقذف جلد لها، والملاعنة فقد تقع بحمل وبغير حمل.

وقوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾. يقول: تاب عليكم فستركم بما أظهر من براءة هذا الصادق، والمخرج الذي جعله له، وأجراه حكما فيمن قال كقوله.

﴿حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾. يقول: ليس في تدبيره تفاوت ولا فساد، وفضل الله فلا يحصى ولا يُوقف له على حد، غير أن من فضله في هذا الموضع ما أزاح من الحدود الواجبة بالأيمان، وأظهر من الحكم بالدعوى مع اليمين، إذا عدمت البينات، ووقعت الشبهات.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾. فالإفك: الكذب والبهتان، والزور من الشهادة والعدوان، في قذف الرجال والنسوان، وفي غير ذلك من المعاني.

﴿ عُصْبَةٌ ﴾، والعصبة الجماعة من العشرة، فما قاربها وزاد عليها. وسميت العصبة باجتماع بعضها إلى بعض، وكانت هذه العصبة من المهاجرين والأنصار.

قوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. يقول: لا تعدوا هذا القذف شرا لكم، بل هو خير لكم، لما في عاقبته من البيان والحكم، والرحمة والعلم، وما يتلى في البراءة منه من القرآن، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فبرأ الله زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأظهر طهارتها من قذف القاذفين، وعيب المرجفين، وبهتان المعتدين، فتاب من كان صاحب شك، وازداد هلاكا

وحسرة من كان صاحب إفك، على المعاندة لليقين والترك، وعظمت المنة فيها أنزل الله، وارتدع الخائضون، وزال الشك، وغلب الحق، وبطل ما زوروا من الكذب.

وقوله: ﴿ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝ ﴾. معنى ﴿ ٱكۡتَسَبَ ﴾ يقول: اقترف وارتكب من الإثم والزور والحرام.

قوله: ﴿ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾. يقول: كان صاحب القول العظيم، فيقال: إنه عبد الله بن أبي سلول.

وهذه القصة نزلت في عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، في غزوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد نزه الله أثوابها من العيب، وصان جيبها عن هذا الريب. والذي رُمِيت به صفوان بن المعطل السلمي، يقال: إنه كان رجلاً حصوراً لا يصل إلى النساء، وكان رجلا صالحاً، وقتل شهيدا.

وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج غازيا في حر شديد، وكانت معه عائشة، وكان صفوان بن المعطل إذا سار النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسار المؤمنين من مبيتهم، مكث حتى يصبح فينظر ما أسقط الناس من متاعهم في منازلهم إذا ارتحلوا، فيحمله، فتقدم به العسكر فيعرفه فكان يفعل ذلك، وأن عائشة لما نودي في الناس بالرحيل، رحل بها جملها، فركبت ودخلت هودجها، ثم ذكرت قلادة لها من جزع، فنزلت ولم يشعر صاحب الجمل، وكانت خفيفة الجسم، حدثة السن، فلم يتبين ثقل الهودج من خفته لقائده، فبعث الجمل وسار ولا يدري إلا أن عائشة في هودجها، فساروا حتى نزولا بعدما أصبحوا وعائشة في أثر الجمل، بعدما أصابت قلادتها وسبقها الناس، وأصبح صفوان بن المعطل في الدار يتلمس ما أسقط الناس، ثم ركب بعيره وانطلق يسير على آثار الناس، فإذا بعائشة تمشي، ولما سمعت الجَلَبَةَ

من خلفها غطّت وجهها، فقال صفوان – وكبر ذلك عليه وضاق به ذرعاً – ولم يجد بداً أن يقول: ما شأنك يا أم المؤمنين؟ حدثيني الحديث على وجهه! فحدثته فأتاها ببعيره، فأقسم عليها لتركبن الرحل، فأبت عليه، فركبت عجز البعير تسترا، وركب ابن المعطل الرحل، ونزل الناس وفُقدت عائشة، وضرب لها من كل وجه، ولم يعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بفقدها، فدخل علي بن أبي طالب عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إن عائشة قد فُقدت، ولا ندري أين ذهبت، فبنا هم كذلك إذ طلع عليهم صفوان مردفاً عائش، فرماها ناس، منهم عبد الله بن أبي سلول، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، فضرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله بن أبي سلول، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أُثاثة، ويقال: إنه ضرب حمنة ابنة جحش حد القذف.

وأكذب حسان بن ثابت نفسه، فقال في عائشة:

حصَانٌ رزَانٌ لا تَـزْنٌ بريبـة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

لأن كنت أهجوكم كما قد زعمتمُ ... فلا رفعت سوطي إلي أناملي

وكيف وودي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافل[1]

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شديد الغيرة، فقال: لا تدخلن عائشة لي رحلاً، فلما انتهت إلى منزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج علي بن

---

(١) في الديوان:

حصان رزان ما تـزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فإن كنت أهجوكم كما قد زعمتم ... فلا رفعت سوطي إليَّ الأنامل

فإن الذي قد قيل ليس بلا نط ... بك الدهر بل سعيُ أمري بك ماحل

وكيف وودي ما حييت ونصرتي ... لآل نبي الله زين المحافل

أبي طالب عليه السلام فقال لها: إن النبي قد بلغه عنك الذي يكره، فالحقي بأهلك.

فاسترجعت عائشة ثم خرجت تبكي حتى أتت رحل أبيها أبي بكر، فقال لها: مالك يا عائشة؟

فقالت: أخرجني النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قال أبو بكر: فأنا أحق أن أخرجك، لا والله لا تدخلين رحلاً حتى ينزل الله عذرك إن كان لك عذر، أو يرضى عنك النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فانطلقت تجول في العسكر لا يؤيها أحد من الناس، وهي تدعو الله وتبكي وتسأله أن ينزل عذرها وبرآءتها، فنزل جبريل عليه السلام بعذرها من الله، وعاتب المؤمنين في الذي خاضوا فيه من أمرها، وجعل اللعنة على من ﴿تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فقال سعد بن معاذ الأوسي - أحد النقباء - حين سمع ذلك من النـــاس: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾. يعني: فهلا إذ سمعتموه، فوعظهم الله أن يعودوا لمثله أبدا، إن كانوا مؤمنين، فلما أنزل الله عذرها، أرسل إليها نبي الله، فانطلقت البشرى إلى أبي بكر بالذي أكرم الله به عائشة، وأنزل من عذرها، فأرسل إليها أبوها، فقال: لكن الله علام الغيبوب، فحلف أبو بكر وأُناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم - وساءهم الذي كان - والله لا ننفع رجلا من الذين قالوا لعائشة معا قالوا، وما نصلهم ولا نوفقهم، وكان مسطح بن أُثاثة بينه وبين أبي بكر قرابة من قِبَل النساء، وكانت به فاقة، وأقبل مسطح إلى أبي بكر، ليعتذر إليه، فقال مسطح: أي خال، جعلني الله فداك، والله الذي أنزل الكتاب على محمد ما قذفتها، ولا تكلمت بشيء مما قيل لها.

فقال أبو بكر: ولكنك قد أعجبك الذي الذي قيل لها.

فقال: لعله قد كان بعض ذلك، فأنزل الله في شأن مسطح: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾. يقول: لا يحلف أولوا الفضل منكم والسعة ﴿ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾.

قوله: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾. يقول: لم يزولوا عن يقينهم الذي علموه بخير لا يثبتونه، ولا يعلمون باطنه، ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ ﴾. يعني: كذب وزور وبهتان، لا ترد الحقائق بالشكوك والظنون.

قوله: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾. يقول: فهلا جاءوا عليه باربعة شهداء إن كانوا صادقين، ففرق عز وجل بين الخبر والشهادة، إذ لكل واحد منهما وجه على صاحبه، والشهادة لا تكون إلا علم، وكثير من الأخبار قد تكون عن الحدس والظن والرجم والتوهم، والخبر الضعيف الذي لا يصدق عند الفحص والنص، ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾. معنى: حكمهم عند الله الكذب.

قوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾. تهدد للسامعين التاركين للنكير، المصغين إلى القائلين، المنصتين إلى أخبار المجترئين في الطعن على المؤمنين، وإيجاز شهادة الشاهدين، إذا أتت على اليقين، وهذا في أمر عائشة، وخوض من خاض في قذفها، وسَمِعَه ولم يغير ولم ينكر.

قوله: و ﴿ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾. فالمحصنات فهن العفائف.

﴿ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾. فيعني: نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا القول خاصة، لأنهن غافلات عن الفواحش، وعن من يقذفهن بها، وهذا لمن كانت من النساء غافلة، شرط لا يمنع منه.

قوله: ﴿ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾. يقول: حكم عليهم باللعنة، واللعنة فهي: [في] الدنيا الحدود، وإسقاط الشهادة ما لم يتوبوا.

واللعنة في الآخرة العذاب، تهدد للنساء معين.

هذا ومسطح بدري مهاجر، وحسان محله في مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومكانه من الأنصار ووسطته في الدار مشهور، وحمنة فقرابتها من رسول الله قرابتها.

ألا تسمع كيف شهم عليهم بالإفك والبهتان والزور والكذب، بقوله: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾. يعني: تنزيها لك براءة من العيب.

قال الأعشى: أقول في معنى ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أنها براءة من الشيء.

أقول لما جاءني فخره ... سبحان من علقمة الفاخر[1]

أي: براءة من علقمة الفاخر، وتنزيها.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾. يقول: يظهر فيهم القول القبيح.

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. يعني: دائم الألم.

﴿ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾. ففي الدنيا الاتباع بالقول القبيح والتأديب والضرب، وفي الآخرة تحت أطباق الجحيم.

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾. يقول: هو العالم بالأمور كلها لا بتعليم، وأنتم تظنون الأمر في ذلك سهيلا، وهو عند الله عظيم.

---

(١) البيت للأعشى، ميمون بن قيس بن جندل من بين قيس بن ثعلبه الوائلي أبو بصير، المعروف بالأعشى. وهو في ديوانه هكذا:

أقول لما جاءني فجره ... سبحان من علقمة الفاجر

قوله: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾. وخطواته: زلله وخطيئاته، وما دعا إليه الناس من الأباطيل والوسوسة.

وقوله: ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾. يقول: من يتبع أمره وزلله ﴿ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾. خبر بما يأمر به إبليس، وأن مراده والجنس الذي يدعو إليه المعصية.

قوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾. يعني: القاذفين والمستمعين الراضين، والخائضين المحبين لذلك.

﴿ مَا زَكَىٰ ﴾. يعني: ما طهر.

﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾. لا يزكي ولا يطهر إلا من استحق التزكية. وهذه تزكية الحكم والتسمية.

وقوله: ﴿ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ من الناس.

﴿ وَٱلْخَبِيثُونَ ﴾ من الناس ﴿ لِلْخَبِيثَـٰتِ ﴾ من الكلام.

﴿ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ ﴾ من الكلام ﴿ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ من الناس.

﴿ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ﴾. يقول: الطيبون من الناس للطيبات من الكلام. والطيب من الكلام فهو الصواب المبين، والحق الحسن الجميل، والخبيث من الكلام الفاحش المتروك المذموم. ألا تراه يقول: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ [إبراهيم:٢٦].

قوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾. يقول: ما يقال فيهم.

وقد يقال: إن الطيبين هم الذين لم يخوضوا فيما خاض فيه الآفك، ولم يسمعوا له استماع قبول ولا تصديق، فبرأهم الله من المذمة التي لحقها غيرهم.

﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾. يقول: غفران بحسن ضمائرهم.

﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾. أي: جزاء على أفعالهم.

وقد يقال غير ذلك. وهذا أصح الأقوال عندي.

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾. يقول: الذين صدقوا بأعمالهم، ﴿ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ ﴾، فالاستئناس: الاستئذان بالنحنحة، والتسبيح والكلام، والقول بين القولين.

قوله: ﴿ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾. يقول: وتحيوا أهلها بالسلام، والسلام هاهنا: التحية.

قال الشاعر:

ألا يـــا نخلــة مـــن ذات عـــرق ... عليـــك ورحمـــة الله الســـلام[1]

﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾. يقول: لتذكروا ما يجب عليكم.

قوله: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا ﴾. لغيبة أهلها عنها. ﴿ فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾. فهو أن يكون رب المنزل قد أذن لضيفه، و للوارد من أهله أن يدخل إلى منزله، إذا لم يكن فيه.

قوله: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ﴾ إذا كان أهلها فيها. ﴿ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾. يقول: انصرفوا فهو أطهر لكم، يقول: أنفى للريب، وأحسن في الأخلاق.

---

(١) البيت لأبن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر ابن محمد رأس الفوارس، شاعر أديب مؤرخ. والبيت بهذا اللفظ:

لقد أصبحتها طرفي نقيض ... ألا يا نخلة من ذات عرق

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾. يقول: عليم بما يكون منكم عند الأذن، وعند الرد، وعند غيبة أهل البيت. فحذَّر في جميع هذه الوجوه وأنذر.

قوله: ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾. يقول: ليس عليكم ضيق ولا حرج ولا إثم. ﴿ غَيۡرَ مَسۡكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمۡۚ ﴾ فهي المنازل والأسواق، وغير الأسواق وعلى طريق الرفاق.

والمتاع فهو: البلغة والإستتار من البرد والحر والأمطار. وقد يكون فيها متاع من أمتعة الحرم.

قوله: ﴿ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾. يعني: تظهرون وتسترون.

وقوله: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾. فهذا أمر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمن اتبعه من المؤمنين، ومن وصل به خيره من الخلق أجمعين: أن يغضوا أبصارهم، ولا يُحِدُّوا النظر إلى ما حرم الله عليهم، وغض البصر فهو كسره عن النظر.

قال الشاعر:

فغـض الطـرف إنـك مـن نمـير فـلا كعبـاً بلغـت ولا كلابـاً[1]

يقول: اخفض بصرك عمن لا يجوز لك أن تنظر إليه.

قوله: ﴿ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ﴾. فهو رعايتها وصيانتها من الحرام، وما قد نهي عنه من الآثام. وحفظ الشيء صيانته عن التضييع وإحرازه.

(١) البيت لجرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي، أبو حرزة، من تميم، أشعر أهل عصره ولد ومات في اليمامة.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾. يقول: أطهر لقلوبهم وأعمالهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. حذرهم وأنذرهم أن يفعلوا الفاحشة، سراً ولا علانية، وجعل من ذلك الحلال بدلاً وكفاية، وسترة ورحمة.

قوله: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾. فالجواب في الرجال في هذا المعنى هو الجواب في النساء سواء.

قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾. فهذه خاصة لهن من بين الرجال. يقول: لا يظهرن زينتهن.

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾. والزينة المواضع الممنوعة من الأيدي، كالحلي والخاتم والخضاب، وموضع القلادة، وما تواري الثياب.

قوله: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾. فالخَمْر: جميع ما خمر به الرأس وغطاه، والخُمُر: الغطاء من الثياب والشجر.

وكن يبدين النحور، ولا يسترن الصدور، فعلَّمهن الله كيف يلبسن.

قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾. هو الشعر وما أشبهه من البدن، مما يجوز أن يراه الابن والأخ والحما وأشباههم.

﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾. والبعل: الزوج المالك.

﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾. والخطاب فحمل في جميع الآباء من الرضاعة والنسب.

﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾. فهم أبناء زوج المرأة.

﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾. فهم الأخوة.

﴿ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ كذلك.

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾. يريد: من كان غير بالغ من الخدم.

﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾. ﴿غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ﴾ فهم: الذين لا أرب لهم في النساء من الرجال، من هرم مذهل، أو مرض شاغل.

﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾. فهم الصبيان الذين لا يعرفون مواضع العورة من النساء.

قوله: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾. كن نساء يلبسن الخلاخل في أرجلهن، فإذا مررن بمجلس ركضن بأرجهلن، فسمع صوت الخلاخل، فسمعهن أهل الريب، ويعلمون أنهن متبرجات غير عفيفات، فأدب الله النساء بأدب حسن، ووقفهن على هدى كريم، فيه التستر والخفر.

قوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾. يقول: أيها المصدقون، يقول لهم: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝﴾. أي: لتفلحوا، خوّف المؤمنين أن تكون بهم أمور لا يعلمونها، فأمرهم بالتوبة منها.

وقد روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إني لأرجو أن أكون أملككم لأربه، وإني لأتوب إلى الله في اليوم والليلة مائة مرة». هذا من لطف النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأمته، رأفة بهم وشفقة وكريم خلقه، ومبين دلالته على الخير ودعوته.

قوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾. ﴿ٱلۡأَيَـٰمَىٰ﴾: اللواتي لا أزواج لهن.

وروي أن امرأة أتت إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: امرأة لا أيم، ولا ذات زوج، في شكوى لزوجها يطول ذكرها.

إذا جئت تبغي أيماً عن جهالة   تراها بها فانظر أباها وخالها

قوله: ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ﴾. فهم: المؤمنون من الرجال.

وقوله: ﴿ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. فأطلق تزويج الإماء، وتزويج الفقراء، بقوله: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ ﴾. عطف بهذا القول بعضهم على بعض.

يقول: لا تمتنع من تزويج الفقراء، فإن الله يغنيهم من فضله، ولا تزهد في المرأة لفقرها، وارغب في صلاحها.

كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((تزوج المرأة لجمالها، تزوج المرأة لنسبها، تزوج المرأة لمالها، تزوج المرأة لدينها، فعليك بذات الدين تربت يداك)).

﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. في العطاء والرزق، بمصالح الخلق.

قوله: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾. يقول: لا يقدرون عليه لما هم في من قلة، وإعجاز مقدرة، ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ ﴾. أمره بالصبر على وقت الإمكان والجدة.

والإستعفاف فهو: الإمساك عن الطلب بالمسألة واليد والحيلة، والكف عن الأمر المحرم.

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًاۖ ﴾. فهؤلاء المماليك الذين يطلبون المكاتبة، وليس هذا بأمر فرض، ولكنه أم ندبة وترغيب.

قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًاۖ ﴾. يقول: إن كان عندهم أمانة، ولهم وفاء، ولكم في ذلك صلاح.

وأما قوله: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْۚ ﴾. يقول: أعينوهم من مال الله الذي رزقكم، ويقال: أعينوهم بترك ما عليهم من المكاتبة، وهذا على التفضل والإحسان، وليس بفرض.

وقد ضرب الله لهم في سهم الرقاب من الزكاة المفروضة.

قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. وهذا أن يقول الرجل: لا أزوج حرمتي إلا من ذي شرف ومال، ويسار وحسن حال، فيدعوه المنع من التزويج إلى ما حرم الله عليها، فنهاه الله عن تعريضها للفتنة، وأمره بتزويجها.

والفتاة: المرأة التي لم تزوج الحَدَثَة، والإحسان إليهن والتأدب بأدب الله خير من حمية الجاهلية. والبغاء: الزنا المشتهر بعلامة تكون لصاحبته.

وروي أن فتيات كن بالمدينة أتين إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلن: يا رسول الله، إن أهلنا يكرهونا على الزنا، فنهى عن ذلك. يقول: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾، يعني: تعففا وتسترا من الفاحشة.

والأول أشبه التأويلين، لأنه لا يحل للأمة أن تزني ولو أن مولاها لم يكرهها على ذلك، والنظر يؤيد القول الأول.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾. فـ ﴿أَنْزَلْنَا﴾: أهبطنا، والآيات من القرآن، و ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾: واضحات منيرات.

قوله: ﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾. يقول: وضربنا لكم الأمثال من الذين خلوا من قبلكم. و ﴿خَلَوْا﴾ فهو: مضوا وتقدموا.

﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾. يقول: تذكرة وتخويفا لمن يتق الله ويخافه من المتعبدين.

وقوله: ﴿۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. فهو: المظهر للحجج القاهرة، والأعلام النيرة الباهرة، والدلالات الواضحة المنتشرة. مما يدل به رب البرايا، ومنشئ الأشياء، ومبين الحق، والقائم بالقسط، وأنه منير السماوات والأرض

بذلك، لا على أنه نور من الأنوار فتضاده الظلمة، وتحويه الأمكنة، وتحويه الأزمنة، ليس بنور ضوء فيزول، ولا بنور حر فيحول، ولكنه الدال بالحق المبين، الذين لا شبهة فيه، ضربه مثلاً، حيث يقول: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾. ولم يقل: مثله، إذ لا مثل له، ولا شكل، ولا شبه، ولا عديل.

والنور يخرج في كلام العرب مخارج كثيرة، منها:

أن يقال: كلام فلان نور، وقوله نور، وفعله، والفعل والقول ليسا بنور، إلا على المثل السار، والله لا تلحقه صفات الحدث، ولا تدركه الحواس ولا الفكر.

قال الشاعر:

وقــد جــاء نــور في الكتــاب مبينــا ... جلا الشك عنا والضـلال فنـوَّرا[1]

قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٖ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾. يقول: مثل احتجاجه وبرهانه، وتبيينه لخلقه الدليل، ونصب السبيل، ﴿كَمِشْكَوٰةٖ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، والمشكاة: الكوة الضيقة غير النافذة، وإذا كانت كذلك كان أقوى لضوء المصباح، والمصباح السراج المتوقد في الذبال المفتول.

قوله: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾. فالزجاجة: القنديل، استغنى باسم الزجاجة عن القنديل، لمعرفة المخاطب بذلك.

قال امرؤ القيس:

نظــرت إليهــا والنجــوم كأنهــا ... قناديــل رهبــان تُشــب لقفــال[2]

---

(١) لم أعثر عليه.

(٢) البيت لأمرئ القيس.

والبيت بهذا اللفظ في الديوان:

نظرت إليها والنجوم كأنها ... مصابيح رهبان تشب لقفال

قوله: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾. يقول: أبيض شديد البياض، يشبه بالدر وهو اللؤلؤ.

قوله: ﴿يُوقَدُ﴾ النار، ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾. ثم خبَّر ما هي وفسر، فقال: ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ مباركة، يقول: بارك فيها فأخرج منها حملها تاما صافيا، لا فساد فيه، ولا تغير في حبه.

قوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾. يقول: لم تكن في ظل المشرق، ولا ظل المغرب، فيستولي إحدى الجهتين، وتنسب إلى إحدى الناحيتين، صحت للشمس، وصحت من كل آفة.

قوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾. يقول: نور الزيت الصافي من السواد والعكر، والمستخرج من خير معدن ومعتصر، ونور النار الممدة بخير الأدهان الموقدة، في أحرز مكان، المصفاة من الشواظ والدخان، ونور الزجاجة المصفاة من الجوهر النفيس، الخالص من اللون اليبس، فكذلك حجج الله وآياته وبرهانه، ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، وبيان لأهل السماء والأرض، ومفصل للحق والفرض، فهو لأهل السماء برهان وعليهم حجة، ولأهل الأرض نور وعليهم حجة، وفيما بين ذلك نور وحجة، فكل ذلك ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾. يقول: لدينه من اهتدى، يزيد من اهتدى هدىً، لأنه يشاء أن يهدي المهتدين، ويضل الضالين، فهدى المهتدين بهداهم، وأضل الضالين بضلالتهم، وذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]. أي: عَرَّفهم ما يتقون، ويضل الله الظالمين، وهذا مثل ضربه الله للدين، فقال: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾. يقول: هو العالم بالأشياء كلها، لا يخفى عليه شيء منها.

قوله: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾. هن المساجد التي تبنى للذكر، ودراسة العلم، والصلاة، وتعلُّم الخير، ورفع البيوت فهو بنانيها وعمارتها، و ﴿ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾، يقول: أذن أن ترفع.

﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾. ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾: يُذكر بها يجب من التنزيه والمدح، والتسبيح والذكر.

في ﴿ ٱلْغُدُوِّ ﴾: أول النهار.

﴿ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾: وقت العشاء.

﴿ رِجَالٌ ﴾: قوم من المؤمنين.

﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾. فالتجارة والبيع في البضائع التي تباع وتشترى، والصلاة والصوم فما لا يجهل معرفته.

﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾. يقول: يوم البعث الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار، حالاً بعد حال، على قدر الحوادث والأهوال، والحساب والأهوال.

والصلاة والصيام فاحفظوا حدودهما، وأْتُوا بهما على رسومهما.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾. والسراب: هو الذي يطرد في حر الشمس على وجه الأرض ورقاقها، وفي الفيافي وخروقها، وفي القيعان وفلواتها، كأنه ماء للناظر العطشان، والصدي الضمآن.

والقيعة: فالموضع من الأرض لا نبات فيه، فبكسر حر الشمس الواقع بمطرد السراب.

و ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾. يقول: بحاله وبظنه ماء، لغروره وجهله.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾. قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾، مثل الكافر المغرور، أنه إذا أتى على عمله، لم يجده شيئا، كما أن الآتي إلى السراب لم يجده شيئا، وهو شيء في نفسه ينظر، ولكن لم يجده ما كان يُتوهم من الماء، كذلك من عمل بغير بصيرة، وركب الهوى، وترك الهداية.

قوله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾. فإنه وجد أمر الله عند حقيقة اليقين، أن عمله باطل عندما صار إلى الله فوفاه حسابه، يقول: حاسبه حساباً سريعاً لا يشغله شأن عن شأن.

قال الشاعر:

ودا‌ويـــة قفــر قَطعـــت نياطهـــا ضحى وقرن الشمس بالآل تطفح[1]

قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾. فهذا مثل مضروب أيضا للكافر.

أما البحر اللجي: فالكثير الماء، البعيد القعر.

والموج: فهو الذي تصفقه الرياح في الماء، يكون في البحر اللجي كأمثال الجبال.

﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾. يقول: من فوق البحر غمام.

---

(١) لم أقف عليه.

﴿ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ ﴾. يقول: ظلمة السحاب، وظلمة الموج، وظلمة البحر.

﴿ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ ﴾. يقول: لم يرها أصلاً.

و ﴿ لَمۡ يَكَدۡ ﴾: على التقديم في اللفظ، والتأخير المعروف في لغة العرب، وكذلك الكافر لا يرى ثواب ما عمل، إذا كان لغير الله عمله.

﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾. يقول: من لم يؤته الله ثوابا على عمله، فما له من ثواب.

وقوله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ ﴾. يقول: ألم تعلم أن الله يسبح له من السماوات والأرض؟!

فالتسبيح: التنزيه لله. والتسبيح: الصلاة.

فمن كان من المأمورين المنهيين من الملائكة والنبيين والإنس والجن أجمعين، فسبح وصلى، فإن الله عليم بفعله، غير مضيع حقه فيه، ومن لم يسبح لعتوه وكفره، أو لبلهه أو صغره وعجزه، أو كان غير ناطق، أو كان مواتا، فآثار الصنعة فيه ثابتة، وهو بالخضوع والمذلة لله شاهد على نفسه بالربوبية، فقد دخلوا جميعاً في التسبيح والخضوع من هذه الجهة، لأن الصلاة قد تصرف على غير الركوع والسجود، وتكون ممن لا يفعل الحمد، كما قال الله سبحانه: ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ [الرحمن:٦].

قال الشاعر:

بجيش تضل البلق في حجراته ترى الأكم منه سجداً للحوافر[1]

---

(١) البيت لزيد الخيل الطائي، زيد بن المهلهل بن منهب بن عبد رضا، من طئ كنيته أبو مكعف، من أبطال الجاهلية لعت زيد الخيل للكثرة طيلة، أو لكثرة طراده بها، كان طويلا جسيما من أجهل الناس.

قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾. فهو المالك الذي لا مالك لهما غيره، ولا خالق لهما سواه، ولا إله إلا هو العزيز الحكيم.

وقوله: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾. يقول: المرجع والمآب في الآخرة.

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾. يقول: يُسيِّر سحاباً.

﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ﴾. يقول: يجمع بعضه إلى بعض.

﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾. بعضه فوق بعض، وهو السحاب الغليظ الكثيف المثقل بالماء.

وقوله: ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾. الودق: الغيث.

﴿ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾، يعني: من خلال السحاب، من بينه.

قال الشاعر:

فـــلا مزنـــه ودقـــت ودقهـــا ولا الأرض أبقـــل إبقالهـــا[1]

قوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾. فكلما ارتفع وعلا فهو سماء، والسحاب سماء من دون السماء.

قوله: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ... يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾. يقول: يصيب به من يشاء عقوبة، ويصرفه عمن يشاء برحمته.

﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ ﴾. يقول: يكاد ضوء هذا البرق المؤتلق في هذا السحاب، أن ﴿ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾. يقول: يختطفها بلمعانه، ويغشيها بتتابع وميضه.

قوله: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾. يجريهما خِلْفة.

(١) لم أعثر عليه.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾. يعني: عبرة للبصير العارف، والمتفكر المنصف، أنه إذا أعاد الليل بعد ذهابه، والنهار بعد انصرامه، غير عاجز عن إعادة العبد بعد موته، والخلق جميعا بعد فوته، فيكون حياً بعد أن كان ميتاً، كما كان ميتا بعد أن كان حياً.

وكما أنشأ سحابا فجمعه بعد تفرقة، وفرقه بعد التفاف قُزعه، وأرسلت السماء ودقها بعد امتناع، ثم امتنعت بعد قلة إقلاع، كل ذلك آيات معجزات، واضحات شاهدات، لمن ابتدأهن بالقدرة على إعادتهن، وأنه الواحد القهار، الذي لا شبه له وهو على كل شيء قدير، ولا وزير له ولا ظهير، ولا معين ولا مشير. سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

قوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾. هذا على الأعم الأكثر، وعلى الجمهور الأشهر، لأنه تبارك وتعالى قد خبَّر أنه خلق آدم من غير ماء، وخلق حواء من غير ماء.

ويروى أن ناقة صالح صلى الله عليه من غير ذلك. ولكن الأعم والكثرة من ماء دافق.

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ ﴾. الحية وما أشبهها.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ﴾. ابن آدم، وكثير من الطيور، وغيره.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ﴾. من الخيل والبغال والحمير والجمال، وغير ذلك من الأنعام والدواب.

ومنهم من يمشي على أكثر من ذلك.

فذكر الله الأعم الأكثر، وترك القليل المغمور. إذ كان ضئيلاً في جنب الكثير المشهور، مع أن من كان يمشي على أكثر من ذلك، فقد يمشي على أربع وعلى رجلين في البطن.

وقوله: ﴿ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾. يقول: يقدر ما يشاء، وكلما قُدِّر فهو مخلوق.

﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾. يقول: لا يعجزه شيء، ولا يمتنع منه شيء.

وقوله: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾. فالآيات: القرآن، وما آتاه محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الدلالات.

والصراط المستقيم: الطريق الذي استقام بأهله التي أُمروا به.

قال جرير:

أمـــير المـــؤمنين عـــلى صراط ... إذا اعـــوج المـــوارد مســـتقيم[1]

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾. فهؤلاء قوم صدَّقوا بألسنتهم، ثم تولوا، أي: أعرضوا عن الحق.

﴿ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾. يقول: بالمصدقين، الذين صدقوا أقوالهم بأعمالهم، وتموا على ما أظهروا من انتحالهم.

وقوله: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ عن ذلك، مخافة أن يحكم عليه بالحق، وأن تكون عليه الحجة، والمعرض عن الشيء: المائل عنه، المنحرف منه، انحراف الكراهة.

وقوله: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾. يعني: سلسين مطيعين، غير معاسرين.

---

(١) سبقت ترجمته.

قال الشاعر:

وخـرق بعيـد قـد قطعـت نياطـه ... على ذات لوث سهلة السير مذعان[1]

يريد: مطيعة لينة مواتية.

قوله: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ ﴾. يريد: مرض النفاق، وإعراض الخلاف والشقاق. ومرض القلب: شكوكه في الشيء.

﴿ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ ﴾، يعني: شَكُّوا، وتحيروا في دينهم.

وقوله: ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾. يقول: أم يحذرون ويخشون أن يجور الله عليهم فيما أنزل من الحكم، أو أن يتعدى عليهم رسول الله غير ما في الرسم، فيمتنعون من هذه الجهة، ويكرهون حكومته. ﴿ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾. لله ولرسوله، ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، معنى جوابهم إذا طلبوا المخاصمة إلى رسول الله، المؤمنين المصدقين ﴿ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾. يريد: قبلنا القول، واتبعنا الأمر بالطاعة.

و ﴿ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ فهم: المفلحون في أعمالهم، الباقي ذكرهم في المواطن التي تحمد منهم.

وقوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾.

---

(١) البيت لأمرئ القيس.

والبيت بهذا اللفظ في الديوان:

وخرق بعيد قد قطعت نياطه ... على ذات لوث سهوة المشي مذعان

الطاعة: اتباع الأمر ولزومه.

والخشية: الخوف من الله سبحانه.

والتقاة: المحاذرة من الله وتوقي محارمه.

والفائز: فهو المبعد من عذاب الله، والصائر إلى رحمته، نالوا فوق المنى، ففازوا بمنزلة لا يقربها العذاب، ولا يحلها الفناء.

وقد روي أن هذه القصة من قوله: و ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ... ﴾ إلى هذا الموضع، «نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، وعثمان بن عفان في الأرض التي أعطاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا وعثمان، واقتسماها بالمدينة، فصار لعثمان خير النصيبين، فقال له علي بن أبي طالب عليه السلام: اشتر مني نصيبي، أو بعني نصيبك. فاشترى عثمان نصيب علي، فلما اشتراه ندم عثمان، فقال علي: قد اشتريتَ ورضيتَ، فالحق أخاصمك إلى رسلو الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال الحكم بن أبي العاص، والمغيرة بن أبي العاص لعثمان: لا تخاصمه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن إلى غيره، فأنزل الله فيه ما أنزل».

وهذا وإن كان الحكم به أول مرة خاصاً في بعض دون بعض، فإنه باق مثبت واجب، على كل من كره المخاصمة إلى كتاب الله، وإلى أوليائه، وأئمة الحق من عباده.

قوله: ﴿۞ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ ﴾. ﴿أَقۡسَمُواْ﴾: حلفوا.

﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾. يقول: أشد قَسَمهم وأكثره.

﴿ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّ﴾. يقول: لئن حرَّمت عليهم بالأمر ليخرجن من الحق الذي يُطالبون به.

وقوله: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. يقول: لا تحلفوا، ولتبين منكم الطاعة.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. يقول: بصير بها تعملون، وما تسرون وما تعلنون.

قال الشاعر:

وأقسم أن لو التقينا وأنتم ... لكان لكل يوم من الشر مظلم[1]

فهذا القسم يمين.

وقوله: و ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾. الطاعة: اتباع الأمر ومراعاته.

قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا محال في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن أحب مطيع[2]

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾. يقول: رجعوا وأدبروا.

﴿حُمِّلَ﴾، يعني: ما أمر به من التأدية، وعليكم ما أمرتم به، كل مأخوذ بجرمه،

---

(١) البيت للمسيب بن علس، المسيب بن مالك ابن عمرو بن قمامة بن ربيعة بن نزار، شاعر جاهلي، كان أحد المقلين المفضلين في الجاهلية، وهو خال الأعشى ميمون، له ديوان شعر، شرحه الآمدي. والبيت في الديوان بهذا اللفظ:

فأقسم أن لو التقينا وأنتم ... لكان لكم يوم من الشر مظلم

(٢) البيت لأبي العتاهية إسماعيل ابن القاسم بن سويد العيني العنزي، أبو إسحاق، شاعر مكة، سريع المخاطر في شعره إبداع من مقدمي المولدين من طبقة بشار وأبي نواس، ولد ونشأ قرب الكوفة، وسكن بغداد، توفي في بغداد.

لا تسألون عن عَملِه، لا تؤخذون به، ولا يُسأل عن أعمالكم ولا يُؤخذ بها، عدلاً ورحمة، ومنة ونعمة.

﴿ تَهْتَدُواْ ﴾. يقول: طريق الحق لأنه يرشدكم الطريق، ويبين لكم ما عليكم من فرض ربكم في كل سعة وضيق.

قوله: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾. يقول: أداء الرسالة، والتبيين لما كُلِّف من النصيحة.

وقوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾. ﴿ءَامَنُواْ ﴾: صدقوا أقوالهم بأفعالهم.

﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، يعني: المفروضات من البر والنوافل في كل خير.

وقوله: ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ ليمكننهم، ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وليدعونهم إلى القيام بالفرض، ﴿ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم، ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾. أي: يعليه ويظهره، ويؤيده وينصره على الأديان، حتى يكون مُمكَّن القرار، مؤيد الأنصار.

﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾. يعوضهم من الخوف أمنا، حتى يعبدوه عبادة ظاهرة مكشوفة، لا يتاقون فيها أحدا.

﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾. يقول: لا يجعلون في عبادتهم معي شريكا.

وقوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾. يقول: ﴿وَمَن كَفَرَ ﴾، أي: من تغطى واستتر فأولئك هم الفاسقون، الخارجون عن أمر الله وحدوده.

وقوله: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾. فهذه الصلاة المفروضة، والزكاة

الواجبة. وإقامة ذلك فتأديته وإيتاؤه في وقته ومواضعه.

قوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. يقول: اتبعوا الرسول لترحموا. والرحمة وجوب النصر، ووقوع الثواب، والحكم لهم بالشهادة.

وقوله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾. ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾: لا تظنن. ﴿مُعْجِزِينَ ﴾. يقول: غالبين لنا في الأرض. ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، أي: مصيرهم ومرجعهم. ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. يقول: بئس الدار والمنزل، نعوذ بالله من سخطه وعذابه، وما أعد لأعدائه من أليم عقابه.

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ﴾. يقول: هذه الأوقات التي يحتاج الناس فيها إلى الخلوة، فيكشفون فيها، ويبدون العورة.

و﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾، فهم إماؤكم وعبيدكم الصغار، الذين لم يبلغوا الحلم.

ثم ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ ﴾ بعد هذه الثلاثة الأوقات ﴿ جُنَاحٌ ﴾. والجناح: الإثم، أن يدخل بعضكم على بعض ﴿قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ في آخر الليل، و ﴿ٱلظَّهِيرَةِ﴾ وقت المقيل، و ﴿ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ فهو بعد العتمة.

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾، عليم بأعمالكم، حكيم في تدبيراته. و ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ﴾، أي: يوضح لكم طرق النجاة، وأسباب الدلالات.

وقوله: فـ ﴿إِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ ﴾. يقول: احتلموا وبلغوا مبالغ الأمر والنهي والفرض.

﴿ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾. لا يدخلوا في هذه الأوقات إلا بإذن.

وقوله: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾. ﴿ ٱلْقَوَٰعِدُ ﴾ التي كبرن. ﴿ لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾، لا يخفن نكاحا.

قال الشاعر:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عوامل[1]

﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ ﴾. يقول: إثم.

﴿ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾، يعني: جلابيبهن، وهن الأردية، وما شبهها من الثياب واللباس.

﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾، غير مبديات لما يحظر عليهن من شعورهن وأبدانهن.

﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾، وأن يستترن ولا يضعن ما عليهن خير لهن، على التأديب لا على الحظر.

﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾، سميع لدعاء الداعين.

﴿ عَلِيمٌ ۝ ﴾، بأفعال الفاعلين.

وقوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾. يقال: «إن هذا

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي خويلد بن خالد بن محرث، شاعر فحل مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وسكن المدينة، واشترك في الغزو والفتوح، وعاش إلى أيام عثمان، فخرج في جند عبد آمه ابن سعيد بن أبي السرح، إلى أفريقيه سنة ٢٦هـ غازيا. والبيت في الديوان بهذا اللفظ:

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عوامل

نزل في قوم من الأنصار، تورعوا عن الأكل مع الأعمى، والأعرج، والمريض، وقالوا: نأكل أكثر من أكلهم إذا اجتمعنا، وكان الأنصار أهل تركم وتَنَزُّه، فقالوا: إن الأعمى لا يبصر الطعام، وإن الأعرض لا يستطيع الزحام عند الطعام، وإن المريض لا يأكل كما يأكل الصحيح، فعزلوا لهم طعامهم على ناحية، وكانوا يرون أن عليهم في مؤاكلتهم جناحا.

وكان الأعمى والأعرج والمريض يقولون: لعلنا نؤذيهم إذا أكلنا معهم، فاعزلوهم واتركوا مؤاكلتهم. فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سألوه عن ذلك؟ فأنزل الله عليه ما أنزل)).

وقوله: ﴿عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾. فهن بمعنى: مع، لأنها من حروف الصفات، يقوم بعضها مقام بعض، كأنه قال: مع الأعمى.

وقوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ﴾. كانت حالهم أن يأكلوا من جميع هذه البيوت المسماة، والمنازل الموصوفة، فقالت اليهود: ليس لكم أن تدخلوا بيوت غيركم فتأكلوا من طعامه وهو غير حاضر، فأعلمهم الله أن ذلك جائز لهم، لأن كل ما كان في هذه الحال مطلق لهم، حتى يحظره أمر من الله، أو ينهاهم عن أكله.

أما ﴿مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾. فقد قيل فيه: إنه ما كنتم وكلاء عليه.

وقيل: ما كان لمماليككم. وكلٌّ حسن جميل.

والصديق: فالخليل والصفي والولي. والإخوان: هم الإخوة في النسب.

وقوله: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾، علَّمهم ذلك ليعظم لهم البركة، ولا ينسوا ذكر الله في كل حال. وإن كان في البيوت ساكن، فالتسليم عليهم واجب، فإن كان ليس فيها أحد، قال: السلام علينا من ربنا.

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾. يقول: يوضح الآيات لتعقلوا.

والعاقل: فهو المميز للأمور، والمستدل بما يرى على النظائر من التقدير.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾. ﴿ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾: المصدقون، الذين صدقوا الله ورسوله.

﴿ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾. يقول: قد جمعهم له ودعاهم إليه.

وقوله: ﴿ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾. يقول: لم ينصرفوا حتى يطلبوا ذلك منه.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ ﴾. يقول: لانصرافٍ في وقت حاجتهم.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾. يقول: يصدقون بالله ورسوله، ويؤمنون بالله ورسوله في عملهم.

قوله: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ﴾. جعل الأمر إليه في الأذن لهم، على قدر الحاجة إليهم، والغنى عنهم، ثم أمره أن يدعو الله لهم بالمغفرة.

وصف إنه ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾، غفور لمن تاب، رحيم لمن أناب.

وقوله: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾. يقول: إذا دعاكم لأمر، فلا تتفرقوا إلا بعد إذن.

وقد قيل: لا تقولوا: يا محمد، ولكن: يا رسول الله، ويا نبي الله.

والأول أعرف، لأن شاهده قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾. والمتسلل: المنصرف في خفية وغفلة. و ﴿لِوَاذًا﴾. يقول: يلوذ بالفرار من الجهاد، ويستتر به، ويلوذ بغيره.

ويقال: إنما أنزلت في قوم من المنافقين، كانوا يحضرون الجمعة، ثم يتسللون من قبل الصلاة، فينصرفون.

وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾. ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ فليخف، ﴿ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾، بلية أو مصيبة.

قوله: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. يقول: عذاب موجع مؤلم، نستجير الله من غضبه وعذابه، وشدة نكاله وعقابه.

وقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾. يقول: هو مالك ما في السماوات والأرض، ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ في دنياكم.

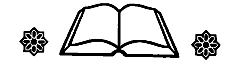
قوله: ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾. فهو عليم بذلك اليوم، لا تخفى عليه خافية، سرا كانت ولا علانية.

يعلم ما كان وما يكون، وهو العالم بنفسه، الذي لا يحتاج إلى تعلم، ولا يوصف بجهل، سبحانه وتعالى علوا كبيرا.

ما أظهر حكمته!! وأبين دلالته!! وأوضح حجته!! وأبعد من الحد صفته!!

القائم على كل نفس بما كسبت، وهو سريع الحساب، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١].

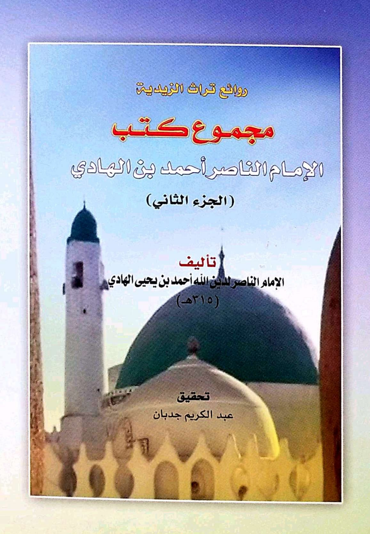
وصلى الله على من أنقذ به من شفا جرف هار، وهدى به من ضلال الكفار، ونعش به من الغفلة والعثار، محمد المطهر، والرسول المتخير، والسراج الأنور، ذي المقام الأشهر، والحوض الكوثر، والشفاعة التي لا تنكر، وآله النجباء، وُرَّاث العلم، وأصحاب الحكم، وسلَّم ورحم وكرم.



الفهرس

فهرس الكتاب





روائع تراث الزيدية
مجموع كتب
الإمام الناصر أحمد بن الهادي
(الجزء الثاني)
تأليف
الإمام الناصر لدين الله أحمد بن يحيى الهادي
(٣١٥هـ)
تحقيق
عبد الكريم جدبان